اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية



العدد الثالث عشر– صيف 2005

اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للغة العربية.

مجلة اللغة العربية

دورية تعنى بقضايا اللغة العربية وترقيتها يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.

المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن موقف المجلس

قواعد النشر

- التقيد بالمعايير العلمية والأكاديمية المتعارف عليها :كالتوثيق..
- أن تكون الأعمال أصيلة لم يسبق نشرها من قبل.
- ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو رئيس التحرير على العنوان المذكور أدناه.
- أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة.
- المقالات التي ترد إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

التحرير والمراسلة : المجلس الأعلى للغة العربية

6، شارع العقيد امحمد بوقرة، الأبيار – الجزائر

ص.ب. 575 ديدوش مراد – الجزائر

الهاتف: 24/25 07 23 21 (00213)

الناسوخ: 07 07 23 21 (00213)

الترقيم الدولي الموحّد للمجلاّت (ر.د.م.م) : 1112 . 3575

الإيداع القانوني: 02 7/20

محتويات العدد

كلمة رئيس التحرير

أ.د .مختار نويوات

ها نحن أولاء نقدّم إلى القارئ الكريم العدد الثالث عشر من "مجلّة اللغة العربيّة"، آملين أن يجد في محتواه بعض مبتغاه أو ما يستحثّه على إثرائه وعلى الإسهام في خدمة العربيّة التي كانت الهدف الأسمى لتأسيس هذه الدوريّة وفي نشر المعرفة بشتّى ميادينها ومختلف مظاهرها، شاكرين لمحرّري مقالاته جهودهم الجديرة بكلّ تقدير، الشاهدة بفضلهم وبرغبتهم في العطاء.

تتوزّع العددَ خمسةُ محاور متكاملة تخدم كلّها، بموادّها وبنتائجها، غرضا واحدا، وإن شئتَ قلتَ أغراضا متلاحمة يصعب الفصل بينها :

– تراجم لعلماء بارزين من أبناء هذا الوطن وهبوا حياتهم لمجتمعهم ولتنويره والذّبّ عن مقدّساته بما أوتوا من صدق في القول وإخلاص في العمل وبجدّ مثاليّ دؤوب أنتج آثارا يعتزّ بها كلّ غيور على وطنه ورسّخ مآثر بل مناقب أقلّ ما تفرض علينا أن نلفت إليها الأنظار وأن نُعَرِّف بها

تعريفا وافيا ونخصّها بدراسات مفصّلة ونُنَوِّه بها وبأصحابها تنويها يليق بها وبهم؛ وفي ذلك اعتراف بالفضل وبذويه.

– ودراسة تناولت بالبحث قضيّة نقل الثقافات الأجنبيّة في الأعصر العبّاسيّة الزاهرة وفي عصرنا هذا وقارنت بين الجهود المبذولة والوسائل المسخّرة والنتائج المحصّلة في القديم وفي الحديث وأثارت مشاكل تطرح نفسها علينا بحدة وتتطلّب منّا الكثير الكثير لا سيّما في مجالي العلوم والتكنولوجيا.

وألفت نظر القارئ الكريم إلى أنّنا في حقيقة الأمر لا نكاد ننجز شيئا لا في مجال النقل ولا في غيره. فالإحصاءات التي نشرتها اليونسكو، لسنة 2004، أثبتت أنّ الإنتاج في العالم العربيّ وفي جميع الميادين لا يتجاوز 0,35% بالنسبة إلى الإنتاج العالمي. والأسباب عديدة معروفة.

– وفي العدد بذرة طيّبة تتمثّل في نقد "المبرق" : المعجم الموسوعيّ في علوم الإعلام والاتّصال الذي ألّفه الأستاذ محمود إبراقن ونال به جائزة اللغة العربيّة لعام 2000. درسه الأستاذ فرحات بلّولي فعرض محتواه وأبرز أهميّته البالغة وعدّه أوّل عمل يُنْجَز على صعيد العالم العربيّ في مجال علوم الإعلام والاتّصال، ولاحظ عليه بعد الهنات الممكن تداركها لأنّ معظمها، فيما أعتقد، راجع إلى الأخطاء المطبعيّة كما عاب على واضعه قلّة اهتمامه بالتراث العربيّ وهو غزير وعدم استثماره للاشتقاق وهو المصدر الأساس في ثراء اللغة العربيّة.

وأنا واثق من أنّ لواضع المعجم رأيه أو آراءه في الموضوع ومن أنّ مثل هذه الملاحظات البريئة البنّاءة تبيّن قيمة أثره العلميّ واهتمام مواطنيه به. لكنّ ما يثلج الصدر أنّ هذه الملاحظات خير مثَل لما ينبغي أن يصحب كلَّ إنتاج، مهما كان ميدانه، من دراسات نقدية تُثْرِيهِ. فتَلاقُح

الأفكار أحسن وسيلة لتقدّم العلم ولاكتشاف المنهج القويم. ولنا أسوة في التراث العربيّ القديم وفي الإنتاج العالميّ الحديث.

– ومن المقالات ما أبرز دور المؤسّسات، مهما كانت طبيعتها، في تمكينها للغة وجعلها الدّعامة الأساس لتحقيق مراميها والأنماط التي تقوم عليها والسلوك الذي تريد ترسيخه. ولا يتأتّى لها ذلك إلاّ بلغة لَصيقَة بالواقع المعيش مؤدّية لمفاهيمه نابضة بحياته مرنة طيّعة. ومنها ما أرّخ لتأسيس معهد العلوم اللسانية وأبرز منجزاته في ترقية اللغة العربيّة منوّها بوضعه طريقة مثلى للتعليم في مراحله الثلاث مبرزا أهمّيّة "الذخيرة اللغويّة العربيّة" التي كان أوّل داع إليها.

– ويدرس الأستاذ أحمد فريحة أثر الفقهاء في مدرسة النحو الكوفيّ، معتمدا في ذلك بعض الأدلّة. منها أنّ علماء النحو غالبا ما يختلفون إلى حلقات الفقهاء في مساجدهم يأخذون عنهم العلم فتأثّروا بمناهجهم ووضعوا للنحو أصولا أربعة : السماع والقياس والإجماع والاستصحاب؛ وهي بالضبط ما ورد في أصول الفقه. ونحن، إذ نشجّعه على متابعة مثل هذه الدّراسات في تاريخ النحو وعلى نشرها، واثقون من أنّه إن واصل عمله حصّل نتائج بالغة الأهمّيّة أبرزها أنّ النحو العربيّ أصيل نبع من علم الكلام ومن أصول الفقه ومن الفقه نفسه والتفسير والرواية والتدوين. وأنّ الكثير من النحاة لا سيّما المعتزلة منهم كانوا مشاركين موسوعيّين كالفلاسفة في العصور المتأخّرة. لذلك نجد المدارس النحويّة كلّها تعتمد الأصول الأربعة المذكورة.

أمّا صعوبة النحو العربيّ وسهولته، وهي المشكلة التي عالجها الأستاذ محمّد الحبّاس في مقاله "النحو العربيّ بين التيسير والتدمير" فقضيّة قديمة جديدة أثيرت منذ القرن الثالث الهجريّ وما زالت تثار إلى يومنا هذا. طالب القدماءُ بتيسير النحو وقصْره على ما يقوّم اللسان. فصُنّفت متون لم تلبث أن أرهقت العقول بالشروح والحواشي والهوامش. ووقف المعاصرون عند النحو كما تصوّره مبدعوه منذ اثني عشر قرنا بل عجزوا عن التمييز بين النحو العلميّ والنحو التعليميّ وظنوا أنّ العربيّة لا يُدْخَلُ إليها إلاّ من باب النحو بصورته القديمة فكان وبالا على المعلّم والمتعلّم. وقد بيّن صاحب المقال محقّا أنّ النهج الأمثل لتعليم اللغة يكمن في الطريقة والاقتصار على الأهمّ و"حسن التبليغ" كما يقول الأستاذ بشير إبرير في مقاله القيّم "قوّة التواصل في الخطاب الإشهاريّ".

وينعى الأستاذ جمال العيفة على الوسائل السمعيّة البصرية كالتلفاز والمذياع أنها شغلت الناس عن القراءة رغم ما لها من أهمّيّة في تكوين الفكر وإكساب الملكات وإرهاف الحسّ والسموّ بالروح وتوطيد الصلة بين المجتمعات والحضارات.

ونشير في الأخير إلى أن هذا العدد ضم بعض النشاطات الثقافية والعلمية سواء منها التي قام بها المجلس وحده كالندوات والمحاضرات والإصدارات أم التي ساهم فيها مع الأطراف المعنية.

مولود قاسم رجل الدولة مناضل القضية الوطنية وباعث المشروع الحضاري

د. محمد العربي ولد خليفة

نتوجّه في البداية بالشكر للمجلس الإسلامي الأعلى، على احتضانه لهذا الملتقى المخصص لدراسة جوانب من شخصية المرحوم الأستاذ مولود قاسم، والاهتمام بفكره، والتعريف بسيرته الغنية بالمآثر، ليبقى مولود الذي أخلص للوطن والإسلام والعربية، معْلما في ذاكرة الأجيال.

يحقّق هذا الملتقى الذي يجمع صفوة من أهل الفكر والذكر، ومن رفاق مولود ومريديه، الهدف الذي سعت من أجله الجمعية التي تحمل اسمه انطلاقا من بجاية جوهرة الصومام، وموطن العلماء الأعلام، ليأخذ مولود المكانة المرموقة التي يستحقها في السلسلة الذهبية من الرجال والنساء الذين وهبوا حياتهم لخدمة العقيدة والحق والفضيلة ورفعوا لواء اللسان العربي المبين إلى أعلى عليين، وانتسبوا بجدارة إلى السلالة النقية، في الوطنية الجزائرية التي جمعت بين مطلب الحريّة والاعتزاز بمقومات شخصيتنا الحضارية، والاجتهاد في تحديث الأصالة وأصالة التحديث.

لقد مضى حوالي 13 عاما على انتقال مولود المفكر أولا والوزير ثانيا إلى رحمة الله ورضوانه، وهي مدة كافية بالنظر إلى الوتيرة المتسارعة لنهاية قرن وبداية آخر، للتقليل من حجاب المعاصرة وتأثير العلاقات الشخصية مع مسؤول توّلى مناصب هامة في هرم السلطة، وتميّز بأطروحاته الفكرية الجريئة، وخطابه السياسي البليغ الذي يُسمي الأشياء بأسمائها بعيدا عن اللف والدوران.

من الطبيعي أن يكون لشخصية من **وزن مولود**، **أنصار** ومعجبون كثيرون، إلى جانب **معارضين ومناهضين** لمنهجه ومقولاته، فقد عاش الرجل ليُفكّر ويمارس تفكيره في حياته العملية التي كانت عبارة عن جدل بين مثالية يتوق إليها، وواقعية تتطلب نقد الذات والآخر، وتجديد الحاضر بالإرادة والهمة لتخليص شعبنا من التركة الكولونيالية الثقيلة في الأذهان والسلوكات، وتجاوز وضعية التخلف التي تكبل الأمة العربية والإسلامية وما نجم عنها من تبعية وتشرذم وانكسار.

مهما تعددت الآراء والأحكام على شخصية مولود وطريقته في التسيير والتعامل مع الشأن العام، فإن هناك ما يقترب من الإجماع بين من عرفوه عن قرب، وما تناقله الثقاة من الرواة، بأن مولود الوزير لم يكن مجرّد مسؤول سام في الدولة الجزائرية الفتيّة، فلم تكن الحظوة والأُبّهة من الأمور التي تشغله أو تستهويه، ولم تكن الامتيازات والألقاب الفخرية الرنانة أبدا مطلبه وغاية مسعاه.

لم ينس الفقيد وهو في مواقع المسؤولية من وزارة الخارجية إلى الوزارة التي أعطاها لأول وآخر مرّة بُعْدها الأوسع باعتبارها مركز إشعاع لتطوير

التربية والتكوين في علوم الدنيا والدين، أو في رئاسة الجمهورية وفي الأمانة الدائمة لحزب جبهة التحرير، **أقول لم ينس أنه صاحب مشروع وقضية.**

مشروع استمد منطلقاته من انخراطه في سن مبكرة في مدرسة الحركة الوطنية وفصيليْها الأكثر تجذُّرا في عمق الشعب الجزائري، وهما حزب الشعب وتسميته الأخرى: الانتصار، وقد تعلّم فيها فضائل الانضباط والنظام وضرب المثل بنفسه قبل غيره، وعدم التلهُّف على المناصب والمسؤوليات، والنهوض بها بتفان وإتقان إذا أسندت إليه، ونعرف أن تنظيم حزب الشعب وقائده مصالي الحاج قبل ضلاله أو تضليله، هو المؤسس الثاني للوطنية الجزائرية ومفاهيمها ومصطلحاتها بعد بطل الجزائر وقائد كفاحها الأول الأمير عبد القادر طيب الله ثراه.

أما الفصيل الثاني، وهذا الرقم ليس للترتيب والتصنيف، فهو منارة الإصلاح والإحياء: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومنهج وتعاليم إمامها الجليل عبد الحميد بن باديس الذي جمع بين الحكمة والحنكة في التعاطي مع قضايا السياسة والمجتمع والتواضع الذي زاده إجلالا بين رفاقه، ومصداقية واحتراما بين عامة الناس.

إذا كان حزب **الشعب القاطرة التي حركت** الشعب الجزائري نحو هدف **الحرية** والانعتاق من كابوس الكولونيالية وليلها الحالك، فإننا نرى بأن جمعية العلماء واستراتيجية رائدها ابن باديس هي **وقودها الروحي** الذي لا شيء يتحرك بدونه في جزائر الأمس واليوم.

في فصول المدرستين السابقتين نضجت شخصية مولود المفكر، وكانت الثورة وحرب التحرير التي تحتفي بلادنا هذه السنة بخمسينيّتها

الذهبية ساحة النضال الأولى، التي تجنّد في صفوفها، لا بل كانت شعلتها تضيء قلبه منذ إرهاصاتها الأولى في العشرية التي سبقت الثورة وخلال سنواتها السبع والنصف العظام.

في تلك الفترة ظهرت مواهب مولود، فتعلم لغات أقوام لم يعرف شيئا عنهم من قبل، فمن تعلم لغة قوم أمن شرهم، وبالنسبة لمولود "استفاد من خيرهم" أيضا، فكان مع المقدمة من النخبة التي كافحت في مقاعد الدراسة ومدرجات الجامعة أو غادرتها إلى مواقع أخرى على جبهة الكفاح الواسعة.

ما أن وضعت حرب التحرير أوزارها حتى تبين أن مولود المناضل في صفوف الثورة هو أيضا **رجل دولة ومؤمن بقضية.**

هو رجل دولة ينتمي إلى الجزائر كلها، ويرى ملامح جزائريته في كل بقعة من شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، وإذا كان رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم قد **سنّ أول بند تنفيذي في لائحة حقوق** الإنسان في حديثه الشريف: لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فإن مولود قد طبق **حديث من لا ينطق عن الهوى** فالقريب منه ليس من ذوي القربى والعرش والدوار بل هو الذي يتقن عمله برقابة من ضميره، ويُخْلص في عمله ويُشرِّف وطنه.

أليس الاجتهاد في أداء الواجب وتشريف الوطن والإعلاء من شأنه باب من أبواب التقوى؟ يدخله الذين يقولون ما يفعلون، ولا يفعلون إلا ما يقولون، أما الذين يرقصون على طبل الشعارات ويزايدون بالأقوال التي لا تؤيدها الأفعال، فلم يكونوا على الإطلاق من ملّة مولود، ولا ينتمون إلى

مذهبه في الحياة، ومفهومه للوطنية الفاعلة، وليس الوطنية الخاملة والمستفيدة التي هي في الحقيقة أشبه بصكّ بلا رصيد.

مثّل مولود في مساره الشخصي، وفي مختلف المسؤوليات التي أُنيطت به، الوطنية الجزائرية بخصائصها المزاجية المعروفة بشيء من الحدّة الانفعالية البريئة، والغضب السريع الذي لا يعقبه حقد أو طلب للثأر، والاعتزاز القوي بأمجاد الجزائر عبر العصور.

انطلاقا من ذلك الوعي والاعتزاز خطط مولود الوزير لإنجاز حلمه الكبير في مستهل السبعينيات مع المرحوم الرئيس هواري بومدين الذي ربطته به صداقة قديمة منذ السنوات العجاف، ومن شيم الصديق الوفاء.

حُلْم مولود الكبير هو إحياء التعليم الأصلي ذي التقاليد العريقة في جزائر الرباط والزوايا معقل المقاومة والحصن المنيع للقرآن والعربية لأكثر من مائة عام بعد الاحتلال وإلى اليوم، وتحديث ذلك التعليم، وكأنه توقع في لحظة إشراق وتأمل ما بدأ يلوح في سماء الجزائر من اختلالات وصراعات أشبه بالنار تحت الرمّاد، فمن يستهين بالمُعْطى الروحي في الجزائر القديمة والمعاصرة، يكون عن وعي أو غير وعي، قد غامر بها في مضيق العواصف.

ومن يزايد على الإسلام الراسخ في هذه الربوع، ويزعم أنه أكثر إسلاما من غيره وبيده مفتاح جنّة الرضوان، ينسى أنه في جزائر الجهاد الطويل والبطولي ضدّ الصليبية الحاقدة التي أساءت لتعاليم المسيح عليه السلام، وجهاد الملايين من الضحايا والشهداء من 1830 إلى 1962، وقد عبر بيرك (J.Berque) عن هذه الحقيقة إذ يقول عن الجزائريين: إن الإسلام هو

جنسيتهم الباقية والمصباح الذي أضاء ليلهم الحالك (N.obs, dossier n° 9, 1992)

إلى جانب بذرة التعليم الأصلي الذي أساء فهمه البعض، وتآمر عليه البعض الآخر، تمكن مولود في فترة قصيرة من تحقيق مشروع آخر وهو تنظيم ملتقيات الفكر الإسلامي التي حوّلت الجزائر إلى مركز للإشعاع الروحي والعلمي على مستوى العالم الإسلامي.

وقد لا حظنا ما كان يُحظى به العلماء من عناية واحترام، ومن بينهم بعض الأساتذة الذين درس عليهم مثل عثمان أمين وعبد الواحد وافي، وكان يسهر شخصيا على راحة آخرين جاءوا إلى جامعات الجزائر شبه متطوعين، ومنهم محمد عزيز لحبابي والأهواني ومحمود قاسم وأحمد بدوي رحمهم الله ومحاضرين آخرين من غير المسلمين أنصفوا الحضارة العربيّة الإسلامية وساندوا القضايا العادلة لشعوبها.

هذا هو مولود المثقف، والسياسي المجرب، والدبلوماسي المحنّك.

لقد كانت المؤتمرات السنوية ومجلة الأصالة، من المنابر التي تنافست فيها الآراء والاجتهادات من الجزائر ومن شتى أنحاء العالم، وهي اليوم صورة كاشفة عن جانب من التوجهات العامة للفكر والثقافة في جزائر السبعينيات، يمكن أن نتعاون مع المجلس الإسلامي لإعادة جمعها ونشرها، ليطّلِع عليها جيل ما بعد 1992.

في صميم المشروع الحضاري النهضوي لمولود قضية أساسيّة هي اللغة العربية التي سحره جمالها وثراؤها فغاص في بحرها وأتقن السباحة في بيانها، ودافع عنها في كل محفل، فهي في نظره سجل التراث الحضاري للشعوب

الإسلامية باختلاف لغاتها ولهجاتها، وهي بعد العقيدة الإسلامية الرابطة والعروة الوثقى التي جمعتهم في الماضي، وتجمعهم على مدى الزمان، فهي اللغة التي نزل بها الذكر الحكيم، وقد أقرّ كثير من التراجمة بأن القرآن يمكن شرحه وتفسيره بأية لغة أخرى، ولكن تلك الترجمات لا تساوي أبدا النص القرآني الأصلي وذلك من أسرار إعجازه.

لم يكن وراء غيرة مولود على العربية انغلاق فكري أو تَعصُّب مذهبي، فمن المعروف أن الفقيد متعدد الألسن وشغوف بالاطلاع على الثقافات التي تحملها اللغات الأخرى باعتبارها روافد تَصُبّ في النهر الأكبر، ألا وهو العربية بدون أن تُغيِّر مجْراه أو تُلوِّث مياهه بالدخيل والهجين، فهي من أقدم اللّغات المقوعدة وأكثرها مطاوعة أو قابلية للنحت والاشتقاق..

تتدفق العربية على لسان مولود مثل السيل العارم: مترادفات ومتقابلات وسباق **حثيث بين الأفكار والألفاظ** فهو تارة أقرب إلى أبى الطيب **المتنبي**، ينام عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم، وتارة أخرى أقرب إلى **الجاحظ** ونثره السهل الممتنع، وتارة ثالثة قريب من العلامة المرحوم: **البشير الإبراهيمي** في بلاغته الرائعة سواء أكتب أم ارْتجل الحديث، وفي كلتا الحالتين أبهر القارئ والسامع.

ترجع علاقة ابن "أقبو" بلغة الضاد إلى إدراكه في سنّ مبكرة للرصيدين التاريخي والشعبي للعربية في الجزائر، فشد إليها الرحال إلى تونس والقاهرة، حتى أصبح فارسها وعضو مجمعها الموقّر في القاهرة، والمؤسس الأول ورئيس المجلس الأعلى للغة العربية قبل حوالي عقدين، حيث لم تسعفه الأوضاع في أواسط الثمانينيات لتشييد ذلك الصرح.

تحدث عن تلك الأوضاع وفي حلقه غُصّة الأسد الجريح عندما التقينا في طهران سنة 1990، وقال رحمه الله متندرا تولّى أمر الجزائر الرجال الذكور فكان ما كان، فلماذا لا نجرب **دولة يسوسها النساء؟** واشتغلت إداراتنا بالفرنسية أكثر من ربع قرن والحصيلة ما ترى وتسمع بعد 1988 فلو جربنا **إدارة بالعربية** لا أظن أن الأمر سيكون أسوأ.

مولود فارس البيان، ومُخترع مُصطلحات شاعتْ بين الخُطباء والكُتَّاب مثل **الانبطاح** و**المركوبية** و**الاستدمار**..إلخ هو أيضا **أبو يوغرطة** الذي لا يرى تناقضا أو قطيعة بين اللسان الأمازيغي العريق وتراثه المحفوظ بين الرواة، والمتداول بين الناس في كثير من مناطق الجزائر، وبين العربية فلكل منهما امتداد في الآخر.

بالحرف العربي كتب القادة والعلماء والقضاة في الإمارات والممالك الأمازيغية "أوال أُمازيغ" في تعبير لحسن الوزان المعروف في الغرب باسم ليون الإفريقي (Leon l'Africain) منذ الدولة الرستمية إلى إمارة كوكو من عين الحمام، في جبال جرجرة الشماء وإلى عهد قريب.

يعرف أبو يوغرطة سليل زواوة أن فرنسا الكولونيالية استخدمت وسائل القهر والإخضاع إلى جانب حيل الخداع والاستهواء لتقسيم المجتمع الجزائري وزرع بذور الفتنة بين الأهالي أو من تسميهم "الأندجين" للسيطرة عليهم والقيام بدور الوَصيّ الأبدي والحَكَم المشبوه، فلم يكن في المنطقة قبل عدوانهم على بلادنا سنة 1830 قبائل صغرى وكبرى ولا وجود إطلاقا للتمايز بسبب اللغة أو العرق.

الإسلام جامعهم الأول، والعربية لسان ثقافتهم المشتركة، وقد خصص ش.ر.أجرون فصلا مطولا في كتابه "**المسلمون الجزائريون وفرنسا**" تحت عنوان: "**السياسة القبائلية**" نقلناه إلى العربية في كتاب تحت عنوان: "**المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية: مقاومة القبائل للإدماج والتفكيك وفشل مشاريع التنصير والتجنيس**" أوضح الباحث بموضوعية ما وراء عناية الإدارة الكولونيالية باللسان والتراث الأمازيغي في الجزائر عموما، وفي القبائل بوجه خاص، من نوايا وأهداف شرّيرة، ومن المؤسف أن كثيرا من ذلك التراث المغشوش لا يزال معتمدا لدى البعض منا إلى اليوم، تحت إسم الإثنولوجيا والإثنوغرافيا والإنديجونيفيليا، وفيها القليل من العلم، والكثير من سموم فرّق تسد.

العمق الحقيقي لمنطقة القبائل هو شبكة الزوايا المترامية الأطراف والمعمرات أو كتاتيب تعليم القرآن والعربية والتي تربى فيها أبو يوغرطة واستظل بأشجار تينها وزيتونها، تلك المنطقة التي خصّها المرحوم الأستاذ العصامي محمد الصغير فرج بكتابه تاريخ تيزي وزو الذي ترجمناه في المجلس وكرّمه فخامة رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة في الملتقى الذي افتتحه بتيارت سنة 2002 عن مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية.

هذه لمحة خاطفة عن مولود الذي تعرّفْتُ على البعض من خصاله في ملتقيات الفكر الإسلامي في حقبة السبعينيات، وهو يشرف وينظم ويحاضر، ورأيته يترنح تأثرا ونشوة، وهو يستمع إلى ملحمة **عملاق الشعر** الوطني والثوري **المرحوم مفدي زكريا** طيب الله ثراه، وحاورته في مستهل الثمانينيات

في أروقة اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني، والجزائر مقبلة على تحولات ما بعد البومدينيّة، وجمعت له سفراء البلدان العربية والإسلامية في طهران بحضور نخبة من أساتذة دانشَكَاة فاطمة الزهراء، وحضر قسما من الحوار الرئيس الإيراني الحالي الذي كان وزيرا للإرشاد الإسلامي، وقد **ناظر الفقيد** وحاور **بأربع لغات** ولأكثر من خمس ساعات، وأبهر الجميع بقوّة حجته وسرعة بديهته واُطلاعه على آخر مستجدات السياسة الدولية.

مولود صاحب المشروع الحضاري المؤمن بالقضية الوطنية والمتحمس لإيقاظ العالم العربي والإسلامي من ركوده وسباته الطويل هو أيضا مولود المدافع عن الاستمرارية التاريخية للدولة والمجتمع الجزائري عبر القرون بلا انقطاع ولا قطيعة مع أية مرحلة.

لقد جمع الفقيد في مقارباته الفكرية وخطابه السياسي بين التعلق بالإنية والأصالة وضرورة التطور والتفتح على ما يجري في عالم لا يرحم الضعفاء والكسالى، وأعطى **الأصالة مفهوما متحركا** أو ديناميكيا فالسكون في رأيه موت وفناء، والتفتح يبدأ من الأصالة ويعود إليها ليثريها.

إن الشعب الذي ينفصل عن ماضيه وتراثه هو شعب يحتقر نفسه ويصبح حتما ذيلا لغيره.

مولود هو "فيخته" الجزائر نقرأ في أفكاره وأسلوبه ما يشبه رسائل "فيخته" إلى الأمة الألمانية وفلسفة التاريخ عند "هردر" وقبل المفكرين السابقين فإن ذخيرته الحيّة هي الدروس التي استلهمها من تراث المقاومة والثورة.

من الوفاء لمولود المفكر ورجل الدولة، أن ندعو لإنشاء **رابطة أو مؤسسة** تعنى **بفكره وتراثه** في عاصمة الجمهورية، ونوصي **بدراسة**

مؤلفاته في كليات العلوم الاجتماعية والشريعة وأصول الدين، فنحن نرى أن علم **الاجتماع الديني متخلّف** جدا في بلاد العرب والمسلمين.

وعلى الرغم من أن العلم الحقّ ليس له جنسية، فإن علوم المجتمع ليست من العلوم الصحيحة، ولا تخلو نظرياتها من الإيديولوجية، **ولمولود الباحث موقف ووجهة نظر تستحق الدراسة**، وربما **النقد والإثراء**، فهو نفسه **يكره التقديس الأعمى وبني "وي وي"**.

وفيما يخصّ مجلسنا الاستشاري فإننا على استعداد لتحضير ملتقى آخر عن **جانب من فكر مولود** وذخائر تراثه، وسوف تحمل **قاعتنا المخصصة لمنبري: "حوار الأفكار"** "**وفرسان البيان**" إسم **مولود قاسم** نايت بلقاسم، وفاء لذكراه، وعرفانا لجهوده، وإخلاصه للوطن والإسلام والعربية.

مع الفقيد المفكر مولود قاسم والتناجي حول هموم الوطن والأمة

أ. محمد سي فضيل

شرفني الأخوة الأفاضل الذين بادروا باقتراح الملتقى الدولي حول المفكر الفقيد مولود قاسم نايت بلقاسم بالانضمام إليهم في الساعات الأولى من تأسيس اللجنة التي تعهدت برسم الخطوط العامة للملتقى، والاضطلاع بهذا الأمر الهام، ومتابعة خطوات الإعداد ومراحلها حتى تتوفر للمبادرة شروط وعوامل نجاحها. وقد وقع التمهيد لذلك بتنظيم يوم دراسي محلي بمدينة بجاية تم فيه تكريم عائلة الفقيد من خلال حرمه، وتقديم شهادات حية من طرف رفاق عرفوا المحتفى به عن قرب وجمعوا الوفير من المعلومات حول جوانب عديدة من مسيرته النضالية والثورية والعلمية والوظيفية تلك المهمة التي كان ينظر إليها دائما على أنها وسيلة لخدمة الجزائر وليست غاية يسعى المرء إليها لذاتها، وهكذا سار التحضير للملتقي الدولي جادا بذل الكثير من الجهد، وأحاط أعضاء اللجنة والجهات المتكفلة بالملتقى ماديا وتنظيميا وعلميا بما تستحقه المناسبة من حماس وتصميم على

نجاحها، لذلك تراجعت أثناء المشوار تلك المعوقات والعراقيل الفعلية منها والمفتعلة على السواء وانعقد الملتقى الدولي في موعده المحدد (27، 28، 29 مارس 2005)، بمشاركة وطنية ودولية واسعة كما ونوعا، وبتناول جاد للموضوعات التي تناولت شخصية المفكر والمناضل الراحل مولود قاسم.

ولقد تظافرت جهود المشرفين على الملتقى، مع قرائح الباحثين، فتجسد الوفاء وتحقق النجاح، وأدى الاحياء واجبهم تجاه من أضافوا لذاكرة الأمة وحضارتها ما يضمن لها الاستمرار والتجدد، ويعمق جدلية الأخذ والعطاء بين الموروث وبين كل مولود جديد ومفيد، ولقد برهنت هذه الالتفاتة التي جمعت بين التكريم وبين التوثيق العلمي الذي تستفيد منه أجيال الحاضر وأجيال المستقبل لذلك حرصت على أن تقتصر مساهمتي على تبجيل الفقيد، والتعبير عما بينه وبيني من مودة وتقدير بالاستنجاد بالذاكرة استعطفها بل أستفزها لتطلق سراح مالا يحصى من العبارات والتعاليق عن المشاهد والمواقف والأحداث ومن المساجلات القصيرة اللطيفة، ومن الأسئلة والأجوبة والروايات التي تجوب آفاق الحياة وعوالم الفكر وفنون المعرفة وتجيد الوصف والتعليق على السلوكات الفردية، وعلى الظواهر الاجتماعية في بلادنا والبلدان الشقيقة والبلدان المتقدمة جدا والتي تتوق نفسه إلى أخذ ما في حوزة تلك البلدان المتقدمة من الطباع المثلى كالنظام والتفاني في العمل، والنظافة، واحترام الشأن العام، وعشرات أخرى من هذه الخصال.

لم يجمعني وأياه – رحمه الله – مقر عمل، أو إدارة، ولكن لقاءات عديدة جمعتني به منذ الأيام الأولى لاسترجاع الاستقلال الوطني وظلت مستمرة حتى انقطعت بقضاء الله وقدره.

لم أسأل نفسي، لماذا استمرت هذه العلاقة بينه وبيني ودية ومتميزة حتى الأجل المسطور؟ مع أنني لم أتواجد معه في أي موقع من مواقع المسؤولية الهامة التي تولاها مستشارا لرئيس الجمهورية، وزيرا للتعليم الأصلي والشؤون الدينية رائدا وحاميا لملتقيات الفكر الإسلامي، مكلفا بالمجلس الأعلى للغة الوطنية. بعد لأي عثرت لهذه العلاقة الودية المتميزة عن مصدرها البعيد في الزمن، كان ذلك في إحدى المناسبات البعيدة عن الرسميات، كما أنها ليست لقاء سياسيا ولا مصلحيا، كانت صدفة شاء لها أن تنتظم فتجمع أصدقاء غابوا عن بعضهم زمنا ثم عادوا. وانطلق الحديث بين الرفاق كما ينطلق عادة بين الخلان بسيطا مكتفيا بالسؤال عن الصحة والأهل وظروف العمل ثم يتشعب شيئا فشيئا ويرتقي إلى أوضاع الوطن وأهله، وحال المجتمع، وحال السياسة والثقافة والاقتصاد ثم يعبر الحدود للحديث عن أوضاع الأمة العربية والإسلامية مشرقها ومغربها وعلاقة هذه الخريطة ببقية الأمم ودولها في هذا الكوكب في كل ذلك الحديث الذي ابتدأ عفويا تلقائيا وبقطرات تحول شلالا يكون للفقيد المتميز سي مولود قاسم دوما سهم الاسد – كما يقال– وكان ينتقل بنا من قمة لقمة أخرى برفق حينا وأحيانا بصخب شديد حين يصطدم بعقدة من العقد التي نعاني منها على ساحة الوطن خاصة والساحة العربية الاسلامية على الوجه الاعم، لاسيما حين تتزاحم في ذاكرته خيبات أمل متكررة على هذه الساحات كلها. وإذا ما اشتدت الأزمة، وبلغ الشعور بالإحباط الحضاري والثقافي والاجتماعي أشده، استجار سي مولود قاسم بفترات الازدهار الشامل من تاريخنا ورحل في التو واللحظة – ونحن لم نغادر مواقعنا كما تلاقينا – إلى تلمسان وبجاية، وقسنطينة، ورباطات علمية ودينية عديدة حصنت ثغور البلاد، وأخذ يسرد

في يسر أسماء أعلام ضربوا بسهم وافر. في شتى ميادين المعرفة، في الفقه والأدب، والشعر، والفلك والرياضيات والطب والكيمياء وغير ذلك، ويستشهد بالعديد من مدوناتهم التي طبقت شهرتها الآفاق، وعندما وصل به العد لأحد أولئك الأعلام الذي ذاعت شهرته في جبال زواوة وترك خلفا صالحا ورث أغلبهم مآثره وجهاده تحركت في نفسي حالة الاعتزاز بصلة الرحم مع أحد هؤلاء الرواد فقلت لسي مولود إن أخوالى منهم من أيت غبري، فتبسم ضاحكا وأفاض في ذكر الكثير من مآثر أولئك مما كنت أجهله بالرغم من استمرار التواصل بيني وبين أحفادهم منذ أكثر من نصف قرن.

وهكذا تكرر التلاقي بين الفقيد وبيني يكاد يكون بعدد أيام نصف قرن كامل في مناسبات سياسية وثقافية وطنية وعربية ودولية، وفي وهج ملتقيات الفكر الإسلامي التي يصول فيها رحمه الله ويجول حريصا على التنظيم الجيد، والتسيير الحسن لأشغالها والنتائج الإيجابية التي تسفر عنها يتمنى أن تكون خطوة جديدة إلى الأمام لهذا العالم الإسلامي وثقافتة وحضارته، حتى لا يكون ذلك الجهد المدفوع بالإيمان والحماس، مجرد نفخ في رماد. وكم يحزنه خطأ أو تهاون أو تقصير يدسه هذا أو ذاك في منظومة العمل المشترك لتحقيق مقاصد منتظرة متعلقة بمصلحة الوطن.

ولا تقتصر ردود أفعاله عن حالة الحزن التي تعتريه بل تتعداه إلى تفاعلات وإسقاطات جديرة بأن تؤخذ بعين الاعتبار. إذ أن التصرفات السلبية التي تحدث من حوله تتحول إلى انفعالات بل إلى عواصف وزوابع ومرافعات حادة ساخنة قوية الحجة يقوم فيها بمقارنات بسيطة وسريعة بين مجتمعات بلغت شاوا بعيداً في تقديرها للنظام، وحرصها على الجودة، وتفانيها في العمل، وتثمينها لعنصر الزمن، وبين مجتمعاتنا التي ضنت

على نفسها باحترام أبسط قواعد الحياة السوية، ويعقب على هذا بقوله : لم نطلب إلا الحد الأدنى، ولم نطلب لحد الساعة اكتشاف المجرات أو سفن ارتيادها !!

رحل الفقيد سي مولود قاسم رحمه الله وفي نفسه أشياء وأشياء عن اللغة الوطنية. كان صادقا وصدوقاً في دفاعه عن اللغة العربية دفاع قناعة، وإيمان، وجزم بأن الأمة التي فرطت في لسانها، لن تقوم لها قائمة، وما أكثر نقاط التلاقي والتماس بينه وبيني في هذا الموضوع، وما أكثر المداعبات اللغوية عبر الهاتف حول مسائل لغوية وهو في مختلف مواقع المسؤولية كما سبق ذكره وأنا في محراب جريدة المجاهد. مساجلات لطيفة ومفيدة، تبتدىء أحيانا بحروف الجر وتنتهي بفلسفة اللغة، وقضية "المترادف" وقضايا أخرى في البلاغة و النحو والصرف، وكم من مرة يتصل بي بعد تصفحه للعدد الجديد من المجاهد- ليعاتب عن خطإ أو سهو أو تحريف في فقرة من فقرات موضوع ما كتبه أحد الصحافيين وكم يحلو له أن يشا كسنى في حروف الجر فيقول : يا سي محمد قل لأصحابك : إن حرف الجر"على" لا ينبغي أن يحل محل حرف جر"عن" وكذلك حرف "إلى" لا يقوم مقام "حتى" وهكذا. فأقول: ياك سي مولود قال النحاة حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ! ويجيب بأمثلة في منتهى الدلالة والذكاء والإقناع ويقول مستغرقا في الضحك : إذن في رأيك فلان الفلانى يستطيع أن ينوب عن فلان الفلاني في المهمة التي تعرفها! وتتحول الملاحظة إلى مداعبة أدبية لغوية مفيدة ومريحة للأعصاب المشدودة.

وكم جرت بيننا منا قشات طريفة حول المترادفات في اللغة العربية منتهية في الأخير إلى أن كل كلمة مرادفة في الظاهر ولكنها في الحقيقة تحمل إضافة جديدة زائدة عما في زميلتها.

رحل سي مولود ومعه حمل بثقل جبل من خيبة أمل في مؤسسات الدولة ودواليبها المعنية بتعميم استعمال اللغة العربية، سيما أثناء تكليفه بتخطيط المشروع والسهر على تنفيذه في جميع مؤسسات الدولة من موقعه نائبا لرئيس المجلس الأعلى للغة الوطنية، والمسؤول الأول في هذه المهمة هو رئيس الجمهورية في تلك الفترة. فالفقيد المؤمن بهذه القضية الجوهرية والحضارية، ومعتبرها في مقدمة عناصر الهوية أو "الإنية" حامل رايتها، وصامد في صدر المعركة مع ثلة يتأرجح موقفها بين "نعم ولكن" ويفضل بعضها خيار " اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.

هكذا .. فارقنا الصديق المفكر المكتوي بنار الغيرة على وطنه وشعبه، وأشقائه في الخريطة العربية الإسلامية من الهوة الحضارية الشاسعة الفاصلة بيننا وبين البلدان المتقدمة، راح بغصته وهو متأكد – رغم الأمل الذي لا يتخلى عنه الإنسان – أن المتأخر المستمرئ لرقدته قد يظل في مكانه مع النائمين، ولكنه في الواقع قابع خارج زمان اليقظين المتقدمين. تلك هي أوجاع النفس والذهن والقلب التي تؤرق المثقف حامل هموم وطنه وحضارته، تلك الهموم التي تتجاوز المعضلات الآنية في هذا القطاع من حياة الناس ومعاشهم أو ذاك، بل تتعلق بالمسببات الكبرى التي تتطلب معالجة جذرية تتخلى عن الإسعافات وعن مجرد التضميد والترقيع.

مع سي مولود قاسم في رحلة

من السويد إلى السودان في القرن الماضي:

في العشرية الأخيرة من شهر مارس 1986 جمعتنا زيارة رئاسية إلى أصدقائنا في السويد، إنهم بالفعل أصدقاء الجزائر أيام محنة الاستعمار وخلال أعوام ثورة التحرير، كما حدثني الفقيد عن ذلك حديث العارف المطلع في عين المكان عن مواقف هذه المملكة من شعب الجزائر وثورته. أما لماذا لجأت إلى هاتين الزيارتين اللتين جمعتا بيننا فلأن الأسفار كما أكد العارفون، من الفرص الهامة للاستفادة من تجارب الناس والحياة، وهي في الوقت ذاته تساعد على اكتشاف مكنونات القيم النبيلة في الإنسان.

لم يبخل علي سي مولود بما لديه من معلومات اختزنها يوم كان هنا في السويد يؤدي واجبات الثورة التحريرية، فاغتنم إحدى فرص التحرر المؤقت من قيود الرسميات فدعاني وصديق مشترك هو عبد القادر بن قاسي رحمه الله مستشار بالرئاسة، مثقف وسياسي لامع خسرته الجزائر وهو في أوج عطائه.

سلك بنا شارعا في حي غير بعيد عن إقامتنا. كل ما حولنا يذكرنا صارخا بالتفاوت الرهيب بين ما هم فيه وبين ما نحن فيه، الفرق يحسب بالأرقام الفلكية، والبون في كم الأمور ونوعها لا تغني للتعبير عنه كلمة الشساعة.

إنه لا مجال للصمت وسي مولود موجود في الموقع في الشارع الذي نتجول فيه أو في غيره، وها هو رحمه الله يحفزني أن أغرف من هذه الينابيع الثقافية الحضارية التي تغدو وتروح والثابتة في أماكنها. مباني أنيقة منتظمة والمساحات والجنات المزدانة بأشجارها وأزهارها ومسالكها، وعبادها الذين يذكون نار الغيرة مما أدركه الآخرون، ولكنها غيرة بلا حقد، ومن حين

لآخر يقول لي الفقيد الذي يعاني مأساة الحضارة: شوف، شوف يا سي محمد اسمع، وأجيبه على الفور: انشوف..نعم ! أما نسمع فلا أمل ! إنني لا أفهم لغتهم كما لا يخفى عليكم ! فيضحك لحد القهقهة. ثم يسخو بترجمة الحلال مما سمع !! ثم يستأنف بث الحزن والأسى من خلال المعلومات التي يفيدني بها والملاحظات المؤلمة الجارحة لقلوبنا جميعا وهي حقيقة.

يقول: أتدري أن هذا البلد الصغير الذي لا تتجاوز مساحته خمسمائة ألف كلم^2 (500.000 كلم) ولا يتجاوز عدد سكانه ثمانية ملايين نسمة (هذا في سنة 1986) وفي موقعه هذا شمال البلطيق، قريب من القطب الشمالي وهو يعد من البلدان المتقدمة جدا، ولا أتردد في القول بأن مستوى معيشته بالمعنى الشامل للمعيشة أعلى مستوى في العالم، على كل حال نحن والمملكة السويدية أصدقاء نتعاون وفقا لاتفاقيات في عدة ميادين سندها الدعم الذي تلقيناه منهم أيام ثورة التحرير.

هكذا ...فالصمت في صحبة سي مولود قليل جدا والحديث غني مفيدا جدا والتكرار تأكيد للرسالة التي يريد أن يبلغها لرفيقه أو محاوره، وهو حاصل أحيانا من قوة الدفع الداخلي الذي يغلى مرجله، وتتناضج فيه أفكاره ومشاعره وتطلعاته، وشوقه لأن تصبح الجزائر والوطن العربي والإسلامي مثل هذا البلد في جوانبه المشرقة الجيدة من تقدمه وعصارة هذا التقدم.

وقبل أن نودع الشارع الذي حوله سي مولود في فترة زمنية قصيرة إلى رواق أحد فلاسفة اليونان رسم بالعبارات النارية صورتين إحداهما لشارع من هذا البلد والأخرى لأحد شوارعنا في وطننا المفدى والمعتدى عليه، فقال: ألست معي في أن هذه الحدائق، بأشجارها وأزهارها، ومسالكها الأنيقة

النظيفة المتوازنة التي حولها أهلها إلى كائنات مثقفة شاء لها أن تكون كذلك !

واستأنف الفقيد حديثه الذي يشبه مرثية أبى البقاء الرندى ولكن في عبارات تجمع بين السخط والسخرية حين يقول: هل داهمك أحد المارة في تجوالنا؟ هل داس على عقبك حتى طارت رجلك من حذائها؟ هل صبت على رأسك إحدى سيدات الطابق الأول أو الثاني سطلا من المياه القذرة؟ هل صادفنا "شلة" من الأطفال يلعبون بين أرجل الغادين والرائحين بكرة من الخيش أو البلاستيك وفي زوبعة من الشتائم والأوصاف القذرة؟

هل سمعت أحدهم يصرخ بأعلى حنجرته ينادي صاحبه يا شريكو "أو يا جارو" أو "يا فاميليا" من الطرف الآخر للشارع؟ ! هل مرت سيارة واغتنم صاحبها بعضا من زحام الموقع فعطس، وتنحنح، وجمع بصاقه (معذرة للقارئ الكريم) وأخرج العبوة بقوة شدقيه إلى عباد الله الغادين والرائحين؟ أتريد المزيد يا سي محمد؟ !.

أثنيت على سي مولود، وثلثت وأبصمت بالعشر على كل ما اكتوى به – رحمه الله– من هموم وطنية تمس الجوهر، ولا تقتصر على "العرض" ولا على مجرد حالات عابرة معزولة في حياتنا اليومية.

من السويد إلى السودان !

في الرابع من شهر أبريل من عام 1987 من القرن الماضي ! أرسل حزب جبهة التحرير الوطني إلى السودان وفدا لحضور مؤتمر التجمع الوطني، يتألف الوفد من رئيس وعضو مرافق له والرئيس هو الأخ سي مولود قاسم

نايت بلقاسم عضو الأمانة الدائمة للجنة المركزية والمكلف بالمجلس الأعلى للغة الوطنية، والعضو المرافق له هو :"أنا" سعدت كل السعادة حين تلقيت هذا الخبر، إذ أن هذه المرحلة الثانية من الرحلة ستتيح لي فرصة ثمينة لاستئناف الاستماع إلى سي مولود لا سيما وقد مددنا جسورا جديدة بيننا، ومتنًّا الأواصر التي تجاوزت حدود الأسرة والقبيلة لتسع فضاء الوطن جغرافية وتاريخا وحضارة وثقافة بل لتشمل أحلامها آفاقا بلا حواجز.

ليس من اليسير على المرءِ أن يستحضر وقائع مر على حدوثها خمسة عشر سنة بمجرد الاعتماد على ما تسخو به الذاكرة طوعا وبدون "استفزاز" ومع ذلك سأدق بابها فقد يجر الحديث بالتداعي ما تلاه أو مما تقدمه من حديث، حلقت بنا طائرة الخطوط الجوية الجزائرية من مطار هواري بومدين يوم السبت الرابع أبريل من سنة 1987 في اتجاه مطار جنيف كمحطة أولى للتوجه بعدها إلى الخرطوم عاصمة السودان الشقيق لحضور فعاليات مؤتمر التجمع الوطني، كما أشرت قبل قليل. ابتعدت الطائرة عن المطار، كما ابتعدت شواطئنا عن أنظارنا فتوغلت في أجواء الأبيض المتوسط، مضيفات ومضيفو الدرجة الأولى في غاية الأدب واللباقة، والاهتمام المتميز بضيوفهم المسافرين حتى أوشك الشك أن يفسد ارتياحنا وفرحتنا بهذه المعاملة حين قدرنا بأننا قد نكون مخطئين في الطائرة وفي مسار السفر وزال الشك، فالطائرة جزائرية، والمضيفون والمضيفات من أهلنا وأبناء جلدتنا !

فترة الصمت بمعية سي مولود قاسم قصيرة جدا لذلك سارع إلى التعليق على المعاملة التي أتاحت لنا فرصة للتفاؤل فقال لا يخفى عليك أن كل ظاهرة

أو كل موقف أو تصرف مهما كان محدودا في الزمان والمكان يحمل دلالات اجتماعية وثقافية ونفسية وفي بعض الأحيان يخضع لأمزجة شخصية لا تثبت على حال، ونحن من سوء حظنا ! من ذوى طبع تتقطع أوصالهم وأنفاسهم جريا وراء الأفضل والأمثل على الدوام وتلك غاية صعبة المنال رغم هذا البيت الشعري الذي نغنيه كلما استيقظت نخوتنا الغافية :

نحن قوم لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فلنغتنم يا سي محمد ما أتيح لنا من هذه الإشراقات والابتسامات من مضيفينا أهل بلدنا قبل أن يصبح الحال غير الحال، ومن يديرك ؟ ! وأدعوك لنزهة من خلال نافذة الطائرة ومن علو شاهق، وبمثل هذه السرعة.. نزهة بعينيك خلال جبال سويسرا وهي مكسوة بثلوج هكذا دائمة، وعند أقدامها حطت رحالها مدينة جنيف – العاصمة السويسرية – في سهل واسع جميل، منازل أنيقة تسلقت سفوح الجبال متسللة بتوازن وانتظام مع ما يحيط بها و يسربلها من أشجار، وهنا يستأنف سي مولود تأملاته المسموعة حول ما شاهدناه من خلال النافذة فيقول: شفت؟ كيف نجح الحلف المقدس بين الإنسان والطبيعة هنا.. هما طرفان متلازمان في الأبد والأزل. في هذه البقعة من الأرض– وفي أشباهها– يتواصل التعاون الإيجابي بينهما كما يصغي هذا لذاك، وعناية الإنسان بمحيطه يثمر بالضرورة سخاء المحيط على الإنسان بخيراته ويقول سي مولود: بالله عليك يا سي محمد ألا تشبه صفوف تلك الأشجار حتى بعد أن نضت أثوابها عن أغصانها وكذا المنازل والمسالك والحدائق مقطعا من سمفونية العبقري النابغة الأصم الشيخ بتهوفن؟ !! وراح يتحدث عن بتهوفن وعن جملة من موضوعات أعماله

الفنية حديث المطلع والمؤمن بأن الإلمام بأساسيات المعرفة الإنسانية ضرورة ملحة هو فرض لا "نافلة" وهكذا يربط في الحديث العابر الذي كنا نخوض فيه بين الثابت والمتغير، وبين الكلي والجزئي، وبين الجوهر و"العرض" حتى في أشد المعارف "تخصصا" وأكثرها استقلالية عن سائر المعارف المتداولة بين المثقفين.

نزلنا بمطار جنيف بعد ساعتين –تقريبا– من التحليق، استقبلنا ممثل الخطوط الجوية السويسرية بما تمليه مقتضيات المهنة وتقاليد الاستضافة ولو لبضع لحظات، من أدب واحترام وابتسامات لا تنقطع ثم اصطحبنا إلى الصالون الشرفي بمقر شركتهم بالمطار.

حلقت بنا الطائرة السويسرية من مطار جنيف لتستريح بنا بعض الوقت في أثينا ثم تستأنف تحليقها نحو مطار الخرطوم. الرفيق المحترم مال في بداية هذا المشوار إلى الصمت، والصمت بالنسبة لمثله مجرد تغطية للكآبة وسد منيع للسيل العرم من مخزون الذكريات التي عاشها ومازال يحتفظ بصغيرها وكبيرها في ركن "المحفوظات" من الدماغ، خلال سنوات العمر وخاصة، سنوات ثورة التحرير، في تلك المنطقة من شمال أوروبا حيث يتقاطع نشاط المناضلين مع مواقف الأصدقاء ومواقف الخصوم الألداء على السواء مما صعب على أصحاب القضية نضالهم اليومي وجعلهم كالسراة في حقول من الألغام.

نزلنا بمطار الخرطوم العاشرة ليلا في الخامس من شهر أبريل 1987. والإقامة بالفندق الكبير المطل على أحد النيلين[1] .

---

1. النيل الأبيض والنيل الأزرق.

في صبيحة اليوم الثاني وجدت رئيس الوفد المؤلف من اثنين: القائد والجندي في حديقة الفندق وقد "غرف" من عبير الزهر ونسائم المحيط ما شاءت له الفرصة أن يغرف ويعب من كل ذلك، أما تحية اللقاء فلن يكون بوسعك أن تسبقه بها لا في الصبح ولا في العشي. بادرته بعد التحية قائلا: ها نحن في بلدنا وعند أهلنا وفي أحضان تاريخنا وحضارتنا لذلك فسوف لن نشعر بالغربة ! وبعد الديار إذ نحن جميعا خارج زمان الآخرين، وقد نسيت يومها أن أسأل سي مولود هل زار السودان قبل اليوم أم هي الزيارة الأولى، ومع ذلك فلديه من المعلومات عن هذا البلد الشقيق ما يكفي لوضع كتاب جامع لجغرافيته وتاريخه البعيد قبل الاستعمار وأثناء فترة الاستعمار وبعد استرجاع حريته واستقلاله ومعلومات هامة عن الشخصيات السياسية والدينية والثقافية التي لعبت أدوارا وطنية رائدة من أجل النهوض بهذا البلد الشاسع والزاخر بالثروات الطبيعية والبشرية، وبالإنسان العربي المسلم الإفريقي المتميز بتقاليده الأصيلة، وطيبته وأخلاقه العالية، والمعروف بمحاولاته العديدة لخوض تجربة الديمقراطية، ولو كتب النجاح لتلك المحاولات لامتد تأثيرها إلى المحيط العربي بصفة عامة.

وتمت لقاءات عديدة بين الوفد وبين مختلف مستويات المسؤولية في الدولة والأحزاب الوطنية والمنابر الفكرية والسياسية العديدة, وجرى الحوار كلما أمكن إجراؤه في جو ودي أخوي شفاف كما هو معروف عن الأشقاء السودانيين. وكانت أجواء السودان السياسية في تلك الفترة بعد عامين من حركة تغيير رأس الحكم باعثة لدى العديد من الأطراف العاملة في السودان روح الأمل والتفاؤل في المستقبل. واستقبل الملاحظون من غير السودانيين

مبادرة رئيس مجلس رأس الدولة بتنحيه عن الحكم برضاه وبإرادته بعد أن أحس أن الأمور قد استقرت في البلاد بعد عامين من الإطاحة بالرئيس جعفر النميري، وقد تكون مبادرة السيد سوار الذهب فريدة يتيمة دهرها في عالمنا على الأقل.

وخلال اللقاءات التي تمت بين الوفد وبين مختلف الأطراف السودانية في الدولة والتنظيمات المتعددة من أقصى اليسار لأقصى اليمين كان سي مولود خير مستمع، وخير مؤازر ومتعاطف حيث ينبغي ذلك ولا يجوز غيره كما كان واسع الاطلاع على ما يهم الطرف الآخر وما يفيده في كثير من الأحيان. ولقد علق على مبادرة الرئيس المتخلي عن الحكم طوعا أثناء استقباله للوفد ما زاد من حماس "سوار الذهب" ليزيدنا فيضا من بواعثه ومقاصده الوطنية فيما قام به !

أما حين اضطر الفقيد إلى التخفيف من قيود البروتوكول واعتبارات الضيافة فذلك كان أثناء عشاء في بيت رئيس الوزراء السيد الصادق المهدي حضره المسؤولون وأعيان البلد، وأعمدة التيارات السياسية وأخذ الحديث مسالك عديدة توقف مطولا عند قضية التعريب في الجزائر وعلق السيد المهدي على الموضوع قائلا بأن التعريب لم يكن على ما يرام وأن جهات في البلاد تعرقل مسيرته. لم ينتظر سي مولود أن يكمل المضيف حديثه إذا انتفض وأطلق العنان لنفسه متهما – أولا – أشقاءنا العرب بلا مبالاتهم وعدم اهتمامهم بما يجري في الجزائر سواء قضية التعريب أم غيرها، لذلك فإن أحكامهم تأتي في غالب الأحيان مخالفة للحقيقة والصواب ثم أبحر في فترات بعيدة من تاريخنا ومساهمات الجزائر في تعريب المنطقة، وذكر

الكثير من علمائها تم عرج على مراحل المأساة التي حلت بالجزائر بالاستعمار الفرنسي الذي استهدف اللغة والدين في المقام الأول، وخطط لذلك منذ اللحظة الأولى من هجومه على أرضنا، ومع ذلك فإن التاريخ لم يشهد صمودا مثل صمود شعب الجزائر بجميع فئاته دفاعا عن هويته وأرضه وعرضه. واسترسل شارحا ومستشهدا بالماضي وبجهود الحاضر وبطموح كبير للمستقبل وعدد الإنجازات وتحدث ثم تحدث وأفاض وأفحم حتى اعتذر رئيس الوزراء واعترف بتقصير العرب في تعرف بعضهم على بعض، وأثنى عليه ثناء ليس بغريب على لباقة وأخلاقيات السودانيين.

وفي الغد التالي اقترحت على الرفيق أن نزور بمعية السائق موقعا في الخرطوم من أروع المواقع الطبيعية حيث يلتقي النهران العملاقان عند رأس مثلث هما: النيل الأبيض والنيل الأزرق. المياه هي المياه بيد أن كل نهر من النهرين ظل محافظا على ملامحه التي جاء بها عبر آلاف الكيلومترات، وفي لحظات التماس بل الاحتضان والمعانقة يذوب بالتدريج هذا "الأنا" العملاق في "الأنا" الثاني ليصبحا – لو صدقت عزائم الناس– خيرا عميما يفيض على أهله وعلى الآخرين.

ويسمى هذا الموقع الذي تم فيه التلاقي والتلاحم "بالمقرن" مقرن النيلين: الأبيض والأزرق وشاء ذلك الموقع الذي زرناه أن يخرس اللسان حتى لا يعود ثانية إلى تعذيب الذات بالمقارنة بين المفارقات.

تغمدك الله برحمته الواسعة وإلى يوم التلاقي !!

الجهود اللغوية للشيخ محمد الطاهر التليلي

أ.د : أبو القاسم سعد الله

هناك عوامل كثيرة جعلت الشيخ محمد الطاهر التليلي يكثف جهوده في التأليف اللغوي والأدبي. فأصله عربي من نسل الخليفة أبي بكر الصديق، وثقافته عربية تلقاها في جامعة الزيتونة بتونس، وبيئته عربية لأنه ولد وترعرع في الصحراء بين الرمال والنخيل ووسط القبائل الهلالية التي استوطنت واحة (وادي سوف) الواقعة في شرقي الجزائر قادمة من مصر عبر ليبيا فتونس. ويضاف إلى هذه العوامل جثوم الاحتلال الفرنسي على وطنه ونكران هذا الاحتلال لعروبة وإسلام الجزائر وطمس ثقافتها وإحلال لغته (الفرنسية) محل لغتها العربية، مما أحدث رد فعل في الجزائر كلها ضد الاحتلال ودفع بالبعض، ولا سيما قادة الرأي في منطقة وادي سوف، إلى الارتماء في أحضان حركة الإصلاح الديني والاجتماعي والثقافي، وهو ما قام به الشيخ التليلي بكل اقتناع وحماس.

ونود الآن أن نستعرض حياة الشيخ التليلي الثقافية باختصار، متجاوزين تآليفه الدينية والتاريخية والفلكية...، مشيرين إلى مساهمته في اللغة والأدب, ومركزين فقط على جهوده اللغوية.

حياة الشيخ التليلي باختصار:

ولد الشيخ محمد الطاهر التليلي في بلدة قمار (إحدى بلدات وادي سوف) سنة 1910 كما أثبت ذلك بنفسه في دفتر سماه (هذه حياتي). وبعد عمر طويل في الكفاح ضد الجهل والفقر توفي –رحمه الله– في آخر سنة 2003، فيكون قد عاش 93 سنة، قضى منها أكثر من ستين سنة في التعليم والتأليف وإجابة السائلين والزائرين عن مسائل الفقه واللغة والتواريخ المحلية والقضايا الاجتماعية التي تطرأ على الناس في بيئة صحراوية نائية[1] .

وبعد حفظه القرآن الكريم في أحد مساجد(قمار) وتتلمذه على بعض شيوخها في القراءات والمتون وحضوره دروسا حرة كان يلقيها بعض الأدباء أمثال محمد اللقاني أو دعاة الإصلاح أمثال عمار بن الأزعر، توجه سنة 1927 إلى جامع الزيتونة في تونس وانخرط في سلك طلابه، وظل به إلى أن حصل منه على شهادة (التحصيل) بعد سبع سنوات من الدراسة المتوالية، وهي الشهادة التي تؤهل صاحبها للتعليم في المدارس وتولي الوظائف الدينية والتربوية.

1. تناولنا حياة الشيخ مُحَمَّد الطاهر التليلي بشيء من التفصيل في مناسبتين الأولى عند تقديمنا لكتابه (مسائل قرآنية) الجزائر، 1986، والثانية إثر وفاته في قمار 16 رمضان، 1424/ 11 نوفمبر 2003. أنظر جريدة (الشروق)، الثلاثاء، 16 ديسمبر، 2003.

رجع الشيخ التليلي من تونس إلى بلدته (قمار) سنة 1934، ولكنه لم يجد عملا يعيش منه، سيما وقد تزوج، وكان عليه أن يعول عائلة ويستقل عن والده في تدبير رزقه. وقد ضاقت به الحال فاشتغل تارة فلاحا وتارة تاجرا، ولكن "كل ميسر لما خلق له"، فلم يربح في الفلاحة كما لم ينجح في التجارة. واتصل برئيس جمعية العلماء[1] الشيخ عبد الحميد بن باديس[2] زعيم الحركة الإصلاحية. وكانت الجمعية تقوم بالتعليم العربي الحر في مدارس حرة من تأسيس الشعب نفسه وتبرعاته، دون الاعتماد على تمويل الحكومة (الفرنسية). عينت الجمعية الشيخ التليلي معلما في إحدى قرى مدينة بجاية، ولكن الحاكم الفرنسي هناك طرده منها بدعوى عدم امتلاك رخصة رسمية للتعليم وأنه أجنبي على المنطقة. فعاد الشيخ إلى بلدته (قمار)، وبقي حلس الفقر والبطالة، وزادت الحرب العالمية الثانية حاله سوءا حين تقابلت جيوش الحلفاء والمحور في تونس وعلى الحدود الجزائرية الشرقية، فكانت منطقة (سوف) مسرحا لمعارك بين الطرفين، وحلت الأمراض التي فتكت بالمئات من السكان, ولم تنجل هذه الغمة إلا بعد سنة 1945.

---

1. تأسست (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) سنة 1931، وكان مقرها (نادي الترقي) بالجزائر العاصمة، وكانت مبادئها تقوم على نشر التعليم العربي الحر وتحرير الأوقاف الإسلامية من قبضة الإدارة الفرنسية وعلى نشر الوعظ والإرشاد عن طريق المساجد، وعلى الإصلاح الاجتماعي والديني طبقا لمذهب الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا.

2. الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889-1940) من مدينة قسنطينة بشرق الجزائر، وهو من أسرة عريقة، أسس أجداده الدولة الصنهاجية التي حكمت من القيروان. وتعلم في مدينته ثم في جامع الزيتونة ورحل إلى مصر والحجاز وتأثر بحركة الجامعة الإسلامية. ولما رجع إلى الجزائر انطلق في مشروع الإصلاح الذي ذكرناه. وهو أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1931-1940).

رغم التضييق الإداري على الشيخ التليلي باعتباره من تيار الإصلاح، فإن أهل قمار طلبوا منه أن يعلم أولادهم في مدرسة أسسوها لهذا الغرض، وهي مدرسة النجاح الحرة التي بقي يديرها بنفسه ويعلم فيها إلى استقلال الجزائر عن فرنسا عام 1962.

وخلال سنوات الفقر والبطالة والمرض، ثم سنوات التعليم ومواجهة الإدارة الاستعمارية وظروف ثورة التحرير الجزائرية (1954-1962)، أنتج الشيخ التليلي مجموعة من المؤلفات والأشعار والتقاييد والفتاوى نذكر منها هنا ماله صلة باللغة والأدب[1]:

1. زهرات لغوية من كتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني
2. تجريد شعر مقامات الحريري
3. مجموع الأمثال العامية في سوف
4. معجم الكلمات العامية الدارجة في الصحراء الجزائرية
5. تلخيص كتاب الأضداد للمتوزي
6. شواهد الكلمات العامية من اللغة العربية الفصحى
7. قصة الشيخ العجوز (نظم)
8. الدموع السوداء (ديوان شعر)

ويهمنا في هذا المجال مؤلفاته اللغوية التالية :

1. تقاعد الشيخ التليلي من التعليم عام 1972، ولازم بيته في قمار. وفي أواخر السبعينات أدى فريضة ا لحج. وقد ترك عددا من التلاميذ هم اليوم عدة الجزائر في مختلف المجالات، كما ترك ولدين وخمس بنات.

الزهرات اللغوية، ومجموع الأمثال العامية، ومعجم الكلمات العامية، وشواهد الكلمات العامية :

أولا : زهرات لغوية من كتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني

وهو دفتر من 37 صفحة من الحجم الكبير. اقتطف الشيخ مادته أو زهراته من كتاب (الألفاظ الكتابية) لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني المتوفى سنة 320 هـ. قال الشيخ التليلي إنه اقتطف من كل باب من أبواب هذا الكتاب ثلاث زهرات، أي أمثلة أو نماذج، مثلا (باب إصلاح الفاسد) جاء منه الشيخ بالأمثلة (أو الزهرات) الآتية: لمّ فلان الشعث، وضمّ النشر، ورم الرثْ، وكلها تعني أصلح الفاسد.

وقد نبه الشيخ في مقدمته إلى أنه عزم على جمع مفردات لغوية قليلة بهدف مساعدة طلاب المدارس، ولا سيما مدرسة النجاح التي كان يشرف عليها، على كتابة الإنشاء والقيام بالتمارين الكتابية أو التعبيرية، حسب مراحل التلاميذ الابتدائية. "وبعد، فإني عازم – بحول الله – على جمع مفردات لغوية قليلة العدد في كراس صغير (يعني في عدد أوراقه وليس في حجمه) يساعد تلاميذ مدرسة النجاح في قمار، وكل المدارس التي على شكلها، على كتابة الإنشاء والتمارين الكتابية أو التعبيرية، حسب درجات الدراسة الابتدائية عندنا" (المقدمة).

وفي الصفحة 36 من الدفتر كتب الشيخ التليلي (باب جملة من أمثال العرب التي على وزن أفعل). وجاء من هذا الباب بأمثلة أو زهرات عديدة، فقال: تقول العرب في أمثالها: أجمل من رعاية الذمام، أروح من يوم

التلاق، أحر من يوم الفراق، انضر من روضة... (ص 36). ويمكن القول إن الزهرات اللغوية عبارة عن اختصار أو مختار من كتاب الهمذاني الهدف منه تعليمي وهو تربية الناشئة على حب الأدب الجميل والذوق السليم وخدمة التراث العربي رغم العراقيل التي كانت الإدارة الفرنسية تضعها في وجه اللغة العربية.

ثانيا : مجموع الأمثال العامية

هذا الدفتر يضم 35 صفحة من الحجم الكبير. وقد رتبه الشيخ على حروف الهجاء ولم يكتب له مقدمة. ويبدو أنه كان ينوي كتابة مقدمة له عندما ينتهي من جمع الأمثال. أما عدد الأمثال التي جمعها لكل حرف فيتراوح بين صفحة واحدة في عمودين، مثل حرف الجيم والحاء وبين الثماني صفحات ذات عمودين أيضا، مثل حرف الألف. وهناك حروف بصفحتين وعمودين مثل حرف الباء والتاء. ومن الأمثلة التي أوردها لحرف الألف والباء والتاء :

1. إذا كان في راسك ما يعبّي جمل أنا في راسي ما يعبّي قافلة
2. إذا كان الأيام عكستْ ساميها وارقدْ
3. إذا جاك الكسادْ علّي لوسادْ
4. إذا أحبك القمرْ واش عندك في النجومْ
5. اللي فات ماتْ واللي طاح راحْ
6. بعد ما شابْ دارولو حجابْ

7. باب ربّي ما عليه بوابْ
8. بصبصلو يرجعْ لأصلو
9. باتْ بلا لحمْ تصبح بلا دَين
10. بنت العمْ ولو بارت والشينة ولو دارتْ والمدينة ولو جارتْ
11. تبّعْ السارق لباب دارو
12. تبّعْ جارك والاّ نقلْ باب داركْ
13. تبديل السروجْ فيه راحة
14. تبّع بوك لا يغروكْ...

أما صفحة 36 من الدفتر ففيها نصوص نقلها الشيخ – كما قال – من اليوميات أو الرزنامة. وجاء بنقول من ابن عروس ومن محمد المرزوقي الذي روى عن علي القفصي شاعر الملحون. وأخيرا ذكر الشيخ بعض الأحاجي أو الحكايات العامية.

ثالثا : معجم الكلمات العامية الدارجة في الصحراء الجزائرية

هذا العمل لم يكتب له الشيخ مقدمة كما فعل مع كتبه الأخرى، ولم يذكر منهجه فيه وإنما هو دفتر يضم مجموعة من الكلمات دون ديباجة. ويبدو أن الشيخ لم ينته من جمع مادته، ومع ذلك نجده قد ترك صفحة بيضاء في أول الدفتر لكتابة المقدمة، ثم بدأ بحرف الألف، ثم حرف الباء إلى آخر حروف الهجاء . وقد جعل كل صفحة تحتوي على خمسة أعمدة يضم كل عمود مجموعة من الكلمات. والملاحظ أن بعض الصفحات

منتهية وأعمدتها مغلقة بينما بعض الصفحات والأعمدة ما تزال مفتوحة للإضافات. وإذا كان العمود مغلقا فإن عدد الكلمات فيه يصل غالبا إلى 26 كلمة، وإذا كانت الصفحة كلها منتهية فإن عدد كلماتها حوالي 130 (أي 26*05=130). وقد أحصى الشيخ بنفسه عدد الكلمات التي جمعها على هذا النحو في الدفتر كله فوصلت إلى 5038 كلمة.

والملاحظ أن آخر صفحة في الدفتر ليست هي حرف الياء، وإنما صفحة إضافية عنوانها (طائفة من أسماء النخيل المعروفة في صحراء الجزائر عامة وفي سوف خاصة). وذكر من هذه الأسماء (23) ثلاثة وعشرين اسما منها: دقلة نور، غرس، دقلة بيضاء، حلواية، حمراية، عماري، تانسين، تفزّوين، تمر جورت، يتيم، بيض حمام، بوفقوس، علي وراشد، تكرمست، طرطبوشت (أوطنطبوشت)، ذكار (فحل النخل، حسب تعريف المؤلف) وغيرها إلى 23 اسما.

رتب الشيخ الكلمات العامية حسب حروف الهجاء فبدأ بحرف الألف فذكر منها 81 كلمة، وحرف الباء (327 كلمة)، وحرف التاء (108 كلمات) وحرف الجيم (158 كلمة)، وهكذا. وكثير من الكلمات وضع الشيخ إلى جانبها تفسيرا لها بكلمة أو بعبارة. وهو يكتب الكلمة بالحبر الأزرق وتفسيرها بالحبر الأحمر. مثلا كلمة (جبيرة) فسرها بكلمة (محفظة)، (جلب) فسرها (غنم)، ومن حرف الباء (بتبته) تفسيرها (ضربه) (برْفطه) تفسيرها (خدعه)، (باسل) تفسيرها (ثقيل) ، (بلبل) فسرها (للعتروس)، (بوروبة) فسرها (لعبة)، إلخ...

رابعا : شواهد الكلمات العامية من اللغة العربية الفصحى

الذي أطلق عليه أيضا **القول الفصل في رد العامي إلى الأصل**، وهو دفتر يبلغ أكثر من 100 صفحة، في كل صفحة ثلاثة أعمدة: عمود للمصدر، وعمود للكلمة، وعمود لبيت الشاهد. ويقصد بالمصدر الكتاب أو الديوان الشعري الذي عثر فيه على الكلمة. وقد رجع الشيخ إلى كتب التراث والدواوين الشعرية، وهو يذكر مع المصدر الجزء, إن كان للكتاب أجزاء، ورقم الصفحة. ولكنه لا يذكر الطبعة، فقد يكون المصدر قد أعيد طبعه، مثل كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الذي يذكره أول مرة بعنوانه الكامل ثم لا يشير إليه بعد ذلك إلا مختصرا بكلمة (العقد) فقط. وكذلك فعل مع كتاب (الكامل) للمبرد، ودواوين الشعراء.

أما (الكلمة) فيشير بها إلى الكلمة الشائعة في العامية بناحية سوف، وهو أحيانا يشكلها كلها أو يشكل منها الحرف المقصود لمعرفة النطق الدارج، بالقياس إلى النطق الفصيح. وأحيانا لا يذكر الكلمة الواحدة بل يذكر معها كلمة أخرى توضح معناها كالصفة أو المضاف إليه، مثل (لقمة طعام) و(النوى للتمر) و(تقوس ظهره) و(الجبار من النخيل) و(قارح=الجمل) و(المرمر= للياجور، القرمود)... هذا وقد بلغ مجموع الكلمات والعبارات التي رجع بها إلى الأصل الفصيح واستشهد لها بالشواهد من أمهات التراث حوالي 1500 كلمة.

وأما (بيت الشاهد) فيورده من أصله أو من مصدره في الديوان أو الكتاب، وهو يكتب البيت المقصود، وقلما يكتب البيت الذي قبل الشاهد أو بعده. والتعبير (بيت الشاهد) يدل على أن الشيخ قد اكتفى بالشواهد

الشعرية من كتب التراث ولم يلجأ إلى الاستشهاد بالنثر. وربما كان يعتقد أن الشعر (وهو ديوان العرب) هو الذي يستدل به على فصاحة الكلمة وعلى تأصيلها ومن ثمة تأصيل الكلمة العامية أيضا. والملاحظ أن شواهده كلها تقريبا ترجع إلى الأدب القديم الجاهلي و المخضرم.

وحوالي الصفحة الثمانين من الدفتر غير الشيخ منهجه فقسم الورقة إلى عمودين فقط مع تصرف وتوسع في وصف الكلمة فجعل العمود الأول (الكلمة الدارجة)، مثل (حلقة الباب) و(قعقع الجمل)، و(جماعة خوص العيون).

وأما العمود الثاني فجعله لأبيات الشاهد ولكن بدون عنوان محدد، فقال في أعلاه "وهذه طائفة أخرى من الكلمات تسجل هنا لتلحق بالطائفة الأولى" أي تلك الثلاثية الأعمدة. وقد استقى الشيخ الطائفة المضافة من كتاب (رغبة الآمل شرح كتاب الكامل)، تأليف سيد علي المرصفي, ولذلك قال في أعلى الصفحة " أكثر ما في هذه الصفحة وما بعدها منقول من كتاب رغبة الآمل..." وعندما تقدم عمله في هذا القسم أصبح يكتب عمودين للصفحة الواحدة فيكتب الكلمة العامية في العمود الأول، ويكتب في العمود الثاني عبارة (الشاهد لها من الفصحى) وأحيانا (الشاهد من الفصحى) بدون كلمة (لها).

وقد آن لنا أن نذكر وصف الشيخ منهجه في جمع مادة هذا التأليف التي رجع إليها في مظانها في كتب الأدب ودواوين الشعراء ومختلف المعاجم بحثا عن الأصل الفصيح للكلمات المستعملة في منطقة سوف وما حولها من الصحراء حيث مرابع القبائل العربية التي استوطنت المنطقة منذ

الفتح الإسلامي، وخصوصا منذ القرن الخامس الهجري، تاريخ ما يعرف بالتغريبة الهلالية نحو المغرب العربي.

يقول الشيخ التايلي في مقدمة (شواهد الكلمات العامية من اللغة العربية الفصحى) ما يلي :

"وبعد، فقد رأيت أن أشرع –بحول الله وإعانته– فيما عزمت عليه منذ أمد مديد، من تسجيل ما أجده في كتب الأدب ودواوين الشعر وفي مختلف المعاجم والقواميس العربية من الكلمات الفصيحة المنثورة هنا وهناك التي ترادف أو تقارب أو تطابق تلك الكلمات المستعملة في لغتنا العامية مما يمكن أن يعد من غريبها أو مما تفردت به هذه العامية دون أمها الفصحى فيما زُعم، مع أن له أصلا أصيلا وعرقا طويلا في شجرة لغتنا الأولى، اللغة الأم".

"وهذه الكلمات العامية كنت قد سجلتها في كراس خاص كرسالة صغيرة معتزما أن أبحث لها عن شواهد من الفصحى لأثبت للقارئ نسبها النسيب من أصلها الفصيح عندما تسنح الفرصة وتسمح الظروف".

"وها أنا الآن أتوكل على من بيده الحول والطول فأثبت هنا الكلمة العامية وأردفها ببيت من الشاهد أو بفقرة الشاهد من شعر العرب ومنثورهم، وأقتصر على نقل الشاهد ولا أتوسع فيه. ثم أذكر المصدر الذي نقلت منه هذا الشاهد. وليس من شرطي أن تكون كلمة الأم مطابقة لكلمة البنت مطابقة النعل للنعل بل يكفي أن تكون بينهما صلة ما تدل على أن هذه من تلك، وأنها أثر لها يدل عليها عند ذهابها أو غيابها".

ومما يلاحظ على النص السابق ما يلي :

1. أن الشيخ بدأ عمله في جمع الكلمات الدارجة في كراس. ولم يكن في هذه المرحلة يبحث عن الشواهد الفصيحة التي تثبت الصلة بين العامي والفصيح. ونحن لا نجد هذا الكراس ضمن مؤلفات الشيخ، وإنما وجدنا الكلمات الدارجة في عمود وبيت الشاهد في عمود آخر، إلى جانب عمود ثالث يتضمن المصدر، كما سبقت الإشارة.

2. يشير الشيخ إلى أن خطته تشمل الشواهد من الشعر والنثر "من شعر العرب ومنثورهم" حسب تعبيره، ولكن دراستنا للدفتر جعلتنا لا نعثر على منثور العرب وإنما على شعرهم فقط. وحتى استشهاد الشيخ من (العقد الفريد) و(الكامل) اقتصر على ذكر الشواهد الشعرية دون النثرية[1].

3. أن الشيخ أثبت فعلا أن الصلة بين الكلمة المستعملة والكلمة الأصل ليست دائما متطابقة، ويكفيه أن بينهما هذه الصلة ولو كانت بعيدة أو متغيرة.

ونسوق الآن بعض النماذج مما أورده الشيخ لنستدل أولا على منهجه ولنتعرف ثانيا على مقصوده من البحث عن الصلة بين الكلام الدارج والأصل الفصيح[2].

---

1. نقل الشيخ أحيانا من شواهد المغنى للسيوطي وحتى من نظرات المنفلوطي.

2. لاحظ أن الشيخ لم يرتب الكلمات الدارجة ترتيبا هجائيا كما فعل مع بعض أعماله الأخرى، مثل الأمثال العامية.

الكلمة	الشاهد	المصدر
بذرق	فقعـدت ثـم دعـوت لـي بمبـذرق *متشمر يسعى بغير رداء	العقد الفريد، 7/8
لقمة طعام	مـا بـين لقمتـه الأولـى إذا انحـدرت* وبين أخرى تليها قيد أُظفور	العقد الفريد، 12/8
هرّت الكلبة (نبحت للتحذير)	ولقـد غـدوت علـى التجـار بمنْـبج* هرت عواذله هرير الأكلب	العقد الفريد، 56/8
ترهز	ورهـز تـذرف العينـان منـه * وأخـذ بالذوائب والقرون	العقد الفريد، 133/7
رنّق (نظر)	يامقلـة الرشإ الغريـر* وشـقة القمـر المنيـر مـا رنقـت عينـاك لـي بـين الأكلة والستور	العقد الفريد، 266/6
التراب السافي (الناعم)	ولقد ذكرتك يا أميمة بعد ما* نزل الدليل إلى التراب يسوفه	النظـرات للمنفلـوطي 100/2
يرقل (يعرج)	تعطيـك مشـيا وإرقـالا ودأدأة* إذا تسربلت الآكام بالآل	شـــواهد المغنـــى للسيوطي 458/1
الخْطار (العناد)	عـذرت البـزل إن هـي خـاطرتني* فما بالي وبال ابنْي لبون	شـــواهد المغنـــي 459/1

وهكذا سـار الشـيخ التليلـي مـع كـل الكلمـات الـواردة فـي تأليفـه، وهـي كثيرة. ونود الآن أن نذكر نماذج أخرى من الكلمات مع ذكر المصدر ولكن

دون ذكر الشاهد[1]، اختصارا فقط، وعلى القارئ المهتم أن يرجع إلى الكلمات في مصادرها، وهي التي يسميها الشيخ الكلمات المستعملة أو الدارجة في منطقة سوف :

الكلمة	المعنى	المصدر
يتمرغ	يتقلب	شواهد المغنى 709/2
القور	التلال، المرتفعات من الأرض	" " 967/2
شخب الحليب	صوته بقوة	" " 972/2
صَوّبوا	اتجهوا، انحدروا	" "
الحشيش	العشب	" "
حام	سخون	" "
تكمش	تقلص	" "
رابْ	رشا، تهلهل	" "
اهجع	اسكت، نم	" "
ضاري	مدرّب	ديوان النابغة الذبياني (دون الصفحة)
مهلهل	ثوب مهلهل، رثٌّ	" " (د.ص)
المرَس	الحبل	ديوان امرئ القيس (د.ص)
ذنابة الطير	ذنبه	" " (د.ص)

1. مع ملاحظة أن الشيخ قد ذكر الشواهد، كما أشرنا.

حدّر	نزل	" " (د.ص)
فَرفَر الطير	ارتجف، رقص بجناحيه	" " (د.ص)
المسيب	المطلوق	ديوان علقمة بن عبدة (د.ص)
ذبان	ذباب	ديوان امرئ القيس (د.ص)
يزفزف	يجري	ديوان امرئ القيس (د.ص)
أمارة	علامة	ديوان امرئ القيس (د.ص)
السعف	للنخل	" " (د.ص)
الدوم	نبات	" " (د.ص)

وإليك نماذج أخرى من الكلمات والعبارات الدارجة في منطقة سوف، دون ذكر المصدر ولا الشاهد، رغم أن الشيخ التليلي قد ذكر لكل كلمة شاهدها ومصدرها، كما سبق. والهدف هو إثراء الذخيرة اللغوية العربية، ولا سيما من المناطق التي قد يظن البعض أنها ابتعُدت عن العربية الأصلية أو أنها بيئات حرفت فيها العربية عن أصولها أو ذابت في غيرها. وهذه هي القائمة المأخوذة عفوا من عشرات الكلمات التي سجلهاالشيخ في تأليفه[1]:

الكلمة الدارجة	الكلمة الدارجة
الجبار= من النخيل	الفراريج= الديكة، السراديك
البُسْر= التمر قبل أن يصبح رطبا	القيطون= بيت من قماش
الغيطان= الغابة من النخيل	مسرّد= مبلل
القنة= علية، المرتفع	خوص العيون= حول العيون

1. لاحظ أن القائمة غير مرتبة هجائيا، كما أن الشيخ نفسه لم يرتبها، كما سبق.

محبوك (محبك)= الحبل	صاع الكيل
أغلسية= الصبح	تغدّيت= أكلت الغداء
تقوس ظهره= انحنى ظهره	الجعبة= القصبة
فاس اللجام= للخيل	العود= الحصان
ربّة= بُرعم	كركره= جرّه
بَكرة= ناقة	يلعب القُمار
مخمّل= مستور ، مخبأ	صاقعة، صواقع
يفلق الحطب= يكسره	رتاج الباب
مهبّج الوجه= منتفخ	قمقوم= سيد
صُربة= جماعة (سُربة)	قشّعْ= تنحّ
عركة=معركة	جرد ثوب= قديم، مرقع
فاس ناصل= خرجت يده	

وفي الخاتمة نقول إن الدفاتر التي أشرنا إليها تحتوي على سجل حافل بالكلمات والأمثال والأشعار العربية المشاعة الآن في الجنوب الجزائري، وفي منطقة وادي سوف على وجه التحديد. ولا شك أنها تمثل ذخيرة لغوية كبيرة لمن أراد المزيد من البحث في هذا الميدان. وسيجد الباحث هذه الكلمات ليس فقط في الحديث اليومي ولكن في الأمثال وفي الأشعار الدارجة أيضا. وهي ثروة لغوية قد تتأثر بالاستعمالات الحديثة وباللغات الأجنبية الغازية عن طريق وسائل الإعلام، كما أن تفاعل السكان مع بعضهم وانتقال تجار وطلبة وموظفي أهل الجنوب إلى حواضر شمال البلاد، وكذلك العكس، قد يؤثر في هذا الرصيد اللغوي الذي ما تزال

الصحراء تحتفظ به، وهو في جملته رصيد عربي أو ذو أصول عربية ما تزال تختزنه كتب التراث كما رأينا في الأمثلة التي اقتبسناها. ومن ثمة فإن فضل الشيخ التليلي في الحفاظ على هذا الرصيد يستحق التقدير والتثمين لأن التدوين هو خير وسيلة لحفظ تراث الأمة.

اللغة مؤسسة وظيفتها الضبط الإجتماعي

د. عبد الله ساقور

جامعة باجي مختار – عنابة

مستخلص

لماذا تتفاوت المواقف من الكتابات حول المؤسسات الاجتماعية، حيث يختار البعض منها ويركز عليه ويتحاشى البعض الآخر؟ تساؤل مشروع، إذ يعترض البعض على اعتبار ضم اللغة مؤسسة اجتماعية من منطلق أنهم يفهمون المؤسسة على أنها تتكفل بتنظيم العلاقات الاجتماعية الواعية بين الناس فحسب.

يوجد قصور في فهم العلاقة الجدلية القائمة بين الثقافة والمجتمع على المستويين النظري والميداني؛ إذ يخلق البشر معانيهم الخاصة، ولا يتردد الواحد منهم في استخدام اللغة عند صياغة ديباجة مختلف المؤسسات، سواء أكانت مؤسسات مدنية أم دفاعية مستحدثة بقوة القانون الذي يضمن

لها صفات الانتظام والتواتر والشرعية. وهو جانب يفيد تغلغل رجال القانون وصناعه في الحياة الاجتماعية لأمة ما. وهو موقف مشبع باختلال بل بتزييف للحياة الاجتماعية الفوارة وتموقع اللغة الحية فيها.

تحاول هذه الورقة مناقشة اللغة باعتبارها مؤسسة اجتماعية من خلال تبيان أهميتها من تصوير عالمنا من جهة، وما تتميز به من خواص الإظهار "Externality" والموضوعية "Objectifvity" والإكراه "Coerciveness" والسلطة الأخلاقية "MoralAuthority" والتاريخانية "Historcity" وتكون مشفوعة بنقاش يتخذ من ارتباط اللغة العربية بالدين الإسلامي منطلقاته، بحثا عن النهضة والاستقلال المنشودين من جهة أخرى.

الكلمات الرئيسية : اللغة، المؤسسة، الضبط الاجتماعي:

Abstract :

This paper steams up from what is an Instituition? The case of arbic as a living language imposed by moslem society upon the conduct of individuals. The holy qur'an manifesto is thus, there for all to read (in Arabic) understand and apply to the details of our daily conduct. However, this interplay between arabic and islamic tentes is visualized in two exploded views which are manifest in a cultural system that provides meanings and purposes in some ultimate sense by creating a conception of reality that can be regarded as sacred, holistic and transcendent.

اللغة مؤسسة وظيفتها الضبط الاجتماعي :

"اللغة بيت تعيش فيه روح الانسان ... وبها تنمو خبراتنا الذاتية وخبرات الآخرين طول حياتنا في هذا العالم المحيط ...، حتى لو تصورنا عالما خارج

عالمنا هذا، فنحن لا نملك وسيلة سوى اللغة للتعبير عن هذه التصورات ووصفها، وعليه، فإن اللغة هي المؤسسة التي تسمو على بقية المؤسسات الاجتماعية ... فهي تلك اليد الطولى التي يتسلط بها المجتمع علينا،،"

(كارل كروس: كاتب استرالي")

في سياق الحياة الاجتماعية، ينتصب التشكيل النظامي "Institutionalism" قائما لأنماط مستقرة للتفاعل الاجتماعي، ترتكز على جملة من القوانين واللوائح، وما تفرضه من عادات وطقوس للقيام بسلوك معين، تمليه الأدوار الاجتماعية المحددة ويترتب على مخالفتها جزاءات مادية وأخرى معنوية ... وتغدو المؤسسات الاجتماعية بها "عبارة عن طرائق التفكير والعمل" يخلقها المجتمع ويشترك فيها الأفراد عن إدراك وتفكير، ويلتزمون اتجاهها بالخضوع والطاعة لأنها من مقومات تراثهم الاجتماعي. بهذا المعنى، فهذه (المؤسسات) عبارة عن برامج "programmes" يفرضها المجتمع لضبط سلوك الناس داخلها .. وهو تعريف لا يثير للوهلة الأولى استهجان المستمعين، ولا يعارضونه لارتباطه الوثيق بالمفهوم العام للمؤسسة التي نتعامل معها يوميا كالجامعة والمستشفى والمدرسة الخ.. من جهة، أو تلك المفاهيم المتعلقة بالمؤسسات التي تنشطها مختلف الجماعات الرسمية التي توجه الناس من جهة أخرى، نحو تحقيق هدف محدد، كمؤسسات الدولة والاقتصاد أو النظام التربوي الذي يخلق في فضائها كائنات، ميتافيزيقية، وإذا طلب منا تعداد أهم المؤسسات المجتمعية "Societal" فإننا لا نتردد في سرد هذه المؤسسات. ونكون بذلك على حق أيضا لما يشيع بين الناس من أفكار للدلالة على تلك العلاقة القانونية التي

يتعرف الناس بموجبها على هذه المؤسسات. ربما يعود هذا إلى ما يتمتع به رجال القانون وصناعه من نفوذ في الحياة الاجتماعية، لكن المنظور السوسيولوجي تبدو فيه معاني المؤسسة مختلفة. ولهذا السبب ستكون المرافعة عن مؤسسة اللغة الحية ودورها في الضبط الاجتماعي مشروعة...

يجدر التذكير بأن جميع المؤسسات، مهما كانت طبيعتها، هي مؤسسات قائمة على نمط معين من اللغة : فمؤسسات الدولة أو الاقتصاد أو النظام الجامعي وغيرها... قائمة على أساس من اللغة، تصنيفا للمفاهيم وخطابا عاما موجها للأفراد ليضبطوا سلوكهم وروح هذه المؤسسات ومواثيقها ... وبلغة أكثر دقة، تبدو المؤسسة الاجتماعية بشكل عام قائمة على عالم من المعاني "Meanings" المشتقة بشكل خاص من اللغة التي يمكن ضمان بقائها حية في أذهان أعضائها من خلال اللغة الحية الحاملة لهذه المعاني والمفاهيم "Meanings Carrier" وهو أمر يحتم علينا تبينان الوظائف المعرفية للغة من خلال:

1. اللغة وسيلة للإدراك الحسي :

يصادف الانسان مؤسسة اللغة اللحظة التي يبدأ فيها اتصاله مع العالم الخارجي. وهو حكم قد يثير استغراب المستمع. فعند مساءلة هذا المستمع عن أول مؤسسة تفاعلية للطفل، فإنه سرعان ما يشير إلى مؤسسة الأسرة وهو على صواب في ذلك. حيث أنه لاحظ وخبر هو ذاته طفلا، أن غالبية الأطفال مثله تبدأ لديهم عملية التطبيع الاجتماعي من خلال مؤسسة الأسرة التي هي نسق فرعي "System–Sub" من مؤسسة واسعة هي نسق القرابة "Kinship". وهو نسق تقليدي يبين فيه الأدوار والمراكز التي يلتزم بها

الأقـــارب المتصـــلون بعضـــهم بـــبعض عـــن طريـــق الـــزواج، أو المنحدرون من أصل واحد والتي تحكم سلوكهم ...

وبذلك تعد مؤسسة الأسرة ذات أهمية جوهرية في حياة الطفل الذي هو غير واع بأهمية القرابة، ولكنه يغدو أكثر وعيا بها من خلال ما يختبره يوميا بتفاعله مع إخوانه وأخواته من جهة، والمتصلين به من الأقارب المحيطين به من جهة أخرى. وكلما تقدم في السن، فإنه يعي أدوار هؤلاء الأقارب ومراكزهم وما يفعلونه. وبالتفاعلات النمطية المتكررة يدخل هؤلاء الأقارب في الواقع الاجتماعي الذي هو العائلة "Family" لكن الطفل يدرك ما حوله من الأطفال الآخرين عندما يشرع في بناء مصفوفة "Matrix" من المقارنات فيما بينهم. وهي عملية في غاية التعقيد، غالبا ما تحدث أثناء مراحل الطفولة. وبالمقابل، سيصطدم الطفل بمعوقات اللغة، وغالبا ما تحدث له بعض المتاعب في بداية حياته، وتمتد إلى فترة المراهقة. ويزداد النمو اللغوي لديه بتأثير المثيرات المحيطة به، وما تتضمنه من حقائق متعددة تفوق عالمه وخبراته المتواضعة جدا. وبواسطة اللغة، يتشكل الطفل ذهنيا ويغدو كائنا عاقلا، يدرك بعض مكونات ذلك العالم الفسيح الموجود خارج البيت. هذا العالم يؤطره الكبار، ويسعون بقوة وبهدي مما حصلوا عليه من خبرات ومهارات للتكيف معه. للإشارة هنا، تكون الحقائق مرتبطة أصلا بمفاهيم لغوية، تبدو متباينة في عالم الأطفال؛ ففي المجتمع البريطاني مثلا سجل (Berstein, b1965, pp.145 ff) تباينا في مستويات التحصيل اللغوي بين الأطفال المنحدرين من الطبقة الوسطى وبين نظرائهم من الطبقة العاملة.

يتضح مما تقدم أن عالم الطفل يتشكل من عبارات لغوية، اندمجت فيه بفعل إحدى طرائق التعلم، سواء تعلق الأمر بالمعاني، أم المفردات، أم

المفاهيم الحقيقية للأشياء من طريق اللعب. وتبدو تجربة الطفل مع الأشياء المادية ذات أهمية كبرى، حيث ينتظم العالم في ذهنه، ويقترن بصور محسوسة مستمدة من تسمية الأشياء، ويتعداها إلى فهم العلاقات الظاهرة بين هذه الأشياء، فالطفل لا يتردد في استخدام الطاولة ليتسلق الشجرة إذا أراد ذلك، ويمكنه استخدام الهاتف لطلب النجدة في حالة السقوط من فوق الشجرة... تلك هي تجارب يومية مادتها الأولية "مفردات لغوية" تمكن الطفل من تخزين معلومات وحذق مهارات ويتشبع بوجدانيات ذات دلالة خاصة لتسير عالمه المشكل أصلا من أحاسيس مباشرة من جهة، وتفعيله لمجموع العمليات العقلية المختلفة كالتذكر والتخيل والحكم من جهة أخرى، فضلا عن ذلك، يقوم الطفل بتصنيف الأشياء والمحيطين به من الناس ويعطيهما معايير وقيما للدلالة على ذلك الإدراك الاجتماعي " SOCIAL PERCEPTION" في تصوراته لهذه الأشياء ولمنتجيها، وما يتعلق بها من صفات وما يترتب عليها من وقائع وعلاقات اجتماعية فوارة. فأمه غالبا ودودة، تتربع على العرش معصومة من الخطإ. بالمقابل، إن ما يقوم به أحد أقرانه من سلوك اعتباطي، أو ما ينتابه من غضب أو إيذاء للجيران يستطيع أن يحكم عليه بأنه غير معصوم. وتنمو بذلك المقاومات لديه : الأنا الاجتماعي/ مقابل الأنا النفسي، أي من خلال اللغة وحدها يتعلم الطفل أن الأم دائما على صواب[1]، في حين أن الطفل الغضوب سيتعرض للعقاب. بذلك تتعدد وتنمو الخبرات اليومية لديه، وتمارس اللغة فعلها وتخزن هذه المقترحات أيضا لديه لأنها جديرة بالتصديق حتى وإن، غابت مبرراتها، أو صعب عليه القيام بالبرهنة التجريبية عليها. هذا يقود إلى استقرار الأدوار

1. يجب أخذ هذا الحكم على أنه نسبي إذ يقر كثير من الأطفال في قرارة أنفسهم تارة وجهارا تارة أخرى أنهم لا يوافقون على أفعال وأقوال أمهاتهم كلما تقدموا في السن.

من خلال وسائل لغوية محضة يستخدمها الطفل، ويتعرف بها على الأدوار
من خلال وسائل لغوية محضة يستخدمها الطفل، ويتعرف بها على الأدوار
الاجتماعية والأنماط السلوكية المتكررة عند الآخرين، سلوك الأولياء والأقارب بسرعة، وتعلق بذهنه من خلال التفاعل الاجتماعي معهم من خلال اللغة وحدها. وهو ما يجعله يطلق عديد الألفاظ في مواقف مختلفة ووفقا لأفعال محددة، وما يرتبط بها من معان.

باختصار، تبدو وظيفة اللغة واضحة عندما يعبر فلان ما عن موقف مضاد اتجاه الطفل، فليقابله هو بمعنى آخر ولكن له دلالة قوية: احذر، نحن هنا، أنا قادم ... وبذلك الجسر اللغوي يردم تلك الهوة الفاصلة بين عالمي الصغار والكبار، حيث تفيد اللغة تباين الأدوار.

2 . اللغة وسيلة لتفسير وتسويغ الواقع :

يبدو عالم الأطفال مشكلا اجتماعيا بدلالة الأدوار فقط، والتي تتسع إلى عالم أكثر رحابة، عاكسة صورة العالم الفسيح إلى عالمه المحدود. وتمثل الأدوار بحق خبرة سابقة، مثلما يشير إميل دركايم، فعندما يقوم ولي بتهذيب ابنه[1] غالبا ما يكون ذلك باللغة الكلامية، فما هو محتوى الكلام؟ فاللغة الكلامية لهذا الولي تفيد الضيق الذي يشعر به اتجاه تصرفات ابنه، فالحديث هنا تسويغ وتفسير لعملية الجزاء (العقوبة) الذي يتخذ عدة صور للسلوك التقليدي "Manners" كالحركات والإيماءات التعبيرية التي يتميز بها الولي ويكررها، حيث ترتبط ارتباطا وثيقا بذهن الطفل. وقد يتخذ المسار

---

1. التهذيب : تخليص المرء من عيوبه عن طريق تعديل السلوك وتقويمه لتحقيق التكيف لمسايرة الحضارة السائدة.

العقابي منحى دينيا كالعقاب من الله مثلا أو ما تفرضه ضوابط الآداب العامة التي لا يجوز مخالفتها. وعليه فإن تفسير السلوك التقليدي لهذا الولي أو ذاك تجاه الطفل المشاغب يرتبط بشكل درامي أيضا بتنظيم مختلف المؤسسات لأن الولي المحاسب/المعاقب يمثل النسق الاجتماعي بأكمله (السلوك الجيد السوي هو دور اجتماعي للولي يجسده في سلوكه مع طفله، وهو ما يتطابق مع ما للمؤسسات الاجتماعية من وازع أخلاقي "ضبطي" يتطلب منه المحافظة عليه) بذلك تقع اللغة في مواجهة الطفل في كل واقعه المحيط؛ فكل ما يخوضه هذا الطفل من تجارب تتراكم لديه في شكل بنائي على أساس أنها "حقائق" مستمدة من الواقع، وقع تمحيصها وتم تخزينها في ذاكرته. وهي سمة يشترك فيها الطفل مع غيره من الكبار. ذاك ما يجرنا إلى تبيان خصائص اللغة.

خصائص المؤسسة الاجتماعية : اللغة أنموذجا

الخاصية الأولى : الإظهار/التجسيد "Exteernality"

بادئ ذي بدء يجب التفريق في اللغة بين اللغة الحية "Living Language" واللغة النموذجية أو الرسمية "Standard Language" فالأولى لا تعني لا الفرنسية ولا الإنجليزية ولا حتى الأسبانية كلغات واسعة الانتشار في العالم وتهيمن عليه، بل نعني في هذه الورقة ما يفيد الصفة الاتصالية الرئيسية بين مجموعات السكان الذين يعيشون في منطقة محددة أو إقليم[1] كبوسعادة مثلا

1. منطقة / إقليم – Region/Area : مصطلح حيزي "Spatial" واجتماعي "Social" يفيد التجانس الجغرافي من حيث الخصائص السياسية والاجتماعية في تمييز الإقليم الشكلي.

أو بجاية، وتختلف بصورة أو أخرى عن اللغة الرسمية المستعملة في الدوائر الحكومية كالقضاء والكتابة والمدارس والجامعات.. هذان النموذجان من اللغة يقعان خارج الذات المتأسسة والتي يستوجب الاعتراف باختلافها البين مع واقع الذات المدركة لهذا الواقع المحيط، عن طريق ما تتمتع به من أفكار ومعلومات ووجدانيات وتخيلات... تلك هي خاصية مستقلة إلى حد ما عن مكونات المؤسسة الاجتماعية التي تقع خارج الواقع الذاتي الخام. فعند الحديث، يقوم المتحدث، بما يشبه عملية التفريغ "Throwing Out" للأشياء التي تعبر عن الذات المتحدثة ليس بمعنى تلك الأصوات الصادرة من الحلق فقط، وإنما ما تستهدفه اللغة من تبليغ لخطاب ذي معان محددة، وهذا التفريغ هو المصطلح المناسب والجيد لعملية الإظهار أو التجسيد "Externality" وهو نتاج المجتمع وليس من يتحدث بهذه اللغة أو تلك. فاللغة العربية مثلا، لم تكن وليدة وعي متحدث ما بها، وإنما هي موجودة قبل وقت الحديث بها، عند الاستعمال، وهي تجربة خارجة عن إرادة المتحدث وحتى إرادة المشتركين معه في الحديث بها.

باختصار، تبدو اللغة هنا كحقيقة خارج الذات المعبرة عندما باشرت تعلمها في الصغر.

الخاصية الثانية : الموضوعية "objectivity"

للمزيد راجع :

- Sutton, k (1981) Algeria A Center Down Development state capitalism and emergent decentralization In Stroh, W.B And Frazer Taylor (ed) development from a above or below? London, pp 351-75.
- Stroh, w and Todthing E (1978) spatial Equity. Some Anti theses to current regional development doctrine papers and proceedings R.S.A. (1977)

تقوم المؤسسة الاجتماعية على صيغ عامة تعبر عن ذاك الجهد المبذول الذي يقر أن أغلبية الناس العاقلين بأنها حقيقة بادية للعيان ومعروضة بشكل منطقي وثابت ويبدو الثبات "certitude" هذا موقفا معرفيا يقوم على الأدلة الأكيدة ولا يلحقه أدنى شك ويفرز نوعا من الإدراك والتفسير. وهو موقف معرفي بالأساس، ويفرز نوعا من الإدراك أو التفسير الناتجين عن التحيز الثقافي "Cultural Bias" للفرد والجماعة والقومية، وتغدو بذلك الموضوعية أكثر من ضرورة لتصويب الأخطاء ومنع الشطط الفكري، وتحقيق أكثر التعميمات العامة حيادا في ضوء المعرفة المتوافرة... أي أن هناك من يستخدم اللغة استخداما سليما، وآخر يستعملها استعمالا رديئا، وهناك من يعبر بعربية جيدة، وهناك من عربيته ضحلة. وهذا الآخر حكم موضوعي، ويبقى كذلك حتى – ظن المتحدث بالعربية – أن قواعد النحو على غاية من التعقيد...

وعليه، فإن الأمر يتطلب منه مقاربة ذلك بعقلانية من خلال عملية تنظيم لغته، وفي غالب الأحيان، قلما ينتبه المتحدثون بلغة ما إلى ذلك من حيث قبولهم اللغة مثلما يقبلون وقائع موضوعية أخرى في تجاربهم اليومية. فموضوعية أحدنا تجعل لغته أكثر متانة وقدرة على التعبير. فلقد أورد عالم نفس الطفل السويسري جون بياجه " J. Piaget " قصة ذلك الطفل الذي سئل إن كان بإمكان المرء الاستغناء عن مصطلح "الشمس" وإحلال آخر بديلا عنه؟ فرد الطفل: لا سيدي، فعقب السائل بطرح سؤال آخر على الطفل، كيف حصلت لك المعرفة بذلك؟ فاحتار الطفل في البرهان لكنه سرعان ما تفطن بتوجيه نظره إلى السماء قائلا: طيب سيدي، أنظر إلى السماء وستجد

الشمس قرصا. وهو ما يؤكد مقولة "باشلار" حيث تعني الموضوعية لديه القطيعة مع العواطف والحس المشترك واللغة التي جعلت تلقاء واقع الانطباع الأولى.

الخاصية الثالثة : قوة الإكراه "Coerciveness"

تتمتع المؤسسة الاجتماعية بقوة الإكراه، إذ يجبر الأعضاء على الانصياع لها، بحيث نجد الطفل في وسط عائلي مثقف يعامل برفق، وهو يتلقى تصويبات لغته، وعن اقتناع بذلك مثلما تقره قواعد اللغة العربية مثلا. وتستمر هذه المعاملة "القهرية" مع الطفل عند انتقاله إلى المدرسة الثانوية. فقد يستخدم المدرس بعضا من أساليب الإكراه للطفل الذي "يعتدي" على قواعد اللغة كاستخدام العقاب البدني أو التبخيس المعنوي أمام الزملاء في القسم وهو موقف يتناقض مع جوهر التربية الحديثة ولكنه واقع معيش. كما يشعر الراشد أيضا بالاضطهاد "Persecution" فقد يشعر أستاذ جامعي أيضا بالحرج من بعض طلابه وهم يقومون بتصويب لغته. وقد يترتب عن ذلك أن يفقد التلميذ في المدرسة صداقة تلميذ أو تلميذة لأنه لا يحسن الحديث معه أو معها، وقد يفقد الأستاذ الجامعي منصبه إذا كان لا يحسن لغة التدريس وهكذا.. ففي الولايات المتحدة الأمريكية دعا عدد من أساتذة الفلسفة في الجامعات الأمريكية العريقة إلى بعث نوع من الاحتكارات العلمية "Scientific Cater" من خلال الاستخدام الخاص للغة الإنجليزية الخاصة بالفلسفة لإبراز وجودهم في المجتمع كنخبة لها وزنها في الحقل الثقافي الجامعي وحماية أنفسهم من أي تعسف من جهة أخرى أنظر : (Gelnner, E 1964) لكن قوة الإلزام هذه التي تتمتع بها المؤسسات المجتمعية لا تعني أنها لا تخضع للتغيير الذي هو أحد السمات الاجتماعية

المعاصرة، لأن الناس اليوم لا يتوقفون عن اجترار "Ruminating" الكلام. فلو كف كل الناس اليوم في الجزائر عن الحديث باللغة العربية من منطلق أنها، مؤسسة اجتماعية، فلن نجد لها أثرا يذكر في اليوم الموالي[1].. بلغة أكثردقة، يلاحظ اختلاف في نوع موضوعية وجود اللغة العربية الذي يتوقف حصرا على عدد الناطقين بها عندما يعبرون عن تطلعاتهم الذاتية والمعاني المبطنة لها وبواعثهم.. وهو واقع يخضع للتغير باستمرار على خلاف موضوعية الظواهر الطبيعية المتماثلة[2]. فلنتصور أن أحدنا يقوم بدور

---

1. حدث هذا عندما احتل الفرنسيون الجزائر سنة (1830) حيث ورد في تقرير اللجنة الإفريقية عام (1830) وما تفشى من حال الطبيعة الأولى من مظاهر مخزية حيث ورد: "لقد حطمنا ممتلكات المؤسسات الدينية، وجردنا السكان الذين وعدناهم بالاحترام ..." هذا العنف الرمزي ضد الإسلام والعروبة في الجزائر وحد الجزائريين وبرز بشكل واضح كقاسم مشترك لتطويق الأزمة اللغوية وما تعرضت له الايكولوجيا الاجتماعية اللغوية من قهر واضطهاد.

للمزيد راجع :

– عبد الله ساقور: نمو الشخصية القاعدية الثقافية وتفاعلها السلبي مع الاستيطان – حالة الجزائر تحت الطبع ص (15 – 28) 2004.

– أحمد الخطيب : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ص 56.17.18.

– أحمد طالب الإبراهيمي : من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية ترجمة حنفي عيسى (1962- 1972) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. د.ت.

2. تم اعتماد آراء عالم اللغويات الفرنسي F. Deassure عندما قام بالتفريق بين اللغة الكلامية ولغة الكتابة، وهو لغوي متأثر كثيرا بعالم الاجتماع إميل دوركايم.

راجع مؤلفه : voir :

De Sassure. f (1949) : « *cours de Linguistic General* », 4ème edition, payot, Paris, France.

Baskim, w (1974) course ingeneral.

Linguisties, collms glosgowu.k

وتوجد ترجمة إنجليزية لهذا المؤلف، راجع وانظر أيضا : see also :

المدقق اللغوي، نحوا أو صرفا وبلاغة، فقد يوفق قليلا في محيطه العائلي الضيق... كما أنه كطفل قد يحصل على بعض النجاح عندما يتلفظ عبارات هي بمثابة (لغة الكلام المبدع) ليضاف إلى رصيد العائلة اللغوي (تاوتاو مقابل "كاوكاو" وحدة مقابل "مخدة" وهكذا)، وقد يتدرج الإنسان في توفيقه اللغوي عند بذله لمجهودات معتبرة في هذا الشأن ليبلغ حد الاعتراف الاجتماعي له ككاتب ذي سمعة راقية أو رجل دولة يقوم بتعبئة الجماهير وإيقاظ مشاعرها من خلال شعارات ثروته اللغوية. وهذا ما يحدث حاليا من إحياء لكل من اللغتين العربية والأمازيغية في الجزائر من خلال جمعيات المجتمع المدني كالحركة الثقافية البربرية MCB وجمعيات الدفاع عن اللغة العربية مقابل هيمنة اللغة العربية "الرسمية" على دواليب الإدارة الجزائرية وما يكتنف ذلك من خلافات بشأنهما لا يتسع المجال هنا للبحث فيها، حسبنا أن نذكر تلك الآثار التي يتركها ذلك الكاتب المرموق أو السياسي الملهم في اللغة وفي عالمه الأرحب والتي – تكاد حصيلتها – تقترب من الصفر في اليوم الأول من تركه لبلاغته الخطابية أو لقريحته الشعرية...

الخاصية الرابعة : السلطة الأخلاقية "Moral Authority"

اللغة جزء من السلوك الإنساني، وهي ضرب من العمل لا تحمي نفسها بقوة الإكراه فقط مثلما مر معنا، بل أن اللغة تدعي الحق في شرعية وجودها النابض بالحياة ... فاللغة كمؤسسة اجتماعية ذات شخصية اعتبارية تعاقب منتهكيها بالتوبيخ تارة والإذلال طورا آخر... فالطفل الأجنبي الذي تعلم لغة غير لغته الأم قد يستمر في ارتكاب الأخطاء في لغة الكلام أمام أصحابها. فهو لا يختلف كثيرا عن ذاك القروي الذي يحمل

---

bernstein, B (1965) a socio – linguistic approach to social learning, in goule, j (ed) penguin, survey of the social sciences, (penguin books), pp. 145 ff.

نبرة أو لحنا لغويا من منطقته، أو ذاك المجند الشاب الذي يفتقد تقاليد اللباقة اللغوية مع مرؤوسيه أو حتى ذلك الطليعي من النخبة المثقفة الذي يرتعش أمام كاميرا التلفزيون خوفا من ارتكابه أخطاء لغوية، حيث يشعر كل واحد منهم بالغربة عن المجتمع "Social Isolation" هذا ما يؤول إلى القول: أن اللغة وصناعتها أبعد ما تكون نقلا للفكر فقط، فهي تعبر "Express" وتنقل "Transmit" وتتواصل "Communicate" مع الآخرين وتفضي إلى معان "Meanings" تنبض بالحياة. فهؤلاء المعذبون،شئنا أم أبينا، كلهم يشعرون بمعاناة وجودية ذات صبغة أخلاقية تتطلب منا أن نعيد لهم كرامتهم باعتبارهم، بشر لهم لغتهم فإنهم يخسرون مكانتهم في المجتمع، ولا يقتصر ذلك على العامة من الناس، بل يتعداهم إلى ذوي الأمر فيهم. فأكثر القادة والأمراء وحتى – الرؤساء – في العالم لا يجيدون لغتهم أو غيرها ... فقد أوردت وسائل الإعلام البريطانية سنة (1981) القصور اللغوي في إنجليزية الأمير "تشارلز" ولي عهد التاج البريطاني وأمير مقاطعة ويلز "Wales" التي يتحدث سكانها لغة "ولشية" "Welsh" تختلف تماما عن اللغة الإنجليزية وهذا التنبيه للأمير بتحسين مستواه اللغوي لأنه سيصبح في المستقبل الملك والرئيس الشرفي للكومنولث "commonwealth" وأنت تتابع على المباشر الندوات الصحفية للرئيس الأمريكي الحالي "جورج بوش الابن" الذي ينطق مصطلحات بصورة عفوية تثير استهجان مواطنيه قبل أولئك المعنيين بها مباشرة فقد استخدم مفهوم "Crusades" والتي تعني "الحروب الصليبية" في حربه على أفغانستان سنة 2001 أثار هذا المصطلح التاريخي "مشاعر المسلمين" مما حتم على هذا الرئيس "العفوي" في حديثه الاعتذار واعتبر ذلك "زلة لسان". بالمقابل تجند رجال الدين المسيحي والإسلامي

على حد سواء ووظفوا هذا المصطلح في قوالب روحية واستنفروا قواعدهم... وتستمر زلات لسان هذا الرئيس لأقوى دولة في العالم باستمرار وتثير الخلف في أوساط المجتمع الأمريكي والدولي على حد سواء.

الخاصية الخامسة : التأريخانية "Historicity"

تتحدد اللغة بوقائع حدثت ومازالت تحدث، وهذا معناه أنها وقائع تاريخية أيضا لها إطارها وتصوراتها ومرجعيتها الثقافية التاريخية. فاللغة العربية لها تاريخ[1] في هذه المنطقة أو تلك فنسبتها إلى الوسط التاريخي الذي ظهرت فيه وجدناها طبيعية وضرورية أيضا. فاللغة مرتبطة بالجماعة، وهي موجودة قبل وجود الفرد، فالفرد مثلما مر معنا يولد دون لغة ثم يبدأ في اكتسابها من الجماعة الأولية باعتبارها تراثا جماعيا، وليس له في هذا التراث المشترك من سبيل أو اختيار سوى مسايرتها والانخراط فيها بقوة مع بقية الشركاء والتفاعل معهم فالمتحدث باللغة العربية يرددها دون أن يعرف تجارب السابقين من الأجداد العرب العاربة أو المستعربة، ودون الحديث عن مساهمات كل من الأقوام الإسلامية ودورهم في تنميتها وإثرائها من ثقافة شعبية وفنون وشعر ملحون... فاللغة إذا سيل جارف يعبر الزمن (التاريخ) وأن من يركب يمه لمدة ما قد تطول، أو أولئك الذين يقعون بمحاذاة شواطئه، لا يتورعون عن قذف بعض الشوائب (غثاء) فيه، فهذه الشوائب غالبا تترسب في القاع أو يقع تحللها رأسا. وقد تتجمع هنا وهناك

---

1. لمعرفة معنى "العرب" ومن هم وما قيل عنهم أنظر: عمر رضا كحالة مؤسسة الرسالة ط I بيروت لبنان 1974.
وعن تأثير العرب في الحضارة الإنسانية.
أنظر: عباس محمود العقاد : "أثر العرب في الحضارة الأوربية"، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر 1964.

بطريقة أو بأخرى، حيث يقع صرفها جميعا بعيدا لمدة تزيد أو تقصر، وعادة ينتهي بها المطاف في محيط النسيان...

نقاش :

نتفق مع مصادرة "كارل كروس" حول اللغة ومدى تحكمها في الحياة الاجتماعية، والواقع أنه توجد عدة لغات، بالإضافة إلى عدد هائل من الناطقين بها، وهناك عدد من المؤسسات المجتمعية القاعدية تؤكد وجود حقائق عن اللغة لا تظهرها سواها من الوظائف، أو هي لا تظهرها بذات القوة والموضوعية، فهناك لغة الانتخاب والمراسم ومفردات وتعبيرات مستعملة في السلم والحرب والسياسة والاجتماع والفكر والعلم الخ. هذا أمر بديهي عند مقارنة لغات الثقافات الوطنية، فالعالم الناطق باللغة الإنجليزية يختلف جذريا عن العالم الناطق بالفرنسية، ويختلف عن ذاك الناطق بالعربية أو الصينية أو غيرها... فعلماء اللغويات والتاريخ وعلماء الانثروبولوجيا الثقافية تحملوا كثيرا عبء اللغة في محاولة منهم لتبيان الفروقات بين هذه اللغات، غير أن علماء الاجتماع معنيون أيضا بذلك في تحليلاتهم السوسيولوجية. وتبدو هذه الفروق واضحة في العالم "المحيط" حسب مقولة "Wittgenstein" إن لغتي تحدد بدقة معنى عالمي لكن كيف ولماذا" ؟

إن غالبية الأمم تعتز بلغتها، وتريد تنميتها بكل الوسائل المتاحة، غير أن اللغة تنفصل عن المجتمع وتتأثر بما يحدث فيه؛ فعلى مستوى الجامعة مثلا يحاول الأستاذ جاهدا تصويب الاختلالات اللغوية في البنية الفكرية للطالب الجامعي، من خلال الخبرات لتي تراكمت لديه عبر السنين وتمثلت أساسا في اهتزازات هذه البنية التي هي، حجر الأساس، في التحصيل

المعرفي والتناغم الاجتماعي. ولقد يأتي الطالب إلى الجامعة ولم يتلق تدريبا كافيا عن مميزات الفكر العلمي والعلم وعلى وجه الخصوص، مفتقدا الدقة عندما يعبر لمطابقة فكرة أو رأي مع الحقيقة أو الواقع والتحرر من الخطإ وتسيطر عليه آفة الذاتية ويبالغ في تقدير ذاته كطالب متميز دون البرهان على ذلك... وهو يفسح مجالا واسعا للتحيز الثقافي وتراه يستعجل الحكم على الأمور قبل الوقوف تماما على حقيقتها نتيجة لخبراته التعلمية أو لتجاربه الشخصية السابقة وما تتركه الأحداث خاصة، السياسية منها، من رواسب في شخصيته وشحنه بشحنات انفعالية (انفعالات ذاتية، غالبا تتسبب له الوقوع في الخطإ عند الحكم).

فكلما حاول الأستاذ مراجعة ما كتبه الطالب على ورقة الامتحان أو إعداد مذكرة تخرج أو حتى عند القيام بكتابة أطروحة في الدراسات العليا كثيرا ما نجد المترشح اجتراريا في عقله، وكأنه يتحدث عن كلام حرام قوله يحاول تجنبه أو تقنيعه بصورة أو بأخرى فالطالب الجامعي إذن يعكس البنية الذهنية المتخلفة بحيث يصعب محاصرتها وعلاجها على المديين القصير والمتوسط. فالطالب بحاجة ماسة إلى تعلم الدقة واجتناب الذاتية، والتحلي بالنزاهة العلمية وبالتنظيم (راجع خير الله عصار: 1993 ص: 37-53).

تلك هي نقاط قابلة للحوار والنقاش، لكن لا يسعنا سوى التوكيد على أن موضوع علم اللغة الوحيد والصحيح هو اللغة معتبرة في ذاتها ومن أجل ذاتها كما يقول (F. De SASSURE : 1949, P 317) ولكننا كناطقين بالعربية التي وسعت كلام الله حيث قال حافظ إبراهيم على لسانها :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنميق أسماء لمخترعات؟

نتعرض اليوم إلى امتحان عسير حد المعاناة الوجودية، فالصورة المثلى والناصعة للعربية في ترويضها ومن ثم ترشيدها للعالم لم تكن كذلك في تصورات ومواقف الآخر/العدو أو من يرعى مصالحه في الداخل ... وتلك هي المعضلة التي مازالت قائمة بين دعاة الحداثة والأصالة في بلداننا[1] فهل

1. لا أحد ينكر ما للاستعمار الاستيطاني من تأثير مدمر للإيكولوجية الاجتماعية – اللغوية وما يحدثه من واقع "فوضى" ينال من بنية اللغة المغزوة مطعنا ... ولقد قبلت النخبة المفرنسة التي تحالفت مع الثورات التحريرية في بلدان المغرب العربي، اللغة الفرنسية" واعتبرتها مكسبا أو غنيمة حرب Booty (Butin) قابلة للاستخدام/عامل حامل للتنمية الاقتصادية في المحيطين القومي والدولي وتوازيا مع ذلك، ترتفع أصوات في فرنسا تندد بالنظم التقليدية في المجتمع المغاربي الذي يجسد الثقافة الإسلامية "المتخلفة" والمقاومة للاختراق الثقافي الغربي في الوقت ذاته... والمطلوب فصم عراها من الداخل وتدجينها لتغدو قابلة للتنمية الاقتصادية وما يترافق معها من أساليب وقيم غربية... ويكشف الطرف الحاضر/الغائب (الاستعمار) عن استنزافه "للذكاء المغاربي" ويجني ثماره دون تكاليف تذكر ... فبمجرد اندلاع أعمال العنف السياسي في الجزائر مثلا، بداية التسعينات من القرن المنصرم شجعت السلطات الفرنسية النخبة الجزائرية "المفرنسة" والتي – استنزف فيها الشعب الجزائري موارده المحدودة غداة الاستقلال على الهجرة إليها .... وتخلى هؤلاء "التحديثيون" عن شعبهم في أحلك ظروفه... وود كثير منهم الموت خارج الوطن، بل هناك من أوصى بدفن رفاته/حرقها في فرنسا الأم... فتماهي "Identification" هؤلاء بقاهرهم التاريخي ألغى ظلم التاريخ لشعبهم بالتمكين لهم، لجماعة، استيعابا أو تمثلا في فضاءات الثقافة الفرنسية والإعجاب بكائناتها الميتافيزيقية... وهو ما جعلهم يكرهون ذاتهم الأصلية (العربية) وحذا حذوهم في الهجرة آلاف من الناس، حيث بدا هؤلاء البسطاء ينبشون وثائق الماضي الاستعماري للاستظهار بها، طلبا لحق في الأرض أو الدم أو العمالة لفرنسا وشهدت هذه الفترة ومازلنا، نشاهد، تلك الطوابير والمحاولات المستجدية لهؤلاء كي يغدوا "فرنسيسا" أو قريبين منهم أمام قنصليات ومكاتب الهجرة والضمان الاجتماعي الفرنسية...

لكن الملفت للانتباه أن النشطاء منهم رفعوا دعاوى أمام المحكمة الأوروبية في "سترازبوغ" ضد حكومتهم "الجزائرية" عندما باشرت هذه الأخيرة بتطبيق قانون تعميم استعمال اللغة العربية النموذجية "Standard" في الدوائر الرسمية.. وحكمت المحكمة لصالحهم وكان لهم ما ارادوا.. والغائب عن فطاحل اللغة الفرنسية أن مصطلح "التعريب" "Arabisation" في حد ذاته، مفهوم غربي مبتذل لتوجه سياسي لا يعدو كونه برنامجا للتحديث اللغوي "Linguistic modernization" يعنى بتكييف اللغة العربية وفق مقتضيات إجرائية مصبوبة في قوالب ومعايير غربية. فضلا عن ذلك، صرح هؤلاء "المستنيرون" المتمردون أن القانون المشار إليه آنفا هو

تستطيع لغتنا الجميلة رفع التحدي؟ وما هو الدور الذي يلعبه الاتصال الرمزي، ولاسيما اللغة في السلوك الماكرو – سوسيولوجي؟ وهل اللغة العربية لسان حال الثقافة العربية قادرة على تحرير ساحتها مما علق بها من شوائب في هذا الزمن الطاغي في القدرات العلمية والتحولات الاجتماعية – الثقافية النوعية؟ وهل أن المثقف العربي استعد فعلا للمواجهة والتحدي؟ تلك هي أسئلة يصعب الإحاطة بجميع أبعادها، فضلا عن أننا – كباحثين – لم ندرس، جديا، الثقافة العربية والإسلامية ولم نستعن بالتاريخ الثقافي لفهم وتفسير ظاهرة اللغة العربية، باعتبارها لغة حية، وربطها بالسياق الثقافي العام.

تلك هي، في نظرنا، النظرة القاصرة والرؤى المبتسرة لديناميات اللغة العربية وما تتمتع به من معاني القوة الدافعة لمستعمليها وما تنشده من غاية مشروعة... وهذا يتطلب :

وصمة عار "Stigmatization" تستوجب من العالم المتحضر تخفيف منابع الخزي والتخلف (وصم العربية Labeling)..

راجع :

– جمال العبيدي : التعريب والتناقضات الاجتماعية في الجزائر، في سليمان الرياشي وآخرين : الأزمة الجزائرية : الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. سلسلة كتب المستقبل العربي. إعداد مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان 1996.

– جريدة الوحدة، الجزائر، العدد (566) 1992.

- Ibrahim Muhammad, H (1989) Communicating In Arabic : Problems And Prospects. In Coulmas, F(ed) Language Adaptation. Cambridge, New York, Cambridge University press. Pp 39-59.

- Fitouri E (1983) Biculturisme, Bilinguisme et Education, Neuchàtel De la chauxet Niestlé.

- Ngùgi, W.T (1983) Biculturisme, Bilinguisme et Education. Neuchatel De la Chauxet Literature. James Currey. London. U.K.

1. بذل محاولة جادة في فهم الواقع الاجتماعي الثقافي لهذه الأمة وكل ما يمكن الخروج به من إعادة قراءة وفهم للتاريخ الاجتماعي بكل أبعاده (منهج الفكر).

2. محاولة تفسير اللغة العربية وحيويتها تفسيرا علميا من منطلق أنها ظاهرة اجتماعية.

3. إظهار العلاقة الواضحة بين المنحى التفصيلي (البناء النظري) والمنطلقات الأيديولوجية للتعبير عن التحيز الثقافي "Cultural Bias" للعروبة والإسلام (المنظور الثقافي) للتدليل على جوهر تلك الحركات الموحدة...

لنحاول الآن توضيح العلاقة بين اللغة والتعاليم القرآنية بالنسبة لتطوير مكونات الشخصية العلمية والمؤمنة التي نعتبرها الهدف الأسمى في الثقافة العربية الإسلامية من جهة، وتلاقيها مع نمط وحدة متكاملة من القوى تقرر السلوك الاجتماعي والفردي من جهة أخرى ويتضح ذلك من خلال الشكل رقم 1 المبين لعالم المخلوقات أن القرآن الكريم هو:

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُون﴾ (سورة فصلت: الآية 3)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونْ﴾ (سورة يوسف : الآية 2)

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيد﴾ (سورة طه: الآية: 113)

وعربيته تلك تفصح عن مضامين للتمركز الثقافي والتركيز على الجانب النشوئي والتاريخي للدين الإسلامي عند أمة العرب دون كراهية اتجاه الأمم الأخرى التي تختلف عنهم... وجاء القرآن مصاغا بتعابير

محكمة حتى يتمكن السامع من تصور المضمون تصورا واضحا ودقيقا، تسوغ أغراضا محددة وتصفها، وتميزها بفروق لغوية هي – على جانب كبير – من الأهمية في الوضع والوجوه، ما يجعلها مستعصية من حيث دقة أبعادها اللغوية.

ويتحدى القرآن الكريم كل المتحذلقين "Pedantic" للإتيان ولو بسورة منه حيث يجزم :

﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلىَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سورة الإسراء: الآية 88)

فهذا الخطاب الديني/اللغوي هو عبارة عن بناء هندسي مدعم بمقادير، وفق مقاييس موزونة لغويا، وبحاجة إلى برهان لإثبات صحة/عدم صحة قوام شخصية الإنسان المسلم (نمط الشخصية القاعدية الثقافية). وبذلك تغدو الآيات هي الأخرى إحدى صنوف العلم تجمعت مكونات بنائها بمقدار ونفذت وفق مقاييس لغوية مضبوطة...أي أن الخطاب التبليغي تمسك بخصائص اللغة العربية في الإسناد وفي الوجوه والفروق والموضع حسب المقاصد، وما يتطابق معها، وصفا وتسويغا، لكل من المسند والمسند إليه في هذه اللغة الخالدة بإعجاز قرآنها "Miraculos Aspect" (انظر: عبد القادر الجرجاني: 1991).

وغدت بذلك اللغة العربية ناقلة أدلة عقلية مشفوعة بشواهد واقعية، تعين على فهم المقاصد وتساعد على تقريب وجهات النظر وتكوين ذهنية تحليلية قادرة على الاستيعاب، بارعة في النقد، حاذقة في الاستنتاج ... ذاك ما استدعى قيام معركة عنيفة بين علماء جواز ترجمة القرآن من جهة، وبين

أولئك العلماء المنادين بعدم جوازها من جهة أخرى. وهي خصومة محورها عدم ضبط المدلولات وتحديدها بدقة. لكن القرآن يضع دليلا منهجيا يمكن الناس من التساؤل عن الوجود وكيفية تفسير هذا الوجود؟ وتتحدد موضوعية الإنسان المسلم لتجعله عاقلا (حاملا للغة) ينازع فيها الحق بالحق من أجل الحق وعملته في ذلك هو تلك الوحدات (الكلمات) المحددة في ضبط قضية ما، أو الحكم عليها. وهي عبارة عن معارف "Knowledge" تضم مجموعة من المعاني والمعتقدات والأحكام والتصورات الفكرية والمفاهيم حصلت لدى الإنسان العاقل (الناطق) نتيجة محاولاته المتكررة لفهم واستفهام الظواهر وما يحيط بها من أشياء. فمن المعارف ما يرجع إلى وظائف العقل مثل: التذكر والتخيل والحكم عند السرد أو الإيراد للقصص الديني، من خلال النظم الخارق لتلك الحوارات الهادئة (اللغوية) في مناظرات وسجالات الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام. وهي أخبار (معرفة) تتوجه إلى العقل وتطالبه بالتفكر والتدبر والتذكر. فضلا عن ذلك، هناك معارف ترجع إلى قوى خفية تسمى بالغريزة "Instinct" أحيانا التي يشترك فيها جميع بني البشر والحيوان وما يحركها من دافع حيوي لإشباع الحاجة وحفظ النوع "Survival" وهي حالة فطرية وعمياء تجهل كل الجهل الغرض الذي تسعى لتحقيقه. وتبدو بذلك مستقلة عن الخبرات والتجارب السابقة واللاحقة. ومن المعرفة ما يسمى بالإدراك الحسي "perception" المعتمد أصلا على الاحساسات المباشرة. وهناك معارف مرتبطة بالحدس "Intuition" عندما تكون الذات المدركة لا تعتمد الخبرات والتجارب السابقة في التحصيل لترقي إلى مرتبة المعارف الإلهامية "Charismatic" والتي – تفيد بان العقل وحده – يتحلى بقوى خارقة وصفات نادرة وقدرات روحية ذات الخصائص الذاتية

من تعقل وإرادة وحرية ... غير أن القرآن يغلب الطابع العقلي ويناهض الطابع الغريزي في التفكير، حيث ورد في القرآن الكريم :

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الروم : الآية 8)

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

(سورة الفرقان: الآية 13)

"وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاس وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُون"

(سورة العنكبوت: الآية 43)

ويبقى المنهج العقلي الديدن الدؤوب لكل السلوك الذي يأتي به كل مسلم يقوم على التفكير والتدبر والتذكر...

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر﴾ (سورة الكهف: الآية 29)

ويتولى الشكل التالي صورة المجتمع الإسلامي – كمقولة عامة – بغض النظر عن واقعها الحضاري كتشكيل اجتماعي واقتصادي حسي.

فالموقف الفلسفي هنا موقف مثالي يرتبط بعدة أبعاد توليفية ويمثل القرآن (كتاب الله) الإطار المرجعي "Frame Of Reference" لعالم الوجود: الله، الطبيعة، الإنسان، المجتمع، حيث يستشهد علماء اللغة بالقرآن ويحتجون بكلماته ودلالاتها اللغوية وما يصدره العقل من ردود أفعال تناسب موضوعات الوجود ويجعلونه ميزانا للقياس... وتقوم "اللغة العربية" بوظيفة السيالة العصبية التي تتضمن عددا من الازدواجيات الأساسية التي تضفي على فلسفة الحياة الإسلامية مزيدا من التعقيد، وفي الوقت ذاته مزيدا من

الأهمية. ويتخذ إرجاع الأثر "Feed-back" هذا منحنى التواصل الإيجابي والسلبي فالمعلومات (كلمات الله) التي يبلغها الخطاب الديني يبعث بها إلى كل من العقل ويختبر مدى قدرته (فعاليته) على فهم الواقع الذي يفسرها وفقا لأوضاعه وظروفه وإمكاناته من ناحية، وتبعا لنمط علاقته بالقرآن، إيمانا أو شركا، من ناحية أخرى. إن ما يتلقاه الإنسان من لغة القرآن له ارتباطات قبلية وأخرى بعدية وتتمفصل مع الأبعاد المثبتة في المخطط ويتساوق معها، إيجابيا، من مسوغة أن الله ﷻ هو الذي ركب الإنسان على هذه الصورة ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (سورة طه: الآية 50) وقد يكون التساوق معها سلبيا عندما يكون رجعها مطالبا بالتعديل أو التهذيب ضمن صيغة (عدل، صحح، قوم...) لما تتمتع به النفس البشرية من نوازع الخير والشر ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (سورة الشمس: الآية 8).

وهنا تجدر ملاحظة أن السلبية لا تتضمن إيحاءات غير مطلوبة، كما يدل السياق اللغوي لها بل على العكس من ذلك فإنها لا تختلف بالنتيجة النهائية عن التغذية الإيجابية حيث يتضافران معا لتحقيق مزيد من الضبط والفعالية في صقل شخصية الإنسان المسلم لكي ينعم بالسكينة والاطمئنان بعيدا عن كل مثيرات الإيذاء والتوتر... فعندما نستمع إلى ترتيل القرآن أو الإنشاد نلمس وجود ترتيب لتتابع الأصوات، والسجع والفواصل بحيث تنفذ هذه الكلمات إلى النفس دون استئذان... وتفصح كلمات الله عن ديناميات التغيير نحو الأفضل والخير وما تطالب به من إجراءات للتغيير كي يتحقق التوازن في الأمن والسلام. وبذلك يكون الدين لله وحده (تحقيق فعاليته) أي

بواسطة اللغة يتلقى الناس ذاك الخطاب القرآني الموجه إلى الأمر المستعلي وما يصدره من النهي المقتدر ومن الإيجاز المقتصد إنباتا لقول خالق الكون وتساوقه مع ضرب الأمثال ومع أساليب الترغيب والترهيب والحجاج والتبيين وما سوى ذلك... ليتخذ ثلاث صور هي: الشرك "Polytheism" وما يتصل به من إدراك مهزوز لقوة الخالق وحفظ النوع "Survival" وما يقترن به من قوة غريزية، وأخيرا الإيمان "Faith" المؤسس أصلا على الحدس والإلهام (العلم).

وهي أبعاد مشتقة جميعها من الواقع الاجتماعي، حيث يتوزع الناس بين طائفتي الشرك والإيمان عقيديا، وبين الخير والشر أخلاقيا، ولا يوجد بينهما مكان وسط (ظنيا).

وبناء عليه، تعبر العربية في خطابها القرآني عن شمولية خارقة " Nom reflexive Totalitarism –" يخضع لها الفرد المسلم، أو ذاك الناطق بالعربية أو أولئك المرددين للغة المسلمين، عن اقتناع أو خوف من قبيل تحية أو قسم أو آداب الحديث أو السلوك عند القبطي في المجتمع المصري أو المسيحي العربي في بلاد الشام مثلا ... تلك هي سيطرة صارمة (ضبط اجتماعي) نجمت عن الرقابة الممارسة في احترام ثوابت العقيدة الإسلامية حتى – لو كانوا غير مسلمين – هب أننا نسأل مسيحيا عربيا في تقديره لشجاعة شارلمان وشجاعة خالد بن الوليد لفضل إلى قلبه خالد بن الوليد لتوكيد ذاته العربية وهو موقف يتشارك فيه العرب المسيحيون والمسلمون وكذلك الشعوب الإسلامية في ترديدهم للصلوات والأدعية أو عند التحية أو غيرها من آداب السلوك الإسلامي، وهذا يقود إلى القول بأن اللغة العربية

حية دوما في وجدان وأذهان العرب والمسلمين وتعبر عن هويتهم الحضارية والثقافية في الحرب والسلم والحياة والموت... وهذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الخطاب القرآني بكلماته مبني على النظم الدقيق ويوضح أبعادا ويخفي وراءه أخرى هي غاية في الإبهام من قبيل حم، ويس... إذ تبدو صورا لنماذج من "الشيفرا" "التعمية" تتطلب من الدارسين لعلوم الدين استخراج المعنى (تفكيك هذه الرموز) لتغدو واضحة، إنها إيحاءات تتميز بالإعجاز، وتتمتع الأبعاد اللغوية بالضبط الدقيق للاستعارة والكناية وأنواع التشبيه والمجاز والتجريد وكل ما تستطيع اللغة العربية الحية بيان أغراضه المختلفة، وسبر غور دينامياتها مثلما هو موضح في الشكل رقم 2 للتعبير عن الحياة الاجتماعية الفوارة "Social Effervescence" ومتطلباتها النفس – البيولوجية والاجتماعية والمعرفية.

وبلغة أكثر دقة، يلاحظ تداخل اللغوي مع الديني من جهة وامتزاج العاطفة الوطنية "العروبة بالعاطفة الدينية في شؤون السياسة العامة من جهة أخرى[1] وتتعدد الوظائف الاجتماعية للغة: فهي وسيلة للمبادلة حيث يتساوق أفراد المجتمع بدلالاتها اللغوية في حياتهم الاجتماعية بأوسع المعاني وأضيقها وتساهم اللغة بمفرداتها وأحكامها ضبط ميزان لقياس قيم الأحكام على الأشياء وعلى الذات والآخرين فهي ذاك المعادل الحي. وبواسطة اللغة يحصل الفرد على معظم متطلباته وضروراته عند التخاطب

---

1. انظر :

- Arkoun, M. (1991) L'État au Magreb.Sous la Direction de C, et Y, la Coste, Le Fennec. Casablanca. Maroc.

- Ben Meziane Thalbi (2000) L'identité au Magreb. L'errance. Casbah Edition, Alger.

والتواصل مع الآخرين بما يفي إشباع حاجاته المادية والمعنوية، وينظر كذلك إلى اللغة باعتبارها وسيلة للوفاء، إذ تستخدم المفردات لترجمة ما يصدر عن الشعور واللاشعور في صميم الفكر والمجتمع... فضلاُ عن ذلك فاللغة ناقلة للتراث الحضاري المشترك عبر الأجيال وتواصلها. وتغدو بذلك اللغة "كومنولثا" ثروة لغوية مشتركة، تكتنز إبداعاتها وأسرار وجودها واستمرار حيويتها عبر المصحف ذي القيم الثابتة... وبذلك تعتبر اللغة العربية مصدرا للادخار لا ينضب ولا يتلف، ومستودعا ضخما للقيم المادية والروحية، ومباشرتها للرقابة (الضبط) على جميع مناحي الحياة الاجتماعية وتؤثر في طبيعة العلاقات الاجتماعية الواعية وغير الواعية وتضبطها...

باختصار تمارس اللغة العربية الحية ضبطا اجتماعيا لأنها مؤيدة بتعاليم دين حنيف باعتباره نظرية تحكمية تبقي على الأطر المرجعية لهذه العقيدة وتعلنه علنا في جو من الإجماع "Condenses" المفروض بحكم الولادة أو بالتعايش "Co – habitation" وتفرض إكراها "Coercion" على القول والفعل ليمس كل أفراد المجتمع المسلم. أي أن اللغة العربية ضرورة اجتماعية لها أسبابها لجعلها حية ليوم الدين. فالتكريم والتخليد لهذه اللغة جعلاها وسيلة اتصالية وسيطة "Mediator" تبدد الغموض وتفض النزاعات بين العقل والوحي لينصرف الناس لعملهم الحضاري وعمارة الأرض والتمكين لهم فيها[1]... ومهما بذلت من جهود فإن الإنسان يبقى عاجزا عن

1. هناك مقاربة حديثة تفيد بترابط وثيق بين قيمة اللغة والأداءات الاقتصادية للمجتمعات اللغوية بشكل أوثق مما نتصور، بحيث أن نظرية الاقتصاد يمكن أن تفسر نظرية اللغة وتتشكل الخريطة اللغوية للعالم بدلالة هذا الترابط الوثيق. للمزيد راجع :

تفسير خلود هذه اللغة... وهو موقف يقترب مع ما ذهب إليه ليفي شتروس (1962) وهو يعالج ظاهرة اللغة عند الإنسان وقد استخلص شاليمو (1974) آراءه كالتالي:

"Les expressions culturelles peuvent être ramenées à" un langage" (une structure) qui procède d'une syntaxe opérant au niveau de l'inconscient : Ainsi dans le système de parenté qui organise toute civilisation : les femmes jouent le rôle des mots dans la langue : elles ne sont que les éléments d'un ensemble significatif" (Chalumeau, J. L 1971, p, 82).

يمكن تحويل المظاهر الثقافية والتعبير عنها بأسلوب لغوي يستعمل فيه النظم (التركيب المنطقي) الصادر أصلا عن العقل الباطن لدى الإنسان العاقل (الناطق). وتلك صورة تتناظر مع واقع القرابة التي تنتظم بها كل حضارة، حيث تشكل النسوة وحدات "للتبادل" "Exchange" مثلما هو الحال المنوط بدور الكلمات ووظائفها في بناء الإسناد والمسند إليه".

اللغة العربية جوهر الحركات الموحدة : "Arabic as Pan movement"

تضافرت مجموعة متشابكة من الاشكالات الفكرية والحقوقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وأسهمت في نشأة جامعة الدول العربية سنة (1945) لمجابهة الاستعمار والتيقظ لاحتمالات عودته من جديد...وكانت الأمة العربية أولى الأمم أن تنشأ فيها الوطنية بهذا المعنى الحديث قبل نشأتها غداة الثورة الفرنسية، لأنها تنطلق من مقولة أن الدين لله والوطن للجميع.

Coulmas F. (1992) : *"Language and Economy"*, Black Well. Oxford U.K, and Cambrige U.S.A.

(الأطروحات الحديثة : القومية الناصرية ولحزب البعث). غير أن هذه الأطروحات القومية تعرضت لامتحانات عسيرة رغم نجاحها في استقطاب الشارع العربي، وشروعها في برامج الإصلاح الاجتماعي (التنمية) وخوض حروب الاستنزاف مع أعدائها، وما ترتب عن ذلك من استنزاف لقدراتها خلال الخمسين عاما الماضية.

أما على المستوى الإسلامي، فقد ولد تنظيم دولي (منظمة المؤتمر الإسلامي سنة 1969) وغدا أكبر تنظيم سياسي بعد الأمم المتحدة. وفضلا عن ذلك، برزت في العالمين العربي والإسلامي ظاهرة الاضطرابات الاجتماعية التي تؤطرها حركات اجتماعية جديدة، لم تخبر تحدياتها السلطات المحلية أو الوطنية لتتخذ أبعادا دولية. يلاحظ هنا ذاك التداخل بين الدائرتين القومية (العربية) والدائرة الروحية (الإسلامية) وعلى أية حال ما يهم هو أن هذه التنظيمات أكانت، قومية أم روحية، ذات طابع رسمي أو مواز وإن تباينت ـ منطلقاتها الفكرية والنظرية الإيدلوجية ـ إلا أنها تشترك في تجربتي اللغة والممارسة للشعائر الإسلامية من جهة واحتكاكها بالغرب وحضارته عن طريق الاستعمار أو بحداثته المتمثلة في الاختراعات المادية من جهة أخرى. ولقد ود الاستعمار أن يكون الإنسان المسلم بغير دين سوى دين المعدات والوسائل المادية. لكن هذه الشعوب بنخبتها فهمت بعض الحقائق وأدركت ما يوجد من علاقات سببية لتخلفها واستعمارها. وصمد الإسلام في هذه الأوطان المستعمرة وحاولت مختلف النخب تحميض (Emulsion) أو استنساخ النظم الاجتماعية الغربية وجاءت في شكل تجارب للتحديث (Modernization) كتطبيقات الليبرالية أو الاشتراكية أو تلك

التوجهات التوفيقية تارة، والتلفيقية طورا آخر. واجتهد المجتهدون بتعريب المصطلحات وتعلم الناس بعض ما لا يعلمونه عن الطبيعة والإنسان وسبل تكريمه ومساواة أفراده، وطرق تحصينه ضد التحقير أو العدوان عليه أو ذوبانه في أنظمة اجتماعية ترفضها الطبيعة البشرية من جهة، وتطابقها أو تقاطعها أو تقابلها أو تناقضها مع خصائص شخصيته القاعدية الثقافية من جهة أخرى.

لقد استبشر الناس خيرا بالحداثة وبقدراتها على تسخير الطبيعة لصالح الإنسان، لكن عند نقلها، ومحاولة زرعها في تربة هذه الأوطان الناشئة تحولت إلى ثعبان بيد الساحر...فبدلا من ترقية نوعية الحياة " Quality of life" في هذه المجتمعات المختلفة غدت هذه الحداثة عبئا ثقيلا على كل المعنيين بالتغيير...... حيث لم يكشف بعد لا عن التصورات، الحقيقية أو الوهمية، لهذه الظاهرة، من ناحية، ولا على مستوى رضى المعنيين بها في هذه المجتمعات من ناحية أخرى. فالتشويه المقصود والغير مقصود للتحديث ثور معظم فعاليات هذه المجتمعات على ذاتها وعلى العلم المحيط...

وفي غمرة الفوران هذا استفاق الناس بل تفاجؤا بظاهرة جديدة هي العولمة الثقافية "Cultural globalization" التي لم يستعدوا لها حسبنا أن نبين بعضا من مظاهرها وممارساتها، حصرا على بلاد المسلمين. فعند تحليل نطاق التأثير المصحوب بالضغط على سيادة هذه الأوطان، والذي يكمن أساسا في مشكلتين :

– الأولى : هي مبلغ التأثير الذي تستطيع هذه المركزية الثقافية "Cultural Centrality" ممارسته على عملية صنع القرارات وعلى صانعي القرارات أنفسهم في هذه الأوطان الحبلى بالمشاكل.

– والثانية : هي محاولات استخدام هذا التأثير وكيفية توجيهه لتغليب مصالح الأمم القوية وما يترتب عنها من آثار، والتي تفيد حصرا بإذلال العرب والمسلمين وتدجينهم من خلال :

1. سيطرة القانون الدولي الجديد الذي قوامه نثر وتوزيع الثروة والقوة بشكل غير متوازن، ويفصح بالقول والفعل على تعطشه للظلم والعدوان على هذه الأوطان الآمنة.

2. التبشير بالمنافع المباشرة وغير المباشرة (على الأمد الطويل) لهذا النظام الدولي الجديد، وما يرتبط به من موضوعية الحياة الاجتماعية التي تمتد آثارها إلى مختلف الأنشطة والميادين المجتمعة الأخرى من سياسة وسلوك ديني وأخلاقي، إلخ..

فالتحديث المادي وتساوقه مع المذاهب لمست وجدان شرائح اجتماعية محدودة، وهو ما نبه الغالبية إلى فهم متجذر للوطنية والدين وفهم العلاقة بين الفرد وبين خالقه، والعلاقة بين الفرد والدولة، والعلاقة بين التنظيمات الدولية وغيرها من التنظيمات.

باختصار يقر القرآن الكريم أن المسلمين اخوة ومبادئهم ومنافعهم وتطلعاتهم وقلوبهم واحدة... وان حال المسلمين اليوم وأوطانهم لا يرقى إلى هذا التطابق وهو ما قد تنبأ به رسول الله ﷺ فقد قال لأصحابه يوما : "كيف

بكم إذا اجتمع عليكم بنو الأصفر[1] اجتماع الأكلة على القصاع؟ فقال عمر رضي الله عنه : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله أم من كثرة؟ قال: بل من كثرة ولكنكم غثاء[2] كغثاء السيل قد أوهن قلوبكم حب الدنيا" ولرد بني الأصفر (المركزية الغربية بشقيها الأوربي والأمريكي) يتطلب الأمر من أمة الإسلام أن تضع كلمة "الحق" التي اعتادت على سماعها خمس مرات يوميا دليلها والتي – تحيا في السياسة والقانون – إلا إذا وضع صاحبها حياته فيها، وهذه حقيقة سياسية سامية لدى العرب المسلمين وأحرار العالم عامة علماء المسلمين ومفكريهم هو حديث عن "نهضة" الحضارة العربية – الإسلامية.

خلاصة :

تم التركيز على وظيفتين أساسيتين تؤديهما اللغة في الحياة الفكرية للناس. لقد عرضنا للغة باعتبارها وسيلة للإدراك الحسي "Objectification of Reality" يستطيع من خلالها المتكلم أن يعبر "Express" وأن ينقل "transmit" ويتواصل "Communicate" مع الآخرين ويقيم علاقات ذات معاني "Meanings" لما هو محيط به... وجاءت الوظيفة الثانية لتركز على مبدإ التفسير والتسويغ للواقع " The Interpretation, and Justification, of Reality" من منطلق أن اللغة أداة عاكسة للفكر، أو وسيلة لتجسيم الفكر أو التعبير عنه.

تم شرح لخصائص اللغة باعتبارها مؤسسة اجتماعية وما تتميز به من إظهار "Externality" وموضوعية "Objectivity" وقوة إكراه "Coerciveness"

---

1. بنو الأصفر: هم الروم ومن والأهم من الأوربيين.

2. الغثاء : ما يحمله السيل من الهشيم ونحوه مما تحطم وتعفن ولا قيمة له ولا قوة فيه.

وسلطة أخلاقية "Moral Authority" مدرجة جميعها في إطار تطوري دينامي (تاريخاني) "Historicity" وتمت مناقشة مؤسسة اللغة العربية في ضوء الواقع العربي وما تتعرض إليه هذه اللغة من ضغوطات داخلية وأخرى خارجية يصعب محاصرتها وأن التنمية اللغوية لا تكمن في التغريب اللغوي أو التحديث اللغوي بقدر تعليم أبنائها عربية سليمة ولكنها متفتحة على لغات العالم دون استثناء وأن الفكر العربي اللغوي ليس مستقيلا عن هذا التكيف مع ضرورات الحضارة السائدة...

المراجع :

- القرآن الكريم.

- عبد القاهر الجرجاني : "دلائل الإعجاز"، سلسلة الأنيس، موفم للنشر، الجزائر، 1991.

- خير الله عصار: "مدخل إلى قضايا التعلم في العلوم الاجتماعية" الطبعة الأولى، دار طلاس، دمشق، سوريا، 1993.

- Lévi-Strauss, C (1962) : «*la Pensée Sauvage*», Plon, Paris, France.

- Chalumeau J.L, (1974) : «*Où en est la France?*» La pensée en France, Dessarte A. Foucault.

- Gellner E. (1964) : «*Crisis In the Humanities*», Ed. Plon, J-H. Penguin books.

- ولمزيد من المعلومات راجع :

- Bernstein B. (1960) : Languahr and Social class. British language journal of sociology, pp. 217 pf.

- Bernstein B. (1962) : Social class, Linguistic codes and Grammatical Elements " language and speech".

- Gellner f. (1968) Words and Things. Penguin Books, London, U.K .

- Douglas M. (1973) Rules and Meanings, Penguin Books, London, U.K.

- Wilson B. (1970) Eds Rationality. Oxford Basil Blackwell, U.K.

اللسانيات العربية والترجمة

أ. د: عبد الجليل مرتاض

لا أحد منا يشك لحظة في أن الترجمة تعدّ عاملا من عوامل تنمية اللغة وإثرائها وتطويرها تطويرا يجعلها خليقة باستمرار وجودها وذات قدرة حركية وتفاعلية لمواكبة عصرها وفرض نفسها للاستعمال في شتى مجالات التعبير والإعلام والتواصل.

كانت الترجمة منذ عهد بعيد عونا كبيرا على إنماء اللغة العربية وأن العرب قد ترجموا أول ما ترجموا ما لم يكن عندهم معروفا أو واسع المعرفة. "ولم تنطلق الترجمة انطلاقتها الجادة إلا في عهد المنصور الذي شجع المترجمين وأجزل لهم في العطاء، وازدهرت في عهد الرشيد، لكنها لم تبلغ ذروتها إلاّ في عصر المأمون الذي يرجع إليه الفضل في إنشاء دار الحكمة ببغداد واستقدام علماء وباحثين أجانب عن العروبة والدين ليؤجرهم ويغريهم ماديا ومعنويا لترجمة ما كان شائعا من معارف ذلك العصر في الإغريق وبلاد فارس والهند"[1].

---

1. عبد الجليل مرتاض : العربية بين الطبع والتطبيع، ص 163، د.م.ج.1993، الجزائر.

وبفضل عمليات الترجمة المتتالية من لغة أجنبية أضحت اللغة العربية تزخر بمصطلحات علمية غزيرة تجاوبت معها الثقافة العلمية الجديدة في مختلف الحواضر العربية ومراكزها الثقافية التي كانت تمثل الرقي الزاهي في ذلك العهد.

ومما هو جليّ لنا أن اللغة العربية ما كان بوسعها أن تسع تلك المعارف للتعبير عنها بوساطة تلك الثروة المترجمة إليها لو لم تكن مستعدة لاستيعابها وتوظيفها توظيفا يتلاءم مع استعمالها الأجنبي الأصلي، وفي هذا المعنى يقول العلامة نولدكه "إن من الخطإ الشائع أن نظن أن العربية فقيرة لا تصلح لبحث الأمور المعنوية، فعلى العكس يندر أن نجد لغة أخرى كاللغة العربية تصلح لأن تكون وسيلة عن الفلسفة القديمة وأصول حكمة الأولين"[1].

ومما يؤسف له أن هذه الترجمة ما لبثت أن خمدت شيئا فشيئا بعدما استوعب العرب النظريات العلمية القديمة، وكان علينا أن ننتظر عصر النهضة لتنشط الترجمة من جديد، إلا أن هذه الترجمة العصرية لم تنح منحى سابقتها من حيث الأغراض والمواضيع المترجمة، حيث احتفلت احتفالا واسعا بشتى الحقول الأدبية والفنية والعلمية[2].

ومما يحمد للعرب القدماء أنهم فرّقوا منذ الوهلة الأولى تفريقا منهجيا واضحا بين الترجمة، والتعريب، والدخيل معتبرين هذه الأصناف الثلاثة "ليست بأقل أهمية من عوامل الاشتقاق والقياس والنحت والقلب والإبدال في إنماء اللغة العربية"[3].

---

1. محمد عطية الابراشي : الآداب السامية، ص135، ط84/4 دار الحداثة، بيروت.
2. راجع العربية بين الطبع والتطبيع ص165.
3. المرجع نفسه، ص165.

ولعل الإشكالية المطروحة في المصطلحات اللسانية العربية لها جذور خلفية موضوعية،ذلك أن منشأ الدرس اللغوي عند العرب منشأ لا يشك في أصالته إلا قاصر في الموضوع، بمعنى أن المصطلحات التأسيسية في اللسانيات العربية منبثقة من ذات اللغة نفسها، والكل يعلم أن المترجمين العرب القدماء لم يحتفلوا بادئ ذي بدء أي احتفال بترجمة الفنون والآداب وعلوم اللغة، وما ظهر من ترجمات عرضية (ACCIDENTELLE) في كتب غير لغوية لمصطلحات لسانية جاء بعد ازدهار الدرس اللغوي العربي وتطوره واكتمال مصطلحاته.

وممّا هو مقرّب إلى الأذهان أن الترجمة خارج تخصصات علمية وتكنولوجية صِرفٍ أعوص وأحرن، ولذا أقر العلماء والفقهاء منذ القديم أنه لا وجه "لقول من يجيز قراءة القرآن في صلاته بالفارسية، لأن الفارسية ترجمة غير معجزة، وإنما أمر الله –جلّ ثناؤه– بقراءة القرآن العربي المعجز، ولو جازت القراءة بالترجمة الفارسية لكانت كتب التفسير والمصنفات في معاني القرآن باللفظ العربي أولى بجواز الصلاة بها، وهذا لا يقوله أحد"[1].

ومما نعتقده أن المترجم ينبغي ألا يكون أقل ضلاعة وإلماما في اللغة المترجم إليها من معرفته للغة المترجم منها خاصة في المجال الفني والجمالي والأدبي واللساني الذي غالبا ما تقابله ترجمة يضبطها السياق العام والدلالات القريبة أكثر مما تقابله ترجمة حرفية، ولذلك كان FERDINAND DE SAUSSURE فردينانددي سوسور عظيما حين أشار،

1. أحمد بن فارس : الصاحبي في فقة اللغة وسنن العرب في كلامها، ص 62. تحقيق د.مصطفى الشويمي ط: 1963 مؤسسة أ.بدران بيروت.

وهو يتحدث عن "مكانة اللغة في وقائع اللسان" بقوله: "يجب الملاحظة هنا أننا عرّفنا أشياء لا كلمات، هذا وليس لثبوت التمييز من أن يخشى بعض المصطلحات الغامضة التي لا تتطابق بين لغة وأخرى ومن هنا فإن مصطلح SPRACHE في اللغة الألمانية تعني "اللسان" كما تعني "اللغة" وكلمة REDE تطابق إلى حد ما "الكلام" غير أنها تزيد على الكلام المعني الخاص "للخطاب"، وفي اللاتينية تعني كلمة SERMO هي الأخرى"لساناً" و"كلاماً" في حين أن كلمة "LINGUA" تعني اللغة فحسب...إنه ليس هناك من كلمة تنطبق تماما ولا كليا من أحد المفاهيم التي ألمحنا إليها سابقا، وهكذا فإن كل تعريف لكلمة ما باطل، كما أن المنهج الذي ينطلق من الكلمات لتحديد الأشياء لهو خاطئ"[1].

وفي تقديرنا أن الصعوبة الأساسية لا تكمن مبدئيا خلال عملية الترجمة في مدلول واحد له دوال صوتية متعددة كما نجد هذه الظاهرة في اللغة العربية بشكل خاص، حيث يوجد فيها مثلا خمسون ومائة اسم للأسد، وللحية مائتا اسم بل ذكر ابن خالوية أنه جمع للأسد خمسمائة اسم، بينما ذكر الأصمعي أنه حفظ للحجر سبعين اسما[2]...وإنما تكمن في ثقافة المترجم ودربته وذكائه وتقديره وضلاعته خاصة في اللغة المترجم إليها، علاوة على مدى تخصصه من ضعفه أو عدمه فيه نهائيا، إذ ليس هناك واحدا أو اثنين ممن يتطفلون على ترجمة مصطلحات لا قبل لتخصصهم الأصلي صلة بها، ولذا فإن رأي بعض الباحثات في عملية الترجمة

---

1. ف.دي سوسور، ترجمة : يوسف غازي : محاضرات في الألسنية العامة، ص: 25-26 ، مجيد النصر، ط. 1984، دار نعمان للثقافة، لبنان، بيروت.

2. راجع فقه اللغة لابن فارس، ص43-44.

(الأستاذة بوحديبة للّوشة)" يجد المترجم نفسه أمام صعوبات بشأن الكلمات التي ترتبط بميدان التحليل النفسي والتي لا وجود لها في القاموس الفرنسي العربي"[1] متسائلة "كيف نترجم إذًا هذه التصورات حينما تزودنا اللغة العربية بثلاث إلى خمس كلمات، في حين أن أيا منها لا يقابل تماما معنى الكلمة المقصودة"[2]. غير مؤسس لدينا، والاتجاه الأنسب في هذا المضمار ما ذكره جورج مونان (George Mounin) : "لكي نترجم يجب ألا نكتفي بمعرفة الكلمات، بل يجب أن نعرف الأشياء التي يتحدث عنها النص لترجمتها"[3]، ومع ذلك فإن الترجمة ستظل عملية سياقية إن لم أقل عملية تقريبية، لأنه يستحيل أن يطمح مترجم في فبركة نص يرقى إلى النص الأصلي، أي إذا كانت الترجمة رائعة إلى درجة أنها تنسينا نصها الأصلي فإن هذه الترجمة ربما لا تكون وفية كل الوفاء، وستكون على حساب الإهمال أو التضحية بجزئيات أخرى، وهو ما عبر عنه جورج مونان (George Mounin) في قوله الشهير: "الترجمات كالنساء، إذا كنّ جميلات فإنهن لن يكن وفيات، وإذا كن وفيات فإنهن لسن جميلات"[4].

والرؤية السابقة نفسها يتقاسمها معنا الأستاذ نصر الدين خليل حين ألمح إلى أن الباحثين يكادون يتفقون "على قضية أساسية، وهي أنه لا توجد نظرية مضبوطة ومدققة في الترجمة، وإنما هناك اجتهادات تنظيرية في هذا المجال"[5] مضيفا القول: "ومن هنا فإن مشروع القراءة الألسنية هو أن تعيد

---

1. AL-MUTARGIM, P : 33 N°1, laboratoire didactique de la traduction et multilinguisme, édition Dar El Gharb, janvier – juin 2001.
2. Le précédent, P 33.
3. Le précédent, P 33.

4. المرجع السابق، ص 39.

5. نفسه، ص 115.

النظر من جديد في الآليات والوظائف التي توجه اللغة بكل مستوياتها"[1]، مشيرا إلى استحالة النظام اللغوي مع اللغات الأخرى التي تؤلف في مجملها اللسان البشري، داعما قوله بكل من همسليف"Hemsliev" الذي كان يرى أن دلالة اللغة تقوم على نمط خاص من التقاطعات التي تختلف من لغة إلى لغة أخرى، وجورج مونان الذي نص على أن "اللسانيات لا تتعامل مع الترجمة كقوانين اجرائية ينبغي أن يحترمها النص المترجم من حيث مستويات اللغة المعجمية والنحوية والمورفولوجية والصوتية والأسلوبية التي يخضع لها النص الأصل، وإنما غاية اللسانيات هو طرح المشكلات اللسانية المتعلقة بالترجمة عند الانتقال من اللغة الأصل إلى اللغة الهدف"[2]. وأحسب أن هذا الإشكال في تباين المصطلحات سيبقى سائدا مهما وفّرت الوسائل الآلية لذلك، مادمنا نجد أنفسنا أمام آلاف من اللغات لا يستطيع عقل بشري ولا آلي هضمها واستيعابها في الوقت نفسه، وهو مجبر على التعبير بلغة واحدة، وخطاب واحد، وما دمنا عاجزين عن إدراك كنه ماهية اللسان البشري، أو كما قال دي سوسور: "إن الكل الشمولي للسان لا يدرك، وذلك لكونه غير متماثل"[3].

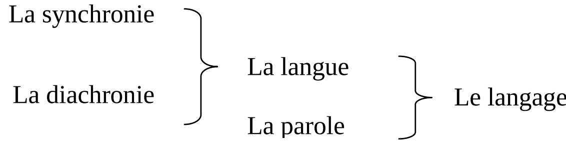
وحتى نظفر بالكل الشمولي للسان الذي لا تدرك ماهيته، ليس فقط لأنه غير متماثل NON ISOMORPHE ولكن لاستحالة جمع كل التكلمات البشرية، فإن المصطلحات اللسانية المنقولة من لغاتها الأصل إلى اللسانيات

1. نفسه، ص 115.
2. نفسه، ص 116.
3. محاضرات في الألسنية العامة، ص 33.

العربية الناشئة كثيرا ما نفّرت المقبلين عليها أو الموجّهين إليها من طلبة وباحثين مبتدئين، فالباحث في هذه اللسانيات يجد نفسه أحيانا أمام جملة من المصطلحات لا تعني في بداية أمرها ونهايته إلا مصطلحا واحدا بعينه، وربما وجد نفسه أما خضم متراكم من المصطلحات المتضاربة وحتى المتناقضة، حيث ما تفيده لدى هذا اللساني العربي في المشرق أو المغرب أو حتى مستوى بلد واحد أو جامعة واحدة تفيد ضده أو غيره لدى لساني عربي آخر.

ودون أن ندخل في الأسباب النفسية والخارجية والتي لا تغيب كلها عن اللسانيين العرب المحدثين، فإننا ننادي من على هذا المنبر العلمي المعنيين بالتعاون ونكران الذات لتنظيم ملتقيات جامعية عربية لتدارس هذا الداء القاموسي المتعدد الذي لا يثري المادة اللسانية، ولا يطور اللغة العربية بقدر ما يعمل على تفريغها العلمي الواعد الهادف، ويجعل من هذه الاشكالية مبررا علميا ومنهجيا لتعاطي مصطلحات لسانية أجنبية كبديل لما يترجم غامضة تارة، ومتضاربة تارة أخرى، إن ما أشرنا إليه أعلاه لا يحتاج لتبليغه إلى أية فلسفة كلامية أو جدل منطقي من نوع خاص، لأنها وقائع لسانية عربية مطروحة يعيش معاناتها كل من مارس ويمارس التعامل مع هذا الموضوع.

إذا رجعنا إلى دي سوسور "De saussure"، فإننا نجده يقسّم مفاهيمه الخمسة : Le langage, la langue, la parole, la synchronie, la diachronie حسب الشكل التالي[1] :



وهذا التقسيم على النحو أعلاه نجده مؤكدا في بعض الدراسات المعمقة التي اهتمت بدراسة دي سوسور"De saussire"، وكتابه الموسوم أعلاه[2]، غير أن النسخة العربية التي بين يدي ترسم هذه التقسيمات على الشكل التالي:



وتبعا لهذا التقسيم الأخير، فإن كل ما نفهمه من النسخ الفرنسية أو اللغات الأجنبية الأخرى باللغة، واللسان، نفهمه في هذه النسخة العربية باللسان واللغة"[3].

---

1. F.DE SAUSSURE : «Cours de linguistique générale», P 156, Enag Editions 1990 ALGER.
2. CAROL SANDERS : «Lire aujourd'hui» (C.L.G), P : 21 classique Hachette, édition 1978.
3. عبد الجليل مرتاض : اللغة والتواصل، ص 26-27، ط2000/1، دار هومة-الجزائر.

وما ألمح إليه أعلاه خطورة يجب أن ننتبه إليها كلما وُوجِهنا في مصدر عربي مترجم بمصطلحات لسانية من هذا القبيل، مع يقيننا بأن اللسانيات العربية المعاصرة التي لا تبرح غائبة إلى إشعار آخر، لا تملك مصطلحات واضحة تعبر بها عن مثل هذه الفروق الدقيقة، "وحتى القواميس العربية التي أنجزت خصيصا في المصطلحات اللسانية تضاربت في هذه المفاهيم، مثال ذلك أن "معجم اللسانية" الذي ألفه الدكتور بسام بركة لتوضيح هذه المصطلحات اللسانية متضاربة في ترجمته LANGUE وLANGAGE، لأن LANGUE عنده: لسان، لغة، وLANGAGE عنده: لغة، كلام[1]. ثم لا ندري من أين أتى بهذه "اللسانية" معنى ومصطلحا حتى وإن كنا نتفق معه في ترجمة LANGAGE إلى لغة وكلام بعض الاتفاق، حين ننظر إلى LANGAGE تظرة تواصلية"[2].

وعلى الرغم من أن دي سوسور"De saussure"، قسّم اللغة، LE LANGAGE وليس اللسان، LA LANGUE إلى لسان وكلام "فإن الغموض في مصطلحاتنا اللسانية تظل سائدة عندنا في اللغويات العربية الحديثة"[3]، فحين يعنون دي سوسور –مثلا– فصله الرابع بعنوان :

"Linguistique de la langue et linguistique de la parole" فإنه من الغموض بمكان أن نترجم "لسانيات اللسان ولسانيات الكلام" على الرغم من صحة الشق الثاني من الترجمة، بل من المعقول أن نقول في الشق الأول "لسانيات

---

1. د.بسام بركة منشورات جرّوس : معجم اللسانية، ص: 122، ط1985/1، طرابلس – لبنان.
2. اللغة والتواصل، ص 27-28.
3. المرجع نفسه، ص 28.

اللغة"، وهنا نقع في عكس الحقيقة العلمية التي توخاها الرجل من تقسيمه الثلاثي السابق"[1].

وإذا ما قدر لك أن تتصفح إحدى المجلات العربية الاكادمية من أجل الاطلاع على بعض المواضيع اللسانية المغربية بالنقد اللساني العربي الحديث مثلا، وبإشراف أشهر اللسانيين العرب المحدثين الذين يعدّون مصادر مأمونة ومأنوسة للباحثين، فإنك لتجد نفسك مضللا بمصطلحات غريبة تفردت بمفاهيم بعيدة عما تعنيه مداليلها بالنسبة إلى لغتها الاصل وعلومها اللغوية[2]، وإليك عينات منها :

المصطلح	ترجمته	المشهور
ALTERNANCE.	تداول	تناوب، تعاقب
LANGUE.	لغة	لسان
LANGAGE.	كلام	لغة
PAROLE.	عبارة	كلام

وهذه المصطلحات بالنسبة لأصحابها مستقرة وليست متأرجحة، أما ما هو متأرجح منها فغزير مثل :

المصطلح	ترجمته	المشهور
APPROCHE.	مقاربة	صحيح

1. المرجع نفسه، ص 28.
2. الموقف الأدبي، ص 194 – 201 (عدد خاص باللسانيات)، العددان : 135 – 1982/136.

ASPECT DU RECIT.	مستويات الرؤية	مظهر الحكاية
CHAMP SEMANTIQUE.	حقل دلالي	صحيح
CODE.	سنة	سَنَن
CATEGORIE.	مقولات	فصائل، فئات
INDICE.	وظيفة علامية	مؤشر لشيء آخر (مثل السحاب بالنسبة للمطر)
POETIQUE.	بوتيك	شعرية
SEMANTIQUE.	سيمياء	علم الدلالة

ويدلنا هذا المصدر على التباين الشائع والمستقر والمؤرجح بين كل باحث لساني وآخر، ومما لا يقبل منه إطلاقا أن نترجم مثلا : ASPECT DU RECIT بـ "مستويات الرؤية" التي هي شيء آخر، وأن نترجم CODE، بـ "السنة" بدل القانون أو السَّنَن إحالة على أول عنوان في فقه اللغة العربية لأحمد ابن فارس الذي سمى كتابه "الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها"، ويجوز لنا أن نقول فيها: سَنَن بفتحتين وسُنُن بضمتين، وسُنَن بضم السين وفتح النون، والسنن لغة هو الوجه من الأرض، والطريق من قولهم: "فلان على سنن واحد أي طريق والسنة تعني كذلك الطريق، وكذلك متقاطعة دلاليا مع السيرة التي قد تكون حميدة وقد تكون ذميمة.

ومما لا يزال متأرجحا تأرجحا شديدا مصطلح "STRUCTURALISME" فريمون طحان يسميها "بنيانية"، ويسميها حسين الواد "هيكلية"، ويطلق عليها حمادي

صمود "البنيوية"، ويدعوها صلاح فضل "بنائية" بينما يلقبها عبد السلام المسدي "هيكلية"، ويطلق حسين الواد على السياق SYNTAGME والمعروف عندنا أن هذا المصطلح يقابل كل تركيب لغوي، أو كما قال دي سوسور[1].

(كل تلاصق للمفردات في السلسلة الكلامية)

toutes combinaisons dans la chaine parlée

(كل تلاصق للوحدات الدالة)

toutes combinaisons de monème

في حين أن حمادي صمود يطلق عليه "مجال التوزيع" وهو إطلاق بعيد عن أصله وعن اللغة الهدف أي المترجم إليها، لأن دلالة "مجال التوزيع" وهي: CHAMP DE DISTRIBUTION بالنسبة لمجالات صوتية ودلالية وأسلوبية...شيء آخر تماما.

ومن هذه الكلمات LA SYNTAXE فيسميها البعض "النظم"، والبعض الآخر "علم التركيب" بينما يطلق عليها آخرون، علم الصيغ" على المورفولوجيا وهو مصطلح مأنوس، لكن البعض الآخر قد يسميه "علم الصرف" مثلما يسمى La syntaxe علم النحو.

ويمكن أن نعطي مسحا آخر للمصطلحات اللسانية التي ترجمها الأستاذان سهيل عثمان وعبد الرزاق الأصفر من خلال ترجمتهما "علم اللغة" لدانييل مانيس لنرى توجها آخر تارة قد يتقاطع مع ما سبق الإشارة

1. J.dubois : «Dictionnaire de linguistique», P 478, librairie larousse, Paris VI.

إليــه، ومــرة يتــوازى معهــا ومــع غيرهــا مــن المصــطلحات المشــهورة أو المرجحة[1].

المصطلح	المترجم	المشهور أو المرجح
DIACHRONIQUE.	تزامنية	زمنية
SYNCHRONIQUE.	تزامنية أو تاريخية	تزامنية
LANGAGE.	لسان	لغة
CORPUS.	نصية	مدونة
COMPETENCE.	قدرة	كفاءة
PERFORMENCE.	انجاز	أداة
SCHEMA.	مختزل	تخطيط بياني
ARBITRAIRE.	اتفاقية	اعتباطية
ISOMORPHISME.	مشاكلة	تشاكل، تماثل
FONCTION DEMACRATIVE	وظيفة تقطيعية	وظيفة تحديدية

ومن الممكن أن نقف على مسح آخر لقاموس المصطلحات اللسانية التـي اعتمـد عليها الـدكتور نجيب غزاوي الـذي تـرجم "علـم اللغـة فـي القرن العشرين" لجورج مونان لنقف على حقائق مضاعفة تؤكد لنا المسار العلمي الذي توجد عليه اللسانيات العربية الحديثة[2] .

1. انظر الموقف الأدبي أعلاه، ص 209-226.

2. راجع : علم اللغة في القرن العشرين لجورج مونان، ترجمة د.نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي السورية.

المصطلح	المترجم	المشهور أو المرجح
LE CANAL.	المسار	القناة
CLASSEMENT GENETIQUE	تصنيف تاريخي	تصنيف وراثي أو تكويني
CODE.	نظام	سنن، قانون
COMMUNICATION.	تفاهم–اتصال	تبليغ، اتصال، تواصل
COMUTATION.	تبادل	إبدال، استبدال
FONCTION REFERENTIELLE	وظيفة إشارية	وظيفة مرجعية
PERTINENCE.	تمايز وظيفي	ملاءمة
PERTINET.	تمييزي	ملائم، مطابق
PHILOLOGIE.	علم تحقيق النصوص	فقه اللغة (الفقلغة)
SIGNE.	رمز لغوي	علامة أو إشارة

ولعلنا لسنا بحاجة إلى المزيد من إثبات أمثلة ونماذج أخرى، فالعينات التي أوردناها تبدو لنا كافية، وتعبّر عن نفسها على مدى التضاربات الملاحظة في استعمال هذه المصطلحات اللسانية عندنا والتي لم نوفّق حتى الآن في الحد من تباينها بالتنسيق على التقريب بينها.

وأحسب أنه آن الأوان لتوحيد هذه المصطلحات في اللسانيات العربية المعاصرة وتخزينها في أقراص مضغوطة وجعلها في متناول الجامعات العربية ومراكز البحث، ولن نصل إلى أية نتيجة مرضية في هذا الشأن إلا بمراعاة معطيات متكاملة :

1. أن يأخذ المستوى الخلفي للتراث اللساني العربي باهتمام بالغ.
2. أن يتوافر تنسيق جامع بين كل الفاعلين في هذا الميدان.

3. أن يشرك لسانيون في اللغات الأجنبية في جهد مشترك، وخاصة ممن لهم بصمات جيدة في الترجمة.

4. أن يوكل إلى لجنة عربية مختصة مراقبة المطبوعات الجامعية بغية الإرشاد والتقويم لبعض المصطلحات اللغوية الشاردة.

5. تشجيع التكامل والتنسيق وتبادل المعطيات العلمية بين القطاعات العربية للتعليم العالي هيئات وأفرادا.

6. التكثيف بالتناوب من الملتقيات اللسانية الأكادمية والتعليمية والتربوية.

7. تشجيع اللسانيين المختصين في تأليف المعاجم اللسانية الأحادية والمزدوجة مع مراعاة معطيات التقارب وتوسيع التشاور العلمي الجاد إزاء بعض الإشكالات العالقة.

النحو العربي بين التيسير والتدمير

د. محمد الحباس

لقد أسال هذا الموضوع ولا يزال حبرا كثيرا، وانقسم الناس حوله أقساما شتى كل يدلي بدلوه حوله، فمنهم من يبالغ في التيسير حتى يكاد يحذف النحو تماما، ومنهم من يبالغ في التمسك بالنحو على ما هو عليه ولا يقبل أن يمس بحال، ومهم المقتصد الذي يشد من كل طرف بسبب، وحتى النيات قد اتهمت فيه، فاتهم المفْرطون في التيسير بأنهم يعملون على هدم النحو العربي من أساسه، وإن صدق هذا الاتهام فإنما يصدق على دعاة العاميات خاصة، لأن دعوتهم ليست تجديدا ولا تيسيرا للنحو العربي، وإنما هي نسف واضح له، وضرب للعربية الفصيحة في صميمها، ولهذا فإننا لن نعير اهتماما لهذا الرأي، لتفاهته وافتقاره إلى أدنى شرط من شروط الموضوعية العلمية، فضلا عن كونه رأيا هداما لا يمكن أن يقول به إلا من يكن للعربية والإسلام حقدا دفينا، والسكوت عن الرد عن الترهات عين

الجواب المفحم . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نرى الحديث عن العاميات في مقال حول تيسير النحو العربي إنما هو خروج عن الموضوع، لأن موضوعنا حول العربية الفصيحة لا العاميات المنتشرة في شتى أقطار الوطن العربي .

أما باقي الآراء المتعلقة بهذا الموضوع الشائك فسترى نصيبها من المناقشة في هذا المقال الذي نرجو من الله تعالى أن يسددنا فيه، وأن يعيننا على تجلية ما غمض من جوانبه خدمة لهذه اللغة العزيزة على قلب كل مسلم، عربي كان أم غير عربي .

ولإعطاء هذا الموضوع حقه من البحث يجب التفريق بين مجموعة من المفاهيم، لأن هذا الغموض الذي ساد الموضوع ناتج في أغلبه عن الخلط بين هذه المفاهيم التي سنتعرض إليها بالتفصيل فيما يأتي .

بين اللغة والنحو :

من أهم الجوانب التي يجب أن توضح في هذا الموضوع هو معرفة العلاقة بين اللغة العربية والنحو العربي، حتى نعرف ماذا نيسر، أنيسر النحو أم اللغة ؟ وقد وقع الكثير من الدارسين العرب المحدثين ممن تكلم في موضوع التيسير في هذا الخلط فوصلوا إلى نتائج خاطئة، كما سنبينه إن شاء الله.

إنه لمن البديهي عند الدارسين للنحو العربي هو أن هذا النحو مستنبط من استقراء كلام العرب الفصحاء، وهذا هو معنى تعريف النحو عند القدماء، حيث عرفه ابن جني بأنه: "انتحاء سمت كلام العرب، ليلحق من

ليس من أهل اللغة بأهلها في الفصاحة"[1]، كما عرفه ابن الأنباري بأنه: "علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب"[2]، فلم يكن للنحاة فيه دور سوى الاستقراء والاستنباط، أي أنهم لم يخترعوا هذه القواعد من تلقاء أنفسهم ثم قاموا بفرضها على الناس، ولدينا أدلة كثيرة تدل على هذا نذكر منها :

1. السبب الرئيس في اختراع النحو العربي كان لحفظ اللسان العربي من اللحن والضياع، ومن وراء ذلك حفظ الكتاب والسنة بحفظ لغتهما، فإذا ادعى مدع أن النحاة العرب كانوا يختلقون القواعد فهذا يعني أنهم كانوا يهدمون هذه اللغة بدل الحفاظ عليها، وهذا ما لا يقوله عاقل فضلا أن يكون مسلما، خاصة وأن النحاة واللغويين الأوائل كانوا كلهم من قراء القرآن الكريم، فالطعن في قواعدهم يعتبر طعنا في القرآن نفسه ما داموا كانوا من حملة هذا الكتاب العزيز .

2. وإذا سلمنا جدلا أن النحاة لم يكونوا أمناء على هذا اللسان فهل كانت ستسلم لهم الأمة بجميع علمائها بهذا العبث بلغة القرآن الكريم، وفيهم علماء التفسير والقراءات والحديث والفقه والأصول وغيرهم، فهذا الرأي لا يعدو أن يكون اتهاما ليس للنحاة فقط بل هو اتهام لجميع علماء الأمة الإسلامية الذين كانوا يرون النحاة يعبثون بلغة القرآن وهم عنهم ساكتون، لماذا لا يثورون في وجوههم مثلما ثاروا في وجه كل المبتدعين الذين حاولوا تشويه الإسلام من أصحاب المذاهب الهدامة ؟ أم أن النحاة كانوا يملكون عقارا سحريا ينومون به علماء الأمة ليسكتوا عنهم، فسكوتهم عنهم يعتبر

---

1. الخصائص، 1/ 34 .

2. لمع الأدلة في أصول النحو، 95.

إجماعا منهم على صدقهم وأمانتهم وقد قال الرسول ﷺ "إِنَّ أُمَّتِي لاَ تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلاَلَةٍ"[1]. ونحن هنا نفصل بين النحاة وعلماء الإسلام جدلا لنبين القضية بوضوح، ولكن الحقيقة التي يعرفها كل دارس للعلوم الإسلامية هي أن النحاة يعدون ضمن علماء الإسلام على اعتبار أنهم كانوا يخدمون الكتاب والسنة من الجانب الذي هو اختصاصهم، ولا ننسى أن القراء جعلوا من شروط القراءة الصحيحة أن توافق اللغة العربية ولو بوجه، والذين يحكمون بهذا إنما هم النحاة، فالنحاة كانوا على ثغر كبير من ثغور الإسلام على المستوى العلمي، مثلما كان المجاهدون على ثغوره أمام أعداء الإسلام . كما لا ننسى أن الأصوليين اشترطوا في الفقيه المجتهد أن يكون على دراية كافية بعلوم اللغة مما يسمح له أن يستنبط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة اللذين هما بلغة العرب.

3. لقد اهتم النحاة بكل كلام العرب ولم يتركوا شاردة ولا واردة إلا أحصوها، وقسموا . انطلاقا من هذا . كلام العرب إلى مطرد وغير مطرد في السماع، فالمطرد كرفع الفاعل ونصب المفعول، والجر بحروفه والنصب بحروفه والجزم بحروفه، وغيرها من الظواهر التي لم يختلف حولها العرب في كل قبائلهم، ولم يقتصر النحاة واللغويون على هذا المطرد، بل سجلوا لنا كل ما سمعوه من اللغات المشهورة والنادرة، فتسجيلهم لهذه اللغات دليل على احترامهم للغة العرب فلم يقبلوا أن يضيعوا منها شيئا، شعورا منهم بأهمية الأمانة العلمية الملقاة على عواتقهم واسمع معي إلى ابن جني وهو يقرر هذه القاعدة الذهبية يقول في باب اختلاف اللغات وكلها حجة : "اعلم أن

1. سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، رقم 3950.

سعة القياس تبيح لهم ذلك، ولا تحظره عليهم، ألا ترى أن لغة التميميين في ترك إعمال (ما) يقبلها القياس، ولغة الحجازيين في إعمالها كذلك، لأن لكل واحد من القومين ضربا من القياس يؤخذ به ويخلد إلى مثله ...

هذا حكم اللغتين إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين، أو كالمتراسلتين .

فأما أن تقل إحداهما جدا وتكثر الأخرى جدا فإنك تأخذ بأوسعهما رواية، وأقواهما قياسا ... فإذا كان الأمر في اللغة المعول عليها هكذا وعلى هذا فيجب أن يقل استعمالها وأن يتخير ما هو أقوى وأشيع منها، إلا أن إنسانا لو استعملها لم يكن مخطئا لكلام العرب، لكنه كان يكون مخطئا لأجود اللغتين ...

وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ، وإن كان غير ما جاء به خيرا منه"[1] .

هذا الاهتمام بتسجيل لغات العرب جميعها دليل على الأمانة التي كان يتصف بها أولئك النحاة، ولهذا لا يمكن أن يخترعوا القواعد ليحاكموا إليها كلام الناس، بل كانوا يخترعون القواعد بناء على كلام الفصحاء من العرب ثم يحاكموا كلام الناس بناء على هذه القواعد. وهذا هو هدف النحو : "ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها في الفصاحة، وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها"[2].

---

1. الخصائص، 2 / 10 وما بعدها.

2. نفسه، 1 / 34 .

فإذا تأكدنا أن النحاة لم يخترعوا القواعد من تلقاء أنفسهم فإن هذا يجبرنا على عدم المساس بهذه القواعد، لأن المساس بها هو مساس باللغة نفسها، نعم يجب الاهتمام بالظواهر التي هي شائعة على السنة الناطقين أكثر من الاهتمام بالظواهر القليلة والنادرة، وهذه ظاهرة تربوية وليست تتصل بجوهر النحو وإنما تتصل بالجانب التربوي الذي يعطي لكل مستوى ما يناسبه من المعلومات.

4. من الأدلة كذلك على أن النحو كان تابعا للغة هو ما نقرأه في كتب النحو من كثرة الشواهد على القواعد، فما من قاعدة إلا ولها شواهد تؤيدها، سواء من الشعر أم النثر، وهذا كتاب سيبويه إمام النحاة مملوء بهذه الشواهد، وفي الكثير منها يقول سيبويه : سمعت، أو حدثني، وغيرها من العبارات التي تدل على أنه كان يشافه العرب الفصحاء ويضع القوانين بناء على هذه المشافهة، يقول في هذا : "وسمعت بعض العرب يقول : بيس، فلا يحقق الهمزة[1]. ويقول: "سمعناهم ينشدون هذا البيت للأخطل هكذا :

إذا غاب عنا غاب عنا فراتنا وإن شِهْدَ أجدى فضله وجداوله"[2]

ولا نجد في كتاب سيبويه شيئا من كلام العرب منسوبا إلى غير الفصحاء، وعباراته دالة على ذلك، من ذلك قوله : "وقالوا في حرف شاذ: إحب ونِحب ويِحب"[3]. ويقول : "وقالوا : ضربت تضرب واضرب[4]. وقال

1. الكتاب، 4 / 109 .
2. نفسه، 4 / 116 .
3. نفسه، 4 / 109 .
4. نفسه، 4 / 110 .

أيضا : "وإنما كسروا هذه الأوائل لأنهم أرادوا أن تكون أوائلها كثواني فَعِل"[1]. والأمثلة في الكتاب أكثر من أن تحصى، وإنما ضربت لك مثلا ليتضح الحال، وتعلم أن النحاة لم يكن لهم دور في كلام العرب إلا أن يستنبطوا أحكامه ويوضحوا مجاريه، ويعللوا بعد ذلك ظواهره.

بل إن هذه الظاهرة استمرت حتى أواخر القرن الرابع الهجري، فهذا ابن جني المتوفى سنة 392 للهجرة نجده يذكر عن العرب الفصحاء ما يقوي به آراءه النحوية، وكان يأخذ خاصة من أحد الأعراب الذي كان يسميه بالشجري، يقول فيه : "أنشدني مرة أبو عبد الله الشجري شعرا لنفسه فيه بنو عوف ..."[2]، ويقول أيضا : "وسمعت الشجري أبا عبد الله غير دفعة يفتح الحرف الحلقي في نحو (يعدو) و(هو محموم) ولم أسمعها من غيره من عقيل"[3] . ويقول كذلك : "وأنشدني أبو عبد الله الشجري لنفسه من قصيدة ..."[4] .

فهذا وغيره ينبئك أن القوم لم يكونوا أكثر من نقلة أمناء، ولم يخترعوا شيئا من عند أنفسهم إلا القواعد التي هي مستنبطة من مجاري كلام العرب الفصحاء. أما تلك الخصومات التي نجدها بين بعض الشعراء والنحاة فلا تعدو أن تكون مناوشات أغلبها ذو طابع دعابي، ولقلتها فلا يمكن أن يستند عليها للطعن على النحاة، والزعم أنهم كانوا يختلقون اللغة أو القواعد ثم يبحثون لها عن شواهد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن النحاة كانوا

1. نفسه، 4 / 110 .
2. الخصائص، 1 / 78 .
3. نفسه 2 / 9 .
4. نفسه، 3 / 280 .

يعتبرون أنفسهم على ثغر من ثغور الإسلام ولهذا فقد كانوا حريصين على محاربة اللحن مهما كان مصدره حتى لو جاء من عربي فصيح، خاصة وأن الفصاحة بدأ يشوبها اللحن في زمانهم، فهم كانوا على حرد من كلام الناس جميعا، وكلما سار الزمان صار الناس أقرب إلى اللحن منهم إلى الفصاحة، والدليل على هذا الكلام هو أن النحاة لم يخَطِّئُوا العرب القدماء حتى لو خرجوا عن القاعدة المشهورة، من ذلك أنهم رووا لنا لغات شاذة جدا ورديئة ولم يعتبروها لحنا، من ذلك الكشكشة[1]والكسكسة[2] والتضجع[3] والتلتلة[4]والعنعنة[5]، ورووا لنا الشاهد على أن بعض العرب كانوا يجرون المثنى والأسماء الخمسة بالألف رفعا ونصبا وجرا، قال الشاعر :

إن أباها وأبا أباها   قد بلغا في المجد غايتاها

وقد سجل لنا النحاة أنفسهم هذه المناوشات مما يؤكد ما قلناه سابقا، إذ لو كانوا يضيقون بها ذرعا لما سجلوها في كتبهم، من ذلك ما نجده في الخصائص، يقول ابن جني: "وقال عمار الكلبي – وقد عيب عليه بيت من شعره، فامتعض لذلك – :

ماذا لقينا من المستعربين ومـن   قياس نحوهم هذا الذي ابتدعـوا

إن قلت قافيـة بكرا يكون بـها   بيت خلاف الذي قاسوا أو ذرعوا

1. الكشكشة هي زيادتهم شينا بعد كاف الخطاب في المؤنث، نحو : إنكِش، ومنكِش.
2. الكسكسة مثل الكشكشة وهي في هوازن، يزيدون سينا بعد كاف الخطاب في المؤنث، يقولون : منكِس وعنكِس .
3. التضجع هو إمالتهم الألف نحو الياء في نحو : عماد وشيبان.
4. التلتلة هي كسرهم أحرف المضارعة، نحو : تِعلمون، ويِعلمون .
5. العنعنة هي إبدال همزة أن عينا، وهي لغة تميم، قال الأصمعي : سمعت ابن هرمة ينشد هارون الرشيد:
أَعَنْ تَغَنَّتْ عَلَى سَاقٍ مُطَوَّقَةٌ   وَرْقَاءُ تَدْعُو هَدِيلاً فَوْقَ أَعْوَادِ

قالوا لحنتَ وهذا ليس منتصبـا وذاك خفض، وهذا ليس يرتفـع

وحرضوا بين عبد الله من حمُق وبين زيد فطال الضرب والوجـع

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقه وبين قوم على إعرابهـم طبعـوا

5. من الأدلة القوية كذلك على أن النحو العربي كان تابعا للغتهم، وجاريا على مناهجهم هو ذلك العمل الجبار الذي قام به النحاة واللغويون العرب من تحديدهم لرقعة الفصاحة زمانا ومكانا.

فمن الناحية الزمانية حددوا الكلام الذي يحتج به ابتداء من أول ما وصل لنا من الكلام العربي أي من سنة 120 قبل الهجرة تقريبا، إلى أواخر القرن الأول للهجرة، أما بعد هذا التاريخ فقد بدأ النحاة يتخيرون القبائل الفصيحة، وما زالت رقعة الفصاحة تضيق مع مرور الزمن حتى انقرضت الفصاحة العربية في أواخر القرن الرابع للهجرة بشهادة أحد المعاصرين وهو العلامة ابن جني الذي يقول : "وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا، لأنا لا نكاد نرى بدويا فصيحا. وإن آنسنا منه فصاحة في كلامه، لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه، وينال ويغض منه"[1].

أما من الناحية المكانية فإن النحاة استبعدوا الكثير من القبائل من رقعة الفصاحة، والمقصود بهذه القبائل، القبائل الحضرية وكذا القبائل المتاخمة للأعاجم في أطراف شبه جزيرة العرب، ولم يأخذوا اللغة مشافهة إلا من القبائل البدوية في أقاصي نجد والحجاز .

---

1. الخصائص، 2 / 5 .

فتحديدهم لهذه الرقعة دليل على احترامهم لكلام العرب، والخوف عليه من الدخيل واللحن، فإذا اتهمناهم بوضع اللغة، أو باختراع القواعد على حسب أهوائهم فإننا نكون قد أهدرنا ما قاموا به من جهود في تحرياتهم وتأكيدهم على الكلام العربي الفصيح الخالي من شوائب العجمة واللحن.

هذه الأدلة – التي أتينا بها للتأكيد على أن النحو العربي كان تابعا لكلام العرب، ولم يكن كلام العرب تابعا للنحو العربي – تفيدنا في موضوع تيسير النحو العربي، لأننا إذا اعتقدنا هذا الاعتقاد الذي قررناه فإننا حينما نريد أن نحذف شيئا من القواعد النحوية فإنما نكون بالضرورة قد حذفنا شيئا من اللغة العربية، فنحن حينئذ لا ننكر عمل النحاة بل ننكر عمل العرب الفصحاء الذين تكلموا بكلام لا يعجبنا نحن اليوم . ونحن لا ننكر أن من اللغات ما أصبح اليوم بل بعد الإسلام مهجورا، وإنما نقصد الظواهر التي بقيت حية على ألسنة الناس في كلامهم الشعري والنثري إلى اليوم، وكذلك نقصد الظواهر التي إن حذفناها لا نجد ما يعوضها، أي الظواهر غير اللهجية، لأن الظواهر اللهجية كلها لها ما يعوضها، فالناس منذ القديم حذفوا من كلامهم اللغات النادرة وأبقوا على اللغات القوية، فلا نجد في الكلام المكتوب خاصة الكشكشة ولا الكسكسة ولا العنعنة ولا ذو الطائية[1] ولا الذون[2] وغيرها كثير جدا، وذلك لأن ما يقابلها من لغات مشهورة أصبح عوضا عنها. والملاحظ أن حذف هذه اللغات القليلة والنادرة من ألسنة

1. انفردت قبيلة طيء من بين سائر قبائل العرب باستعمال (ذو) للدلالة على اسم الموصول، يقولون جاء ذو أحب، أي الذي أحب .

2. المشهور من كلام العرب أن (الذين) اسم موصول مبني على الفتح، وهناك من قبائل العرب من يعربه إعراب جمع المذكر السالم، فيقولون الذون رفعا، والذين نصبا وجرا .

الناس لم يكن بتوجيه أحد إلا تلك العبارات التي كان يطلقها النحاة في وصفها بأنها شاذة أو نادرة أو قليلة أو رديئة، فقد كانت قليلة في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام ثم انقرضت من الألسنة خاصة بعد نزول القرآن الكريم، فأصبح الناس يتوقون إلى لغته وتركوا ما سواها، إلا ما كان لغة قوية كلغة تميم في إهمالها (ما) النافية، ومع ذلك فإن الإعمال . الذي هو لغة الحجازيين . أشيع من الإهمال لأن القرآن ورد به في قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً﴾[1].

بين ملكة اللسان وصناعة العربية :

لقد أوتي الكثير من الدارسين العرب المحدثين . من الذين تكلموا في موضوع تيسير النحو العربي من هذا الباب . فأخطأوا خطأ فادحا، حيث لم يفرقوا بين ملكة اللسان وصناعة اللغة، فلما رأوا النحو العربي معقدا في أمهات الكتب وخاصة كتاب سيبويه بدأوا يشنون الهجمات عليه، فيتهمونه تارة بالتعقيد وتارة بالتفلسف الذي هو خارج عن طبيعة الدراسات اللغوية، وتارة بالتعليل العقيم الذي لا يفيد المتعلم في اكتساب المهارات اللغوية، إلى غير ذلك من الاتهامات الباطلة . ولو عرف هؤلاء الدارسون الفرق بين ملكة اللسان وقوانين هذه الملكة لكفاهم ذلك مؤنة الوقوع في هذه المتاهات.

وكان يكفيهم في ذلك ما اكتشفه ابن خلدون انطلاقا من ملاحظاته حيث لاحظ أن الطلبة في عصره يقرأون الألفية وشروحها فإن هم كتبوا رسالة أخطأوا فيها فهداه ذهنه الثاقب إلى البحث عن السبب فوجده يكمن في طريقة التعليم، واكتشف أن تعليم الملكة اللغوية يخضع لقوانين الملكات

---

1. سورة يوسف عليه السلام، الآية 31.

عامة وهي الدربة والممارسة، لا التعلم النظري، فصاح بالقاعدة المشهورة التي لا تزال نبراس اللسانيات التعليمية إلى اليوم وهي أن ملكة اللسان العربي غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم .

يا لها من صرخة في دياجير الظلام الذي كان مخيما على العالم الإسلامي يومئذ، ولكنها كانت صرخة في واد فما تنبه الناس إلى هذه الصرخة إلا في العصر الحديث، وبالضبط لما توصل الغربيون إلى نفس النتائج التي توصل إليها ابن خلدون قبل قرون، ولكن الغريب أن بعض الدارسين العرب المحدثين لم يستوعب هذا الاختراع العظيم من طرف هذا العظيم، فأصبح يصب جام غضبه على النحو العربي ويتهمه بالصعوبة والمنطق الذي لا يفيد في إكساب الملكات اللغوية، ويطالب بحذف أبواب من النحو العربي وحذف التعليلات كي يسهل تعلمه على الناشئة.

يقول سمر روحي الفيصل : "الكتب النحوية الميسرة ما زالت تلقن المتعلم قواعد الصنعة، لكنها لا تعده لإتقان اللغة حديثا وكتابة، ولا شك أن هذا الإتقان هو الهدف الأساس من التيسير، فإن لم يتحقق فلا فائدة من حركة التيسير كلها"[1] فهذا الكاتب كما ترى ما زال لا يفرق بين طرق تعليم الملكة وطرق تعليم الصناعة، ولو كان يفرق بينها لما طلب من درس القواعد أن ينتج متكلما وكاتبا فصيحا، لأن القواعد مهما يسرناها لن تفي بهذا الغرض، لأنه سبيل غير سبيلها .

---

1. المشكلة اللغوية المعاصرة، 69.

ونحن لا ننكر أن يكون للقواعد دور ثانوي في تقويم اللسان، ولكن الدور الأساس في هذه الملكة للدربة والممارسة، فالقواعد في المراحل الأولى للتعليم يمكنها أن تساعد في صقل ملكة اللسان، حيث إن المتكلم يراعيها في بعض الظواهر مدة معينة ثم تصير ملكة في لسانه، وأنا اضرب مثلا عايشته كمتكلم بالعربية، فالمعلوم أن خبر (إنَّ) و(أَنَّ) قد يتقدم إذا كان شبه جملة، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾[1] فقد كان يصعب عليَّ في مرحلة من مراحل دراستي أن أنصب الخبر هذا، وكنت أعرف القاعدة النظرية، وما زلت أحاول تطبيق القاعدة حتى تمكنت منها في النهاية، فهذا دليل على أن بعض الظواهر . وخاصة الظواهر الخاصة . كالتقديم والتأخير يمكن للمتكلم أن يراعي فيها القاعدة حتى ترسخ في ذهنه، ولكن هذا لا ينطبق على كل اللغة، بل إن الأغلب الأعم من اللغة الشفاهية والكتابية يتعلمها المتكلم عن طريق الممارسة.

ومن الكتاب الذين لم يدركوا تماما الفرق بين الملكة والصناعة محمد كامل حسن، يتضح ذلك جليا من خلال النص الآتي : "ومن أعجب القواعد التي لا يمكن أن تكون سليقة إعراب "غير" فعليك أن تغير الجملة في ذهنك، وأن تضع بدلا منها "إلا"، ثم تحدد إعراب ما بعد "إلا" وبذلك يتم لك إعراب "غير"، بعد تفكير طويل"[2] .

لولا أن هذا الكلام قد كتب في كتاب يقرأه الناس وقد ينخدعون به لما جشمنا أنفسنا عناء الرد عليه لتفاهته جدا جدا. أما الإجابة عنه فنقول بأن

---

1. سورة الحجرات، الآية 7.

2. محمد كامل حسن، اللغة العربية المعاصرة، 65.

العربي الفصيح ذا السليقة اللغوية في كلمة "غير" وفي غيرها لم يكن يجري هذه العملية، ولم يكن يعرف الإعراب ولا علاقة غير بإلاَّ، إنما هذا الإعراب والعلاقات الموجودة بين الكلم مكتشف من كلامه هو، وليس الفصيح خاضعا لقواعد النحاة المستنبطة من كلامه . وهذا الخلط ناتج من عدم إدراك هذا الكاتب للفرق بين الفصاحة عند أولئك، والتي كانت عندهم ترادف السليقة، وبين الفصاحة عندنا اليوم، التي لا تكتسب إلا بعد تمرين طويل، ومعرفة قواعد اللغة، بل إن تعلمنا للملكة اللغوية . كما نص على ذلك ابن خلدون . لا ينبغي أن يكون انطلاقا من القواعد، لأن ملكة اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم . وأنا أسأل محمد كامل حسن: هل أنت عندما تتكلم أو تكتب تشعر بقواعد اللغة التي تستعملها ؟ فكذلك كان القوم، بل كانوا أكثر سليقة منك ومنا جميعا، فلا ينكر عليهم أنهم يتكلمون بأعقد الأساليب اللغوية ثم هم لا يعرفون قواعدها، إن مثل العربي الفصيح وغير العربي بالنسبة إلى العالم في اللغة كمثل الإنسان في جسمه ونفسه، فهو مركب تركيبا جسميا ونفسيا عجيبا، ولكنه لا يدرك ذلك من نفسه وجسمه، بل الذي يدرك ذلك هو عالم البيولوجيا وعالم النفس، هو يتصرف على السليقة وهما يكتشفان علل تصرفه، فكذلك الفصيح واللغوي.

ثم لنستمع لابن خلدون وهو يقرر قاعدتين هامتين في هذا المجال :

الأولى : هي التفريق بين ملكة اللغة وقوانين تلك المكلة، فملكة اللغة هي كغيرها من الملكات والمهارات التي تكتسب بطرق خاصة، وهذه الطرق تعتمد على الدربة والممارسة المستمرة، وبالنسبة للسان فيجب الاعتماد على شيئين اثنين أولهما سماع الجيد من المنظوم والمنثور، والثاني تقليد هذا السماع بصورة مستمرة حتى تصير الظاهرة اللغوية ملكة راسخة.

وقد تحدث ابن خلدون عن الملكات بصفة عامة قبل أن يتحدث عن الملكة اللغوية، وبين طرق تعليم هذه الملكات، يقول في ذلك : "والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالا، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، أي صفة راسخة"[1] .

ثم تحدث عن ملكة اللسان العربي عند العرب الفصحاء فقال:"فالمتكلم من العرب . حين كانت ملكته اللغةُ العربية موجودةً فيهم . يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة، ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة، وصفة راسخة، ويكون كأحدهم"[2] .

أما تعليم القوانين فيخضع لما تخضع له الموضوعات العلمية من التقرير في العقل عن طريق الأدلة العقلية والبراهين المنطقية، فقوانين اللغة من هذا المنطلق لا فرق بينها وبين الرياضيات في طرق التعليم.

الثانية : أما القاعدة الثانية التي يقررها ابن خلدون فهي قاعدة ذهبية أيضا وقد لخصها في عنوان الفصل الحادي والأربعين من المقدمة حيث يقول : "إن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنهما في التعليم، والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه

---

1. المقدمة، 554 .

2. نفسه، 554 . 555 .

الملكة ومقاييسها خاصة، فهو علم بكيفية لا نفس كيفية، فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا ... وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل. ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب، وأكثر من اللحن، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربية، وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة، يجيد الفَنَّيْنِ من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المفعول من المجرور، ولا شيئا من قوانين صناعة العربية. فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية، وأنها مستغنية عنها بالجملة"[1].

هذا الرأي الذي جاء به ابن خلدون لا يزال هو السائد في اللسانيات التعليمية إلى اليوم، إلا عند بعض الدارسين العرب ممن رأينا بعض آرائهم، فهم لا يزالون يطلبون من القواعد النحوية أن تعلم تلاميذهم ملكة اللسان. وانظروا إلى عبقرية هذا الرجل حين يقرر أن ملكة اللسان مستغنية بالجملة عن صناعة اللغة، أي أنك يمكن أن تجيد الملكة ولا تجيد الصناعة، والعكس صحيح . ولكن هناك ارتباط . كما رأينا من قبل . فالصناعة يمكن أن تصقل الملكة، بل وتعين على بعض الظواهر اللغوية الخاصة، مثل المثال الذي ذكرته آنفا، وقد حدث لي شخصيا حين يتقدم خبر (إن) على

---

1. نفسه، 560 .

اسمها ويكون شبه جملة . ولكن المعول عليه في تعليم الملكة هو الطرق الخاصة بها لا طرق تعليم الصناعة.

ثم يبين ابن خلدون الطريق الصحيح لتعليم الملكة اللغوية حين يقول: "وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم، فينسج هو عليه، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم، وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم"[1].

إننا لسنا في حاجة إلى التدليل على صحة نظرية ابن خلدون هذه، بعد أن أكدها علم اللسان الحديث بالتجارب الميدانية، وإذا كانت صحية فمن غير المعقول أن نسمع بعد الآن من يسعى إلى تيسير النحو العربي بحذف تعليلاته أو حذف بعض أبوابه قاصدا بذلك تعليم الناشئة الملكة اللغوية، لأننا إذا أيقنا أن ملكة اللسان غير قوانينه فلا معنى لأن نيسر هذه القوانين طلبا للمكلة، لأننا حينئذ سنكون متناقضين مع أنفسنا . إن تيسير النحو مطلوب لكن لغرض آخر، هو نفس الغرض الذي تيسر له **بين النحو العلمي والنحو التعليمي :**

من الموضوعات التي لها علاقة مباشرة بموضوع تيسير النحو موضع الفرق بين النحو العلمي والنحو التعليمي، فالحديث عن التيسير دون مراعاة هذا الفرق يسوقنا إلى خطإ كبير، لأن كلا من النوعين له خصائصه التي تميزه عن الآخر. ومن الأخطاء التي ارتكبها بعض الدارسين انتقادهم للنحاة

---

1. نفسه، 561 .

العرب في تعليلاتهم العميقة التي لا يفهمها إلا المتخصصون من العلماء، ويزعمون بأنها خارجة عن طبيعة الدراسات اللغوية، من جهة، ومن جهة أخرى فهي ليست عملية ولا يستطيع الطلبة والتلاميذ استيعابها لصعوبتها وتشعبها، زاعمين في الوقت نفسه أن النحو وسيلة لا غاية ولهذا يكفي منه ما يوصلنا إلى تقويم اللسان، وما زاد على ذلك فهو فضل تعلم لا فائدة منه.

لكن قصر وظيفة النحو على تعليم ملكة اللسان . مع ما رأينا من أن النحو لا يعلم الملكة . فيه نظر، ولهذا يمكن القول بأن للنحو وظيفتين : وظيفة علمية ووظيفة تعليمية، فالوظيفة العلمية هي تحليل اللسان، وتعليل ظواهره، وهو بهذا علم كغيره من العلوم الطبيعية التي تدرس الظواهر الطبيعية. فاللغة ظاهرة إنسانية كغيرها من الظواهر البشرية التي تستحق الدراسة والتعمق في فهم أسرارها، ولا يجوز لأحد أن يحد من جهود العلماء في هذا الميدان بدعوى أن الطلبة لا يفهمون أسرارها، ولا نقد التعليلات النحوية، لأن العلم مبني على التعليل والافتراض والاستنتاج، ثم لماذا كل العلماء أحرار في تعليلاتهم وتحليلاتهم إلا النحاة يريد الناس منهم أن ينتهوا عند فهوم الصبيان فلا يتجاوزونها ؟

هذه الدواهي ناتجة عن النظرة القاصرة التي تحصر دور النحو في تعليم اللسان، فهو عند هؤلاء وسيلة ينبغي أن ينتهي دورها عند الحد الذي رسم لها كوسيلة. من ذلك ما ذكره الدكتور شوقي ضيف في كتابه (تجديد النحو) من أن الإعراب يجب أن يكون وسيلة لصحة النطق، فإن لم يصحح نطقا لم تكن إليه حاجة[1]. وردنا على هذا الرأي يكون من وجهين: الأول :

---

1. تجديد النحو، 4، من المقدمة.

أننا قررنا من قبل أن ملكة اللسان لا تتعلم عن طريق تعلم قواعد النحو، من إعراب وغيره .

الثاني : أن تعلم الإعراب يمكن أن يكون لغاية غير تقويم اللسان ألا وهي تحليل اللسان، أليست كل العلوم يمكن أن تكون وسائل في الوقت الذي يمكن أن تدرس لذاتها، أي لاكتشاف الأسرار المودعة في موضوعاتها ليس إلا ؟ .

إن النقد الذي يمكن توجيهه للنحاة القدماء هو أنهم قد يكونون قصروا في الفصل بين النحو العلمي والتعليمي، ومع ذلك فإننا نجد الكثير من الكتب الميسرة للطلبة في شتى المستويات، نعم قد نجد نقصا ناتجا عن نقص في علوم التربية وعلم النفس، وهذا النقص لم يكن خاصا بالنحو، ولكنه عام في كل العلوم، وهذا ما تنبه إليه كذلك ابن خلدون فتحدث بإسهاب عن كيفية تلقين التلاميذ العلوم، وماذا يجب على المعلم مراعاته بالنسبة إلى كل مستوى من المستويات، وكذا أتباع طريقة التدرج في التعليم، لأن العلوم لا يمكن أن تستوعب جملة واحدة .

فإذا جئنا بكتاب سيبويه وهو كتاب يصعب على المتخصصين وأردنا أن نعلمه للصبيان، فمَنِ المُخْطِئُ حينئذ أسيبويه أم نحن الذين لا نفرق بين المستويات، فما هو موجود في كتاب سيبويه لم يكتب للناشئة إنما كتب للمتخصصين في الدراسات النحوية العربية من الجامعيين والدراسات العليا، فلماذا نعيب نحن كتاب سيبويه لهذا السبب ؟ نعم يمكن لنا أن ننتقد النحو العربي القديم ولكن بنظرة أخرى، وبهدف آخر، وهو أن النحو العربي جهد بشري يمكن أن يعتريه النقص، وهذا لا يدخل في إطار تيسير النحو أبدا،

إنما يدخل في إطار نقد العلوم، وهو عمل مستمر عند الأمم في كل زمان ومكان . فإذا خطأنا سيبويه أو الخليل لا نخطئهما لأن الطلبة لا يفهمون كلامها، بل نخطئهما من منطلق علمي بحت . وبهذا نخرج نقد النحو العربي من دائرة التيسير تماما إلى دائرة أخرى هي نقد العلوم.

أما قضية التيسير فإن ميدانها تربوي تعليمي يجب أن يخضع لما تخضع له العلوم جميعها من أسس تربوية في اختيار المادة المناسبة، والأمثلة المشوقة، واختيار الطرق التربوية الحديثة لتقديم المادة العلمية، فيجري على النحو ما يجري على دروس الرياضيات أو العلوم الطبيعية أو غيرها من المواد الدراسية. إن الغريب في أمرنا هو أن نقصنا في هذا الجانب نلقيه على النحاة العرب القدماء، فعوض أن نأخذ من نحوهم ما يلائم الطلبة ونخضعه لما استجد من النظريات التربوية، فإننا نلقي باللائمة عليهم ونتهمهم أنهم عقدوا النحو العربي، حتى أصبح لا يفهمه إلا قلة من المتخصصين، وعندما نريد تيسير النحو العربي نضربه في صميمه بمحاولة إلغاء أجزاء منه، أو تغيير مفاهيمه كالمحاولات الفاشلة التي تزعم أن الإعراب من صنع النحاة، ولذا يجب حذفه، أو محاولة حذف نظرية العامل التي تعتبر العمود الفقري للنحو العربي، أو حذف التعليلات لأنها صعبة على الدارسين من جهة، ولأنها مخالفة لطبيعة اللغة، مع العلم أن التعليل يعتبر من أساسيات العلم، فلا علم بدون تعليل.

وخلاصة القول في هذا الموضوع هي أن تيسير النحو العربي ينبغي أن يخضع للضوابط التي ذكرناها وهي أن نعرف جيدا علاقة النحو باللغة العربية، وأن النحو كان تابعا للغة فلا نيسر النحو بما يقود إلى تغيير اللغة،

والنحاة العرب لم يفعلوا أكثر من أن وصفوا لغة العرب، وقد كانوا أمناء لدرجة أنهم نقلوا إلينا اللغات الضعيفة والنادرة والشاذة، التي لولاهم لما وصل إلينا منها شيء لأن العرب تركتها بعد نزول القرآن الكريم، الذي اعتمد لغة الحجازيين في جل الاختلافات اللغوية.

ومما يجب ملاحظته كذلك في هذا الباب هو التفريق البيِّن بين تعليم الملكة اللغوية وبين تعليم قوانين هذه الملكة، فطرق تعليم القوانين لا تكسب صاحبها الملكة ولو أصبح من أكبر النحاة، بل إن تعليم الملكة اللغوية مستغنية عن القوانين كما قرر ذلك عبقري الأمة العربية الإسلامية العلامة ابن خلدون حين قال في وضوح وجلاء : "إن ملكة اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم" .

وأخيرا يجب كذلك مراعاة الفرق بين النحو العلمي والنحو التعليمي، فالنحو العلمي هو كغيره من العلوم يمكن أن يكون فيه التحليلات والتعليلات العميقة التي لا يفهمها إلا المتخصصون في الميدان، أما النحو التعليمي فهو النحو المهذب الذي تراعى فيه مستويات الدارسين، وتقدم فيه المادة العلمية في أسلوب شيق ومناسب لكل مستوى من مستويات الدراسة. والله نسأل في الأخير أن يوفق خدام هذه اللغة كما وفق الذين من قبلهم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

المراجع :

1. ابن الأنباري : "لمع الأدلة في أصول النحو"، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، 1957.

2. ابن جني : "الخصائص"، تحقيق محمد علي النجار، مطبعة الهدى، بيروت، الطبعة 2، بدون تاريخ.
3. ابن خلدون : "المقدمة"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة 4.
4. ابن ماجة : "السنن"، ترقيم عبد الباقي.
5. سمر روح الفيصل : "المشكلة اللغوية المعاصرة"، الطبعة 1، 1992.
6. سيبويه : "الكتاب"، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة لكتاب، 1977، الطبعة 2.
7. شوقي ضيف : "تجديد النحو"، الرائد العربي، لبنان.
8. محمد كامل حسن : "اللغة العربية المعاصرة"، مطبعة دار المعارف بمصر، 1976.

أثر الفقهاء في مدرسة النحو الكوفية

أ. محمد فريحة

مقدمة :

عرف المسلمون بداية أن عليهم أن يقرأوا القرآن وأن يفهموه لأنه هو الذي ينظم حياتهم، ومن ثم نستطيع تفسير نشأة الحركة العقلية العربية بأنها كانت نتيجة نزول القرآن، فهي كلها من نحو وصرف وبلاغة وتفسير وفقه وأصول وكلام تسعى إلى هدف واحد هو فهم النص القرآني.

نشأ النحو لفهم القرآن، وفرق كبير بين علم يسعى لفهم النص وعلم يسعى لحفظه من اللحن ولو كانت الغاية منه حفظ النص من اللحن لما أنتج العربي هذه الثروة الضخمة في مجال الدرس النحوي، ومحاولة الفهم هذه هي التي حددت مسار المنهج لأنها ربطت درس النحو بكل المحاولات الأخرى التي تسعى لفهم النص، ومن ثم فإن دراسة منهج النحو عند العرب لا تكون صحيحة إلا مع اتصالها بدراسة العلوم العربية الأخرى وخاصة الفقه.

أثر الفقهاء في النحو عامة :

نشأ النحو في رحاب القرآن الكريم وتأصلت قواعده ونمت فروعه في ظلاله مما جعل النحاة يستشهدون به وبقراءاته المختلفة. ولقد اتفق القدماء على أن هناك مجموعة من المصادر الأساسية التي أخذوا عنها مادتهم اللغوية والنحوية، هي مصادر السماع والتي يمكن حصرها في القرآن الكريم وكلام العرب. ولقد احتل القرآن الرتبة الأولى فترى كل ذي فن منه يستمد وعليه يعتمد، فالفقيه منه يستنبط الأحكام ويستخرج منه الحلال والحرام، والنحوي يبني منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطإ القول وصوابه[1].

وحرص القدماء حين وضع قواعد النحو على أن تكون في ضوء الشواهد القرآنية والشعرية والنصوص النثرية المأخوذة من كلام العرب خلال فترة زمنية ومكانية محددة لذلك نستطيع أن نقول عن النحو إنه يعتمد على الشاهد في استخراج القاعدة النحوية وتوثيقها، والنحاة في ذلك متأثرون بالمنهج الأصولي الذي يعتني بالنصوص عناية بالغة ويراعيها في استخراج الأحكام الشرعية.

ويعد استنباط القواعد والأحكام غاية النظر في النصوص التي جمعت، والاستنباط من الشروط التي يجب توافرها في الفقيه، أي لابد أن تكون له المقدرة على استخراج الحكم من النص.

وهناك الكثير من النصوص التي تدل على اهتمام النحاة بالاستنباط، ومن ذلك قول ابن جني ت 392 هـ: ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك

1. صالح بلعيد "أثر الفقه في الدراسات اللغوية" مجلة الآداب والعلوم الانسايينة. قسنطينة : 2003، العدد 3، ص 68.

اسم كل فاعل ولا مفعول، وإنما سمعت البعض فقست عليه غيره، فإذا سمعت : قام زيد، أجزت ظرف بشر، وكرم خالد[1] .

وحين أراد القدماء تمييز اللغوي من النحوي كانوا يقارنوهما بالمحدث والفقيه، يدلنا على ذلك قول عبد الطيف البغدادي: اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه، وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما نقله اللغوي ويقيس عليه، ومثالهما المحدث والفقيه، فشأن المحدث نقل الحديث برمته، ثم إن الفقيه يتلقاه، ويتصرف فيه، ويبسط علله، ويقيس عليه الأمثال والأشباه[2].

فمن الأمور المعروفة في تاريخ الفكر الإسلامي هذا الاتصال العلمي الذي نشأ بين النحاة وعلماء أصول الفقه، حيث جارى علماء النحو الفقهاء في وضع أصول للنحو تشبه أصول الفقه، وأصول النحو الأربعة: السماع، والقياس، والإجماع، واستصحاب الحال هي نفسها الموجودة في علم أصول الفقه.

يقول أبو البركات الأنباري ت 577 هـ: أصول النحو: أدلة النحو التي تفرعت منها فروعه وفصوله كما أن فصول الفقه هي أدلة الفقه التي تنوعت عنها جملته وتفصيله[3].

---

1. ع/محمود سليمان ياقوت : أصول النحو العربي، دط الإسكندرية : 2000، دار المعرفة الجامعية، ص101.
2. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن : المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح. مُحَّد أبو الفضل إبراهيم وآخرون، ط. الحلبي : 1958، ج1، ص30.
3. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن : الاقتراح في علم أصول النحو، تح. أحمد مُحَّد قاسم، ط1. القاهرة: 1976 دار الكتب العلمية، ص93.

وكان ابن الأنباري ت 328 هـ يرى أن هذا القياس النحوي هو مثيل القياس قي الفقه فإن بينهما من المناسبة ما لا خفاء فيه لأن النحو معقول من منقول كما أن الفقه معقول من منقول[1].

وقد اتفق مؤرخو الحياة الإسلامية على أن تاريخ وضع "المنهج الأصولي" يعود إلى عصر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ووضع ابن عباس رضي الله عنه فكرة العام والخاص، وذكر عن بعض الصحابة الكرام فكرة المفهوم، لذلك كان المنهج عند علماء أصول الفقه، هو الذي ظهر أولا قبل نظيره عند النحاة ويستدلون ويعارضون، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وكيفية معارضتها وترجيحها، فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه، هو الذي ظهر أولا قبل نظيره عند النحاة.[2] ووضع قانونا كليا يرجع في مراتب أدلة الشرع إليه، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه، وحققوا تلك القواعد، وأوسعوا القول فيه[3] .

ولأجل هذا المنهج الذي كان في أيدي علماء أصول الفقه، فإنه كانت هناك صلة بينهم وبين النحاة من أجل الفائدة العلمية التي يمكن أن تعود على الدرس اللغوي على العموم والنحوي على الخصوص، بل إن بعض النحاة اتصل بالمحدثين ولزم حلقاتهم لما فيها من منهج أيضا يمكن أن يفيد في تكوينه علميا.

---

1. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن : الاقتراح في علم أصول النحو، تح. مُحَّد حسن مُحَّد حسن إسماعيل الشافعي ط1. بيروت: 1988، دار الكتب العلمية، ص11.

2. ع/محمود سليمان ياقوت : أصول النحو العربي، ص96.

3. ابن خلدون عبد الرحمن : المقدمة، ط3. بيروت: 1967، دار الكتاب اللبناني، ص816.

وهناك بعض التشابه في منهج الدرس النحوي ونظيره عند علماء أصول الفقه، ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

1- هناك ما يسمى في الفقه بإحداث قول ثالث، والتلفيق بين المذاهب، ويأتي هذا من أهل العصر الواحد إذا اختلفوا على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث، وهذا وارد في النحو تحت عنوان "تركيب المذاهب".

ومن ذلك أن النحاة اختلفوا حول إعراب الضمير المتصل بـ "لولا" كما في "لولاي لولاك" وقد أحدث أبو البقاء العكبري ت 616 هـ قولا ثالثا حين حكم عليه بأنه لا موضع له من الإعراب[1].

2 - هناك ما يسمى في الفقه ب"نقض الاجتهاد" والمقصود به أن المجتهد إذا اجتهد في حادثة من الحوادث ليتعرف حكمها، ثم غلب على ظنه الحكم، فإن كان يجتهد لنفسه وعمله بمقتضى اجتهاده ثم تغير ظنه لزمه أن ينقض ما بناه على الاجتهاد الأول، لذلك قال عمر رضي الله عنه في رسالته إلى أبي موسى الأشعري: "لا يمنعك قضاء قضيته اليوم، فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل"[2] .

وفي النحو ما يقول علماؤه : إذا أداك القياس إلى شيء ما، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره، فدع ما كنت عليه إلى ما هم عليه[3].

---

1. محمود سليمان ياقوت : أصول النحو العربي، ص98.
2. ع/محمود سليمان ياقوت : نفسه، ص 98.
3. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن : الاقتراح في علم أصول النحو، تح. أحمد مُحَّد قاسم، ص39.

3- أشار النحاة إلى أن "الحكم النحوي" ينقسم إلى واجب، وممنوع، وحسن قبيح، وخلاف الأولى، وجائز على السواء، وتلك الأقسام أثر من آثار تقسيم "الحكم الفقهي" عند علماء الأصول[1].

4- استعار بعض النحاة أبوابا من علم أصول الفقه، وعرضوا للموضوعات اللغوية والنحوية في ضوئها، وأخذوا بعض العناوين الموجودة عند الفقهاء، ويأتي على رأس أولئك ابن جني في خصائصه الذي عقد بابا عنوانه (بابا في الاستحسان) وهو مستعار من مصطلحات أصول الفقه. ونشير إلى أن "الاستحسان" أحد أدلة الأحكام الشرعية عند الحنفية[2].

5- اتبع بعض النحاة طرق الفقهاء في مؤلفاتهم، ويتضح ذلك في ترتيب المادة النحوية وتصنيفها، وتقسيم الكتاب إلى الموضوعات المختلفة، ومن أولئك أبو البركات الأنباري الذي اهتم بقضايا الخلاف النحوي بين علماء البصرة والكوفة، فجمع المسائل ورتبها على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة[3].

6 - هناك بعض المصطلحات المشتركة بين النحو وأصول الفقه، وقد أخذها النحاة من الأصوليين، ومنها "النسخ" و"التعليق".

---

1. محمود سليمان ياقوت، أصول النحو العربي، ص99.

2. محمود سليمان ياقوت، أصول النحو العربي، ص 108.

3. الأنباري كما الدين أبو البركات عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن أبي سعيد، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين، والكوفيين، تح. مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، ط4. مصر: 1961، المكتبة التجارية الكبرى، ج1، ص3.

أما النسخ فمعناه في اللغة الإزالة. قال تعالى : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَو مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾ (سورة البقرة/106) والعرب تقول نسخت الشمس الظل، أي أزالته، والمعنى: أذهبت الظل وحلت محله ويقال نسخ الشيب الشباب.

والنسخ في اصطلاح علماء الأصول هو رفع الشارع حكما شرعيا بدليل شرعي، وهو جائز عقلا وواقع سمعا في شرائع ينسخ اللاحق منها السابق. ومثاله أن النبي ﷺ أقام يستقبل بيت المقدس في مكة المكرمة وفي المدينة المنورة ثمانية عشر شهرا، ثم نسخ ذلك بطلب التوجه إلى الكعبة المشرفة. قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَام وَحَيْثُمَا كُنتُم فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَه وَإِنَّ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة/144).

والنواسخ جمع "ناسخ" وهي عبارة عن أفعال وحروف، فالأفعال (كان) وأخواتها، وأفعال المقاربة وأفعال الرجاء وأفعال الشروع، و(ظن) وأخواتها، و(لا) النافية للجنس، والحروف التي تشبه (ليس).

ورأى النحاة أن المبتدأ والخبر مرفوعان، وأن دخول (كان) و (إن) و(ظن) عليهما تغير من الرفع، فأطلقوا عليها كلمة "النواسخ" وأطلقوا اصطلاح "النسخ على هذا العمل لما فيه من رفع حكم وإبدال آخر به[1] .

1. محمود سليمان ياقوت، أصول النحو العربي، ص 110-111.

وأما (التعليق) فقد أخذه النحاة من الفقهاء، فالمرأة المعلقة[1] عندهم هي التي فقدت زوجها، أو التي طلقها زوجها ولم تستوف بعد عدة النكاح، فلا هي متزوجة ولا تستطيع أن تتزوج في الوقت نفسه فهي معلقة. قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُم فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالمُعَلَّقَة وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سورة النساء/129). هذا المعنى أخذه النحاة في باب "أفعال القلوب" فكما أن الزوج يكون موجودا، إلا أن زوجته لا تتمتع بحقوق الزوجية، كذلك العامل يكون موجودا، ولكنه لا يؤثر في المعمول، إذ أن التعليق في هذا الباب هو إبطال عمل (ظن) وأخواتها في اللفظ دون التقدير لاعتراض ماله صدر الكلام بينها وبين معمولها نحو "علمت" لزيد فاضل" فإن "زيد فاضل" حقه النصب، ولكن العامل ملغى في اللفظ عامل في المحل، فهو عامل لا عامل، فسمي معلقا أخذ من المرأة المعلقة التي لا هي متزوجة ولا هي مطلقة[2] .

وهذا وقد ذهب اللغويون والنحاة يفيدون من علل الفقهاء وعبر ابن جني عن ذلك حين ذكر كتب محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وقال: إنما ينتزع أصحابنا منها العلل لأنهم يجدونها منثورة في أثناء كلامه فيجمع بعضها إلى بعض بالملاحظة والرفق[3] وكان ابن يعيش يشرح المسائل النحوية من خلال ربطها بالشرع، ومن ذلك رأى أن المفرد أصل والجملة

---

1. محمود سليمان ياقوت، أصول النحو العربي، ص111.

2. نفسه، ص111 – 112.

3. ع/عبد الحميد الشلقاني : رواية اللغة، دط. القاهرة: دت. دار المعارف بمصر، ص313.

الواقعة صفة فرع عليه، وأن نظير ذلك في الشريعة شهادة المرأتين فرع على شهادة الرجل[1].

مما تقدم نخلص إلى أن العلوم كانت متداخلة والصلة بين الفقهاء والنحاة قوية من أجل الفائدة العلمية، وأن الدراسات النحوية استوحت صبغتها المنهجية والتعليل من الدراسات الفقهية التي سادت في العصور الأولى للإسلام.

مميزات النحو الكوفي :

قد كان إقليم العراق عامة (البصرة والكوفة) من أهم مراكز الحياة العلمية بما حوته هذه الأخيرة من فقه وحديث ولغة ونحو وصرف وترجمة لكتب الفلسفة والمنطق والطب[2] ومن هنا فقد اشتهرت البصرة بنزوعها إلى الدراسات الفلسفية والكلامية وخوضها في الترجمات، وذلك لما عرفته من احتكاك باليونان والفرس وعلى نقيض ذلك نزعت الكوفة إلى الدراسات النقيلة نزوعا كبيرا بحكم كونها منزلا للرواة والمحدثين وأصحاب الأخبار والأيام والشعراء والقراء، فغلب على درسها الاهتمام بالرواية والنقل وقل نظرها في العقليات والمنطق.

وتعود البداية الحقيقية للنحو الكوفي إلى الكسائي ت 189 هـ وتلميذه الفراء ت 207 هـ، حيث استطاعا أن يضعا أسس هذا النحو وأصوله وقد رسما صورة واضحة له، تميزه عن النحو البصري. فأصبح للكوفيين منهج خاص تكون بعد طول النظر، وكثرة الجدل، ويتخلص فيما يلي:

---

1. صالح بلعيد : أثر القرآن في الدراسات اللغوية، مجلة الآداب والعلوم الانسانية. ص72.

2. مُحَّد حسين آل ياسين : الدراسات اللغوية عند العرب، ط1. بيروت : 1981، دار مكتبة الحياة، ص46.

1. الاستشهاد بلهجات عرب الأرياف الذين وثقوا بلغتهم والقياس على القليل النادر، لأن ما ورد من اللغة يعد قليلا بالنسبة لما ضاع منها، مستندين إلى كلمة أبي عمرو ت 154 هـ حيث قال: ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم لجاءكم علم وافر، وشعر كثير[1].

2. الاستشهاد بالشعر العربي في الجاهلية والإسلام، ولو كان ما وصل إليهم منه بيت واحد. قال الأندلسي ت 745هـ في "شرح المفصل" الكوفيون لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلا، وبوبوا عليه[2] .

وفيما يلي بعض المواقف التي تبرهن لنا على مدى اتساع الكوفيين في القياس وسعيهم لأن يضعوا قاعدة لكل شيء حتى وإن كان شاذا.

- كان البصريون يذهبون إلى أن (حيث) تلزم الإضافة إلى جملة اسمية أو فعلية وأنه لا يجوز إضافتها إلى المفرد بينما ذهب الكسائي إلى جواز ذلك، بل جعله قياسا لقول بعض الشعراء.

أما ترى حيث سهيل طالعا نجما يضيء الشهاب لامعا[3]

---

1. ع/عبد العال سلم مكرم : القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، دط. القاهرة : 1968، دار المعارف بمصر، ص 122.

2. نفسه، ص 123.

3. ع/شوقي ضيف : مدارس النحوية، دط. مصر: 1968، دار المعارف، ص181.

– كان البصريون يوجبون الكسر في (إن) حيث تقع جوابا لقسم: (والله إن محمدا مسافر) لكثرة ذلك في السماع عن العرب، وخالفهم الكسائي، فجوز الكسر والفتح واختار فتحها مع ندرته في السماع[1] .

– هذا وقد اعتمد الفراء على القياس في استخراج واستنباط القوانين، وتحليل الجمل، وصياغة الأحكام النحوية كأن يقول مثلا "وعلى هذا قياس كل ما في القرآن منه" أو "ولو نويت الجزاء لجاز في قياس النحو" أو "فقس على هذا" أو "والقياس فيهما وفيما قبلهما واحد" أو "فقس بهذا ما ورد عليك" وغير ذلك من العبارات[2] فقد وقف إزاء الآية الكريمة: ﴿ولقد أوحينَا إلَى مُوسَى أن أَسْرِ بعبادِي فاضرب لهُم طريقًا في البحر يَبَسا لا تخافُ دَرَكًا ولا تَخْشَى﴾ (سورة طه/77) ملاحظا أن الفعل الأخير في هذه القراءة (ولا تخشى) معطوفا على فعل مجزوم وأثبتت في الألف، ووجه ذلك بأنه قد يكون مستأنفا وقد يكون في موضوع جزم وإن كانت في الياء، واحتج بأن العرب قد تصنع ذلك موردا قول بعض بني عبس:

ألم يأتيك والأنباء تنمي   بما لاقت لبون بني زياد

فأثبتت الياء في (يأتيك)   وهي في موضع جــزم [3]

وذهب هشام بن معاوية الضريرت 209 هـ إلى أن (كيف) قد تأتي حرف عطف واستدل على ذلك بقول بعض الشعراء :

إذا قل مال المرء لانت قناته   وهان على الأدنى فكيف الأباعد

---

1 . نفسه، ص 183-184.

2. ع/محمود سليمان ياقوت، أصول النحو العربي، ص404.

3. ع/شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 216 – 217.

وهو خطأ واضح لاقتران (كيف) بـ (الفاء) وقد خرجها ابن هشام توفي 761 هـ على مضاف محذوف تقديره : فكيف حال الأباعد[1].

3. الاستشهاد بالقرآن الكريم وبقراءاته : إذ كان الكوفيون أكثر من البصريين في الاستدلال بآياته والاحتجاج بأساليبه ذلك لأنهم يؤمنون أن القرآن جاء بلغات مختلفة فصيحة، فهو أحق بالقبول، أجدر بالأخذ حينما تبنى قاعدة، أو يقرر حكم، أو يصحح أسلوب.

وقد وضع الفراء منذ البداية في كتابه معاني القرآن أساسا لقاعدة قياسية فيقول: الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر[2] ومن ثم يتضح منهجه فهو يضع القرآن الكريم نصب عينيه ويتخذ من كل آية يقف عندها قاعدة واضعا أمامه الآية الكريمة باعتبارها المثل الأعلى في القياس فيقول: إنما يحسن الإضمار في الكلام الذي يجتمع ويدل أوله على آخره، كقوله: قد أصاب فلان المال، فبنى الدور والعبيد والإماء واللباس الحسن. فقد ترى البناء لا يقع على العبيد والإماء ولا على الدواب ولا على الثياب ولكنه من صفات اليسار، فحسن الإضمار لما عرف، ومثله في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون﴾ وقوله: ﴿بِأَكْوَابٍ وأَبَارِيقَ وكَأْسٍ مِن مَعِين﴾ (سورة الواقعة/18/17). ثم قال عزوجل: ﴿وفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ولَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُون وحُورٌ عِينٌ﴾[3] (سورة الواقعة 22/21/20)

1. شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 191.

2. ع/صابر بكر أبو سعود، القياس في النحو العربي من الخليل إلى ابن جني، دط. اسيوط: دت. مكتبة الطليعة ص 196.

3. نفسه، ص 196.

وفيما يلي طائفة من المسائل النحوية التي استشهد لها الكوفيون بالقرآن الكريم بينما رفض البصريون الاحتجاج بتلك الآيات :

1. القول في العطف على اسم "إن" بالرفع قبل تمام الخبر:

ذهب الكوفيون إلى أنه يجوز العطف على موضع إن "قبل تمام الخبر، واختلفوا بعد ذلك، فذهب أبوالحسن علي بن حمزة الكسائي إلى أنه يجوز ذلك على كل حال، سواء كان يظهر فيه عمل إن أم لم يظهر، وذلك نحو قولك: "إن زيدا وعمرو قائمان، وإنك وبكر منطلقان". وذهب أبو زكرياء يحي ابن زياد الفراء إلى أنه لا يجوز ذلك إلا فيما لم يظهر فيه عمل إن. وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز العطف على الموضع قبل تمام الخبر على حال.

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : الدليل على ذلك النقل : قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ آمنُوا والذِينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ والنَّصَارَى مَن آمنَ باللهِ واليَومِ الآخر وعَمِلَ صَالحًا فلاَ خوفٌ عليهمْ ولاَ هُم يَحزنُون﴾ (سورة المائدة/69) وجه الدليل أنه عطف (الصابئون) على موضع"إن" قبل تمام الخبر –وهو قوله: ﴿ مَن آمنَ باللهِ واليَومِ الآخر﴾[1] .

2 . هل يقع الفعل الماضي حالا :

ذهب الكوفيون إلى أن الفعل الماضى يجوز أن يقع حالا، وإليه ذهب أبو الحسن الأخفش توفي 211 هـ من البصريين وذهب البصريون إلى أنه

---

1. الأنباري كما الدين أبو البركات عبد الرحمن بن مُحَّد بن أبي سعيد، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين والكوفيين، ج1، ص 185-186.

لا يجوز أن يقع حالا، وأجمعوا على أنه إذا كانت معه "قد" أو كان وصفا لمحذوف فإنه يجوز أن يقع حالا.

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : الدليل على أنه يجوز أن يقع الفعل الماضي حالا النقل. فقد قال الله تعالى : ﴿إلاَّ الذِين يَصِلُون إلى قومٍ بينَكُم وبينهُم ميثاقٌ أو جاءوكُم حَصِرَتْ صدُورُهم أن يقاتِلوكُم أو يقاتِلوُا قومَهُم ولوشاءَ اللّهُ لسلَّطهُم عليكُم فلقَاتلُوكم فإن اعتَزلُوكُم فلم يُقاتلوكُم وألقَوا إليكم السَّلَمَ فمَا جعَلَ اللّهُ لكُم عليهِم سَبِيلا﴾ (سورة النساء/90) فحصرت : فعل ماضي، وهو في موضع الحال، وتقديره: حصرة صدورهم، والدليل على صحة هذا التقدير قراءة من قرأ (أو جاءوكم حصرة صدورهم) وهي قراءة الحسن البصري ويعقوب الحضرمي والمفضل عن عاصم[1].

3 . هل تكون إلا بمعنى الواو؟

ذهب الكوفيون إلى أن "إلا" تكون بمعنى الواو. وذهب البصريون إلى أنها لا تكون بمعنى الواو. أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لمجيئه كثيرا في كتاب الله تعالى، قال الله تعالى : ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَام وَحَيْثُ مَا كُنتُم فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُون للنَاسِ عليكُم حُجة إلاَّ الذِينَ ظَلَمُوا منهُم فَلاَ تخْشَوهُم واخْشَونِي ولأُتمَّ نِعمتِي عليكُم ولعلَّكُم تهتَدُون﴾ (سورة البقرة/150) أي ولا الذين ظلموا يعني والذين ظلموا لا يكون لهم أيضا حجة[2] .

4. هل تجوز إضافة الاسم إلى اسم يوافقه في المعنى ؟

---

1. نفسه، ص 252 – 253.

2. نفسه، ص 266.

ذهب الكوفيون إلى أنه يجوز إضافة الشيء إلى نفسه إذا اختلف اللفظان. وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز.

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لأنه قد جاء ذلك في كتاب الله كثيرا، قال الله تعالى : ﴿إنَّ هذا لهو حَقُّ اليَقين﴾ الواقعة /95 واليقين في المعني نعت للحق، لأن الأصل فيه الحق اليقين، والنعت في المعني هو المنعوت فأضاف المنعوت إلى النعت وهما بمعنى واحد وقال تعالى : ﴿وما كُنت بجانبِ الغَربِي إذ قَضيْنَا إلى مُوسَى الأمر ومَا كُنتَ منَ الشَّاهِدين﴾ القصص /44 والجانب في المعنى هو الغربي[1].

5. هل يجوز أن تجيء واو العطف زائدة ؟

ذهب الكوفيون إلى أن الواو العاطفة يجوز أن تقع زائدة، وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز.

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : الدليل على أن الواو يجوز أن تقع زائدة أنه قد جاء ذلك كثيرا في كتاب الله تعالى، قال الله تعالى :﴿ وسِيقَ الذينَ اتقَوْا ربَّهُم إلى الجنَّة زُمَرًا حتى إذَا جاءوهَا وفُتِحَت أبوابُها وقالَ لهُم خَزَنَتُها سلاَمٌ عليكُم طِبتُم فادخُلوهَا خَالدِين﴾ (سورة الزمر / 73) فالواو زائدة لأن التقدير فيه : فتحت أبوابها، لأنه جواب لقوله : (إذا جاءوها)، كما قال تعالى في صفة سوق أهل النار إليها : ﴿وسيقَ الذينَ كفرُوا إلى جهنَّم زُمَرًا حتى إذا جاءوهَا فُتحت أبوابُها وقالَ لهم خزنتُها ألم يأتكُم رسُل منكُم يتلُون عليكُم آياتِ ربّكُم وينذرُونكُم لقاءَ يومِكم هذا قالُوا بلَى ولكن حقَّتْ كلمة

---

1. الأنباري كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن أبي سعيد، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين والكوفيين، ج2، ص 436 – 437.

العَذاب على الكَافرين﴾ (سورة الزمر / 71) ولا فرق بين الآيتين، والشواهد على هذا النحو من التنزيل كثيرة[1] .

6. هل تأتي "أو" بمعنى الواو وبمعنى "بل"؟

ذهب الكوفيون إلى أن أو تكون بمعنى الواو، وبمعنى بل. وذهب البصريون إلى أنها لا تكون بمعنى الواو، ولا بمعنى بل.

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لأنه قد جاء ذلك كثيرا في كتاب الله تعالى، قال الله تعالى :﴿وأَرسلنَاهُ إلى مائةِ ألفٍ أو يزِيدُون﴾ (سورة الصافات / 47)، فقيل في التفسير : إنها بمعنى بل، أي : بل يزيدون، وقيل: إنها بمعنى الواو، أي : ويزيدون، والشواهد على هذا النحو من كتاب الله تعالى أكثر من أن تحصى[2] .

7. القول في معنى "إن" ومعنى اللام بعدها :

ذهب الكوفيون إلى أن "إن" إذا جاءت بعدها اللام تكون بمعنى "ما" واللام بمعنى إلا. وذهب البصريون إلى أنها مخففة من الثقيلة، واللام بعدها لام التأكيد .

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لأنه قد جاء ذلك كثيرا في كتاب الله، قال الله تعالى : ﴿وإِن كَادُوا ليَسْتَفِزُّونَكَ مِن الأرضِ ليخرِجُوك منها وإذًا لا يلبَثُون خلفَك إلاَّ قلِيلا﴾ (سورة الإسراء/76).

أي: وما كادوا إلاّ يستفزّنك[3]

---

1. نفسه، ص 456 – 457.

2. نفسه، ص 478 – 478 – 480.

3. الأنباري كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن مُحَّد بن أبي سعيد، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، ج2، ص 640-641.

8. هل تأتي ألفاظ الإشارة أسماء موصولة؟

ذهب الكوفيون إلى أن "هذا" وما أشبهه من أسماء الإشارة تكون بمعنى الذي والأسماء الموصولة. وذهب البصريون إلى أنه لا يكون بمعنى الذي، وكذلك سائر أسماء الإشارة لا تكون بمعنى الأسماء الموصولة.

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا: إنما قلنا ذلك لأنه قد جاء ذلك في كتاب الله تعالى قال الله تعالى: ﴿ثمّ أنْتم هَؤُلاَءِ تَقْتلون أنفسكم وتُخرجُون فريقًا منكُم من ديَارهِم تظَّاهرُون عليهِم بالإثمِ والعُدوَان وإن يأتُوكم أُسارَى تُفادُوهم وهو مُحرَّم عليكُم إخرَاجُهم أفتؤْمِنُون ببعضِ الكتَاب وتكفُرون ببعض فمَا جزَاءُ من يفعَل ذلكَ منكُم إلاَّ خزيٌ في الحياةِ الدُّنيا ويومَ القيامَةِ يُردُّون إلىَ أشدِّ العَذاب ومَا اللهُ بغافلٍ عمَّا يعمَلُون﴾ (سورة البقرة/85). والتقدير فيه: ثم أنتم الذين تقتلون أنفسكم، فأنتم: مبتدأ وهؤلاء: خبره، وتقتلون: صلة هؤلاء، وقال تعالى: ﴿ومَا تلكَ بيمينِكَ يَا مُوسَى﴾ (سورة طه/1) والتقدير فيه: ما التي بيمينك، فما: مبتدأ، وتلك: خبره، ويمينك: صلة تلك[1] .

4- الأخذ بالقراءات الشاذة :

إن القراءة القرآنية هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور، في كتابة الحروف وكيفيتها من تخفيف أو تثقيل أو غيرها[2] وهذا الاختلاف يعد مظهرا من مظاهر التنوع في أداء القرآن الكريم لأنه يستند إلى ضوابط أجمع عليها العلماء وجعلوها شروطا لصحة القراءة فما كان للنحو إلا أن يرد في الاستدلال على صحتها، فبعد صحة السند إلى الرسول ﷺ وموافقة رسم

---

1. نفسه، ص 717.

2. نفسه، ص 478 – 478 – 480.

المصحف لا بد أن تكتمل صحة القراءة بموافقتها وجها من وجوه العربية[1] ولذلك كان للنحويين دور كبير في توجيه القراءات القرآنية والرجوع إليها في إثراء قضايا النحو، وفك مسائله مما استوحى وأغلق على الإفهام. ولأن القراءات القرآنية أوثق وأصح متنا وسندا، فقد دفعت بالعلماء إلى الاستناد إليها في تقعيد الأصول وضبط كثير من الفروع خاصة وأن شرعية السنة قد جعلت من مصدر القراءات رافدا لا ينضب في التواصل مع قضايا النحو العربي.

قال الدكتور الأفغاني في كتابه "في أصول النحو": وقد جرى عرف العلماء على الاحتجاج برواياته (يعني: القرآن) سواء أكانت متواترة أم روايات آحاد أم شاذة والقراءة الشاذة التي منع الفراء قراءتها في التلاوة يحتج بها في اللغة والنحو إذ هي على كل حال أقوى سندا وأصح نقلا من

كل ما احتج به العلماء من الكلام العربي غير القرآن[2]. وقال عبد الخالق عظيمة: القرآن الكريم حجة في العربية بقراءاته المتواترة وغير المتواترة كما هو حجة في الشريعة. فالقراءة الشاذة التي فقدت شرط التواتر لا تقل شأنا من أوثق ما نقل إلينا من ألفاظ اللغة وأساليبها. وقد أجمع العلماء على أن نقل اللغة يكتفي فيه برواية الآحاد[3].

---

1. نفسه. ص 153.

2. ع/ التواتي بن التقاتي "هل النحو العربي في حاجة إلى التيسر؟" مجلة اللسانيات. الجزائر: 2003، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، العدد 8، ص 48.

3. نفسه، ص 48.

لقد طبعت الكوفة بالقراءات القرآنية والقراءات علم يعتمد على الرواية ويعتمد على التلقي والعرض فالكوفيون يأخذون بالقراءات السبع وبغيرها من القراءات، يحتجون بها، فيما له نظير من العربية ويجيزون ما ورد فيها مما خالف الوارد عن العرب، ويقيسون عليها، فيجعلونها أصلا من أصولهم التي يبنون عليها القواعد والأحكام، وهم إذا رجحوا القراءات التي يجتمع عليها القراء لا يرفضون غيرها، ولا يغلطونها[1] ولعل اعتمادهم عليها كثيرا في تأصيل قواعدهم النحوية يعود إلى أن الكسائي رأس المدرسة من القراء السبع إضافة إلى أن الكوفة حظيت بنزول سبعين رجلا من أصحاب الرسول ﷺ ممن شهدوا بدرا[2]

نعم إن الكوفيين كانوا أقل تخطئة للقراءة، وأكثر قبولا لها من البصريين، ولكن ذلك لا يرجع في نظرنا إلى احترامهم للقراءات وحسن تقبلهم لها، إنما يرجع ذلك إلى ما عرفوا به من توسع في أصول اللغة، وقياس على القليل، واعتداد بالمثال الواحد[3] فأمكنهم بذلك توجيه كثير من القراءات وتخريجها على مقتضى أصولهم، ومن هنا قلت تخطئتهم لها. وفيما يلي مواقف أشهر أعلام الكوفة من القراءات الشاذة.

1- الكسائي:

لقد اجتمع في هذا لرجل النحو والقراءة، ولكونه من القراء فقد كان له أثر بارز في ميدان القراءات، وإذا صح لنا القول، تصارع في شخصه

1. ع/ محمود سليمان ياقوت، أصول النحو العربي، ص 550.
2. التواتي بن التواتي، القراءات الشاذة وأثرها في الدراسات النحوية والأحكام الشرعية، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة الجزائر: دت. ص 236.
3. ع/أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ط4، بيروت: 1982، عالم الكتب، ص27.

الاختصاصان معا: القراءة والنحو، ولكل منهما أثر في تكوينه العلمي وفي موقفه من القراءات فقد كان يحتج لها ويؤيدها بكل مد انتهى إليه من لغات العرب أما موقفه من القراءات الشاذة فلم يردها بكل كان يلتمس لها وجها في النحو ويخرجها عليه. ولتوضيح ذلك نذكر نماذج له من هذه القراءات.

– أجاز الكسائي العطف على محل اسم (إن) قبل مجيء الخبر استنادا إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ وملاَئِكَتَهُ يُصلُّونَ عَلىَ النَّبي يَا أَيُّهَا الذِينَ آمنُوا صَلُّوا علَيهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيما﴾ (سورة الأحزاب/56). على قراءة من رفع (ملائكته) فخبر (إن) محذوف تقديره : (إن الله يصلي)، وأغنى عنه خبر الثاني وكذلك لو قلت: "إن عمرا وزيد قائم" فرفعت (زيدا) جاز على أن يكون مبتدأ وقائم خبره أو خبر إن[1].

– أجاز الكسائي في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيئات قَال يَا قَومِ هَؤُلاَء بنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُم فاتَّقُوا اللهَ ولاَ تُخْزُونِ في ضَيْفِي أَليسَ منكُم رجُلٌ رَشِيد﴾ (سورة هود/78) قراءة (هؤلاء بناتي هن أطهر) بالنصب مخالفا البصريين[2]

– وأجاز في قوله تعالى: ﴿واسْتبقَا البَابَ وقَدَّت قَمِيصَهُ من دُبُرٍ وَأَلفَيَا سَيِّدَها لدَا البَاب قَالت مَا جزَاءُ مَن أَرَادَ بأهلِكَ سُوءا إلاَّ أن يُسْجَن أو عَذَابٌ أَلِيم﴾ (سورة يوسف/25) النصب على حذف الفعل استنادا إلى قراءة زيد بن علي (أو عذابا أليما)[3] .

1. التواتي بن التواتي، القراءات الشاذة وأثرها في الدراسات النحوية والأحكام الشرعية، ص 295 – 296.

2. نفسه، ص 296.

3. نفسه، ص 298.

2 – الفراء :

توقف الفراء أمام بعض القراءات الشاذة ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ارجِعُوا إِلَى أَبِيكُم فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ومَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلغَيْبِ حَافِظِين﴾ (سورة يوسف/81). الذي قال عنه الفراء : ويقرأ سرق ولا اشتهيها؛ لأنها شاذة، وكأنه ذهب إلى أنه لا يستحل أن يسرق ولم يسرق[1]

غير أن له مقياس بالنسبة لقبول القراءة الشاذة وهو أن تتفق والتفسير، وأن يكون له وجه في العربية فإذا خرجت عن هذين الشرطين فلا يقبلها. وننظر كيف يقيم هذه الآية : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَتَّعْتَهُم وآبَاءَهُم حَتَّى نَسُوا الذِّكْر وكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ (سورة الفرقان/18). قال: الفراء مجتمعة على نصب النون في نتخذ إلا أبا جعفر المدني فإنه قرأ: (أن نتخذ) بضم النون (من دون)، فلو لم تكن في (أولياء) (من) كان وجها جديدا، وهو على شذوذه وقلة من قرأ به قد يجوز. وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَو نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ المُشرِكِين﴾ (سورة البقرة/135) وكذا قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ ومَن أَحسنُ مِنَ اللهِ صبغةً ونحنُ له عَابدُون﴾ (سورة البقرة/138) فقال ملة وصبغة بالنصب، فلو رفعت الصبغة والملة كان صوابا. فعلى رواية النصب يقدر فعل (نتبع ملة وصبغة) ومن رفع أراد هي ملة وصبغة إبراهيم، وهي صبغة الله[2] .

---

1. ع/محمود سليمان ياقوت، أصول النحو العربين، ص 416.

2. ع/التواتي بن التواتي، القراءات الشاذة وأثرها في الدراسات النحوية والأحكام الشرعية، ص 299 – 100.

ومن خلال النماذج القرآنية التي أوردناها ظهر لنا أن الفراء يعتمد في أحكامه النحوية على كل القراءات وهو ينطلق من مبدإ إن القرآن لم يشتمل كل وجوه العربية الجائز النطق بها ولهذا ينص على جواز النطق بهذا الوجه أو ذاك مما لم تجيء به الآيات، ويستعمل علمه الواسع بالعربية في مناقشة القراءات احتجاجا، وتوجيها، ونقدا، واختيارا، وترجيحا.

3 – ثعلب 291 هـ :

أما ثعلب فكان شديد الحرص في مخالفة بعض القراءات حيث قال: إذا اختلف الإعرابان في القراءات لم أفضل إعرابا على إعراب، فإذا خرجت إلى كلم الناس فضلت الأقوى. وهذا يصور مدى حرصه واحترازه كما يصور ما يمكن استنتاجه من أنه كان يعد النص القرآني لا ينبغي أن يحاط بخلافات حيث يقول: السنة تقضي على اللغة واللغة لا تقضي على السنة[1].

مما سبق يظهر لنا أن تعامل النحاة الكوفيين مع القراءات القرآنية كان يسير تحت تأثير أسسهم المنهجية، ذلك أننا عرفنا مدى توسعهم في أصول اللغة وعدم تحرجهم في القياس على القليل والمثال الواحد فكانوا كذلك مع القراءات، حيث فتحوا الباب واسعا أمامها جميعا وأخذ موقفهم منها طابع الاحترام باعتبارها سنة، والأخذ بها دون مخالفتها، وكانوا ينظرون إليها على أساس أنها الأقوى في مجال الاستشهاد من الشعر وغيره.

فقد كانت السمة الغالبة على النحويين الكوفيين أنهم درسوا المادة اللغوية على أساس وصفي، أي بطريقة تقريرية تبتعد عن التعليل الفلسفي وكلمة الكسائي في ذلك مشهورة حين "سئل في مجلس يونس عن قولهم:

---

1. ع/صابر بكر أبو سعود، القياس في النحو العربي من الخليل إلى ابن جني، ص 217.

لأضربن أيهم يقوم، لم يقال: لأضربن أيهم؟ فقال: أي "هكذا خلقت"[1] هي جوهر المنهج الوصفي، والمنهج الوصفي هو أساس الدرس النحوي.

ولنضرب مثالا على ابتعاد الكوفيين عن التأويل العقلي، واقترابهم من المنهج الوصفي. فقد قرر البصريون أن الفاعل لا يكون جملة، ولكنهم يصطدمون بنصوص عربية لا يرقى إليها الشك تؤكد وقوع الجملة فاعلا، فيضطرون إلى تأويل النص والإسراف فيه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بدَا لهُم منْ بَعْد مَا رَأَوا الآيات لَيَسْجُنَنَّهُ حَتَّى حِين﴾. (سورة يوسف/35) أين فاعل الفعل (بدا)؟

اضطر البصريون أن يدوروا حول النص، فقالوا إن الفاعل هنا ضمير مستتر تقديره (هو). فعلى أي شيء يعود هذا الضمير؟ قالوا إنه يعود على الصدر المفهوم من الفعل، والتقدير: ثم بدا لهم بداء هو... ثم قالوا إن جملة (ليسجننه) جملة تفسيرية تفسر هذا الضمير المستتر العائد على البداء.

ومن الواضح أن هذا الضمير لم يظهر قط وأن البداء خيال. أما الكوفيون فقد قالوا وفقا لمذهبهم : جملة (ليسجننه) هي الفاعل. وليس من شك في أن هذا هو الصحيح، ووقوع الجملة فاعلا ليس أمرا غريبا في اللغات[2] .

فإذا أخذنا نحقق في هذه القواعد والأركان التي اعتمدها الكوفيون في دراستهم وبناء قواعدهم النحوية وجدنا طابعين كبيرين تشيع فيهما هما طابع الاتساع في الرواية وطابع الاتساع في القياس.

الجوانب التي حدث فيها تأثير الفقه في النحاة الكوفيين :

---

1. ع/ عبده الراجحي، دروس في كتب النحو، دط. بيروت: 1975، دار النهضة العربية، ص 54.
2. عبده الراجحي، دروس في كتب النحو، ص 54 – 55.

قد عنيت الكوفة بوضع أصول الفقه الإسلامي وشغلت بأحد مذاهبه هو مذهب أبي حنيفة النعمان كما اتجهت إلى مدارسة القراءات علما له أصوله وقواعده. ومن نحاة القرن الثاني الهجري "أبو جعفر الرؤاسي ت 190 ه، وهو من أعيان الشيعة الباطنية، وكان أستاذا للكسائي والفراء ومعاصرا للخليل بن أحمد ت 175 ه، وقد ألف كتابا في النحو اسمه (الفصيل) وقال: بعث الخليل إلي يطلب كتابي فبعثته إليه فقرأه، ووضع كتابه. قال: وفي كتاب سبويه ت 180 ه قال الكوفي يعني به الرؤاسي[1].

فهذا أحد أئمة الباطنية، وقد عرفه وتأثر به أربعة من أئمة النحو "الخليل وسبويه والكسائي والفراء" فهلا يحق القول: إن مذهبه في تفسير القرآن قد أثر في نظرته لنصوص اللغة !!

لا ريب أن الكسائي يعد إمام مدرسة الكوفة فهو الذي وضع رسومها ووطأ منهجها، وفيه يقول أبو الطيب اللغوي: كان عالم أهل الكوفة وإمامهم، إليه ينتهون بعلمهم، وعليه يعولون في روايتهم[2].

ويقول ابن الأعرابي : كان الكسائي أعلم الناس، ضابطا عالما بالعربية، قارئا صادقا.[3]

---

1. أبو الفرج مُحَّد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالنديم، الفهرست، ط1، بيروت: 1966، دار الكتب العلمية ص 10.

2. شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 175.

3. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة تح. مُحَّد أبو الفضل إبراهيم، دط. بيروت: دت. المكتبة العصرية، المجلد الثاني، ص 163.

استطاع الكسائي أن يفيد من الفقه في تفسير مقاييسه في النحو، من ذلك مجلسه مع أبي يوسف في حضرة الرشيد حين سأل صاحبه فقال : ما تقول في رجل قال لامرأته: أنت طالق إن دخلت الدار؟ فقال أبو يوسف: أن دخلت فقد طلقت. فقال الكسائي: خطأ، إذا فتحت أن فقد وجب الأمر، وإذا كسرت فإنه لم يقع بعد[1] .

ومن الأمثلة التي تصور أيضا تأثير ثقافته الفقهية على قياسه ما رواه الدوري حيث سأل الكسائي أبا يوسف الفقيه في حضرة الرشيد: ايش تقول في رجل قال لامرأته أنت طالق طالق طالق. قال: واحدة. قال: فإن قال لها أن طالق أو طالق أو طالق؟ قال: واحدة. قال: فإن قال لها أنت طالق وطالق وطالق. قال واحدة. قال الكسائي: يا أمير المؤمنين، أخطأ يعقوب في اثنين وأصاب في اثنين. أما قوله: أنت طالق طالق طالق فواحدة؛ لأن، الاثنتين الباقيتين تأكيد كما تقول أنت قائم قائم قائم وأنت كريم كريم كريم. وأما قوله: أنت طالق أو طالق أو طالق فهذا شك وقعت الأولى التي بيقين. أما قوله: أنت طالق ثم طالق ثم طالق فثلاث لأنهن نسق، وكذلك قوله: أنت طالق وطالق وطالق[2] .

ولم يكن الفراء بعيدا عن الدراسات القرآنية، وإنما اشتغل بها وكان له بها عناية شديدة واهتمام بالغ، وكانت آيات الذكر الحكيم ركيزة قواعده، فهو دائم الاستقراء للكتاب الكريم ينفذ إلى أسلوبه في الاستعمال ويوضح أوجهه المختلفة.

---

1. ع/صابر بكر أبو سعود، القياس في النحو العربي من الخليل إلى ابن جني، ص 189.
2. ع/صابر بكر أبو سعود، القياس في النحو العربي من الخليل إلى ابن جني، ص 189 – 190.

وقد اهتم بوضع القواعد النحوية على أساس المعني ومن أمثلة ذلك توقفه أمام قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابتَلَىَ إبرَاهِيمَ ربُّهُ بكلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُن قَالَ إِنّي جَاعِلُكَ للنَّاسِ إِمَامًا قَالَ ومِن ذُرِّيَتِي قَالَ لاَ ينَالُ عَهْدِي الظَّالِمِين﴾ (سورة البقرة 124) و(عهد) فاعل مرفوع بالضمة المقدرة لاشتغال المحل بكسرة المناسبة، وياء المتكلم مضاف إليه، و(الظالمين) مفعول به. قال الفراء: لا يكون للمسلمين إمام مشترك. وفي قراءة عبد الله (لا ينال عهدي الظالمون). وقد فسر هذا؛ لأن ما نالك فقد نلته، كما تقول: نلت خيرك ونالني خيرك وعلى تلك القراءة (عهد) مفعول به والياء مضاف إليه، و(الظالمون) فاعل[1].

أضف إلى ذلك أن تعويل الفراء في قياسه على المعنى وموقفه من تفسير النص، ظاهرة تتعلق بقضية مهمة وهي مدى علاقة النص بالملتقي، والفراء لا يقف من النص موقفا جامدا وإنما يقلب وجوهه محاولا الدخول إلى دلالات أخرى للنص، فهو لا تقنعه الدلالة الواحدة أو التفسير الواحد، وإنما تراه يأخذ بأطناب الكلام حتى يتعرف على كل ما يمكن أن يستنبطه منه من قواعد ويفرع فيه من أقيسة. يقول في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهُا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوجَهَا وبَثَّ مِنْهُما رِجَالاً كَثِيرًا ونِسَاءً واتَّقُوا اللهَ الذِي تَسَاءلُون بِه والأَرحام إِنَّ اللهَ كَان عَليكُم رَقِيبا﴾ (سورة النساء/1) واحدة لأن النفس مؤنثة فقال واحدة لتأنيث النفس، وهو يعني آدم، ولو كانت من نفس واحد لكان صوابا يذهب إلى تذكير الرجل[2]. ومن ثم لا يقتصر قياسه على المعنى الذي يمكن أن يوحي

1. ع/محمود سليمان ياقوت، أصول النحو العربي، ص 415 – 416.
2. ع/ صابر بكر أبو سعود، القياس في النحو العربي من الخليل إلى ابن جني، ص 202.

به النص وإنما هو مرتبط بالمتلقي أيضا، بل أكثر من هذا هو مرتبط عنده بنية المتلقي يوجه النص بها، يقول في قوله تعالى: ﴿قُل أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَمَاوَاتِ والأَرْض وهُو يُطعِمُ ولا يُطعَم قُل إِني أُمرتُ أن أكُون أولَ من أَسلَم ولا تكُونَنَّ من المُشركِين﴾ (سورة الأنعام/14) مخفوض في الإعراب تجعله صفة من صفات الله تبارك وتعالى ولو نصبته على المدح كان صوابا وهو معرفة، ولو نويت الفاطر الخالق نصبته على القطع، إذ لم يكن ألف ولام، ولو استأنفته فرفعته كان صوابا، كما قال: ﴿رَبِّ السَّمَواتِ والأَرضِ ومَا بَينَهُما الرَّحمنِ لاَ يملكُونَ منهُ خِطَابًا﴾[1] (سورة النبأ /37).

وهكذا سار الفراء باسطا أجنحة القياس مفسرا الأوجه التي تحتملها الكلمة معنى وإعرابا ثم يخرج عن النص القرآني إلى استعمالات الكلمة ودورانها في لغة العرب.

ولعل ثعلبا من أبرز ما يمكن أن يمثل مبدأ الالتزام في القياس حيث يقول الأستاذ أحمد أمين: يبدو لي أن أسلوبه في القياس إنما هو انعكاس لتأثره وتمثله لمذهب الحنابلة في الفقه، فإذا كان الحنابلة ملتزمين بالحديث، وكانوا لا يرجحون القياس، حتى أحمد بن حنبل كان إذا وجد حديثا مرسلا أو ضعيفا رجحه على القياس، ولا يستعمل القياس إلا عند الضرورة القصوى ويكره الفتوى في مسألة ليس فيها أثر[2].

مما تقدم نخلص إلى أن رقي وازدهار الحركة العلمية والثقافية والدينية للفترة السابقة والمزامنة لظهور مدرسة النحو الكوفية أدى إلى ظهور حركة

---

1. نفسه، ص 202-203.

2. أحمد أمين، ضحى الإسلام، ط10. بيروت: دت. دار الكتاب العربي، ج2. ص 235.

نشيطة بين العلوم (تأثير وتأثر) مما جعل النحاة الكوفيين يعتمدون في وضعهم لقواعد النحو وتثبيتها نفس المصادر التي اعتمدها الفقهاء لاستنباط الأحكام الشرعية. كما اعتمدوا نفس الآليات (السماع والقياس والعلة والاجتهاد واستصحاب الحال) محاذين في ذلك حذو الفقهاء حريصين على أن لا تتنافى قواعدهم تلك مع الأحكام الدينية. ولما لم ينظروا إلى اللغة كمادة جامدة فإنهم وباعتبار المتلقي فسروا معاني اللغة وقواعد النحو بالمعاني الفقهية المستمدة من العلوم الشرعية التي ظهر سلطانها على التفكير النحوي حيث اعترف النحاة بأنهم احتذوا في أصولهم أصول الفقه وخاصة عند الحنفية.

دور معهد العلوم اللسانية (جامعة الجزائر) في ترقية اللغة العربية (1964-1986)

د. محمد يحياتن
قسم الترجمة، جامعة الجزائر

1. مقدمة :

ستتناول ورقتي هذه الدور القيم الذي قام به معهد العلوم اللسانية والصوتية سابقا، والذي أصبح اليوم يعرف بـ "مركز الدراسات والأبحاث من أجل ترقية اللغة العربية"، الذي تشرفت بالانتساب إليه ما بين 1979 و1986 في النهوض باللغة العربية في مجالات التعليم والمصطلح والمعالجة الحاسوبية للغة والدراسة الصوتية، إلخ.

تاريخ إنشاء المعهد والمهام الموكلة إليه :

أنشئ المعهد في سنة 1964 وذلك بمرسوم وزاري رقم 30-66 الصادر في 1964/04/11 وقد أوكل إليه إنجاز ما يلي :

"أن يثير وينسق أبحاثا علمية في جميع الظواهر اللسانية وفي مختلف ميادينها كالدراسات الوصفية والصياغة الرياضية للغات وإحصاء المفردات والتراكيب والصوتيات الآلية وتجويد الصوت وعلم الأمراض اللغوية وعلم اللسان التربوي وجغرافية اللغة وغير ذلك"[1].

وهكذا سعى المعهد، غداة بروزه إلى الوجود إلى توفير الثقافة اللسانية وذلك بالتعريف بأحدث ما توصل إليه البحث اللساني في العالم. وقد تمّ له ذلك من خلال نشر المقالات المطولة في صلب المجلة التي كان ولا يزال يصدرها مجلة اللسانيات ، وقد تناولت هذه المقالات تاريخ النظريات اللسانية وتطورها ومفاهيمها الأساس، ابتداء من العصور الموغلة في القدم حتى زماننا هذا.

غير أن المعهد - ممثلا في مديره الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح - لم يذهل عن التراث اللغوي العربي ، فنهض ولا يزال بالتعريف به بإبراز ألطف ما ابتدعه النحاة واللغويون العرب القدامى أمثال الخليل وسيبويه وابن جني وغيرهم.

وينبني مسعى الأستاذ الحاج صالح - ومن ثمّ كل من تحلق حول حلقته المسماة بـ " المدرسة الخليلية الجديدة" على فرضيات ثلاث هي :

أ. إن النحاة العرب القدامى اعتمدوا مفاهيم وتحاليل تختلف اختلافا جوهريا عن تلك التي اعتمدها النحاة المتأخرون.

ب. الفرضية الثانية تزعم بأن هذه المفاهيم والتحاليل لا تقلّ أهمية وشأنا عن تلك التي تمخّض عنها العلم في عصرنا هذا.

---

1. أنظر مجلة اللسانيات، المجلد الأول، الجزء الأول، 197، ص 50-53.

ت. أما الفرضية الثالثة فتحاول الإبانة على أن هذه المفاهيم والتحاليل تنطوي على قيمة استكشافية heuristique تضارع تلك التي تتوفر عليها اللسانيات الغربية الحديثة[1].

وفضلا عن هذا وقبل هذا فإن جهود هذه المدرسة ترمي إلى إزالة الغبن الذي لحق بالتراث اللغوي العربي الذي تجاهلته الكتب والمصنفات التي أرخت للدراسات اللغوية البشرية.

هذا ولمّا كانت مجلة اللسانيات (ومن ورائها المعهد) قد اختطت لنفسها وجهة معينة قوامها ربط البحث اللساني الأساسي - أي النظري- بالتطبيق فإنها قد أولت اللسانيات التطبيقية عناية هامة، الأمر الذي جعلها تخصص جزءا كبيرا من صفحاتها لإبراز ما توصلت إليه من مكتسبات في حقل تعليمية اللغات بوجه خاص وذلك بقصد استثمارها في تعليم العربية لأهلها أو لغير الناطقين بها.

1. المشاريع العلمية اللغوية :

أ) الرصيد اللغوي المغاربي:

في سنة 1967، دعا وزراء التربية المغاربيون إلى ضبط سياسة تربوية موحدة تتمثل في وضع رصيد لغوي وظيفي لتلاميذ الطور الأول من التعليم الابتدائي. والمقصود بالرصيد اللغوي العربي الوظيفي Arabe fonctionnel هو قائمة بالألفاظ اللغوية العربية التي يحتاج إليها التلميذ المغاربي في هذا الطور من

---

1. أنظر رسالة الدكتوراه للأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح الموسومة :

Linguistique arabe et linguistique générale : Essai d'epistémologie et de méthodologie du 'ilm al'arabiyya, thèse de doctorat d'état, 2 tomes, Paris IV, 1979.

التعليم ليؤدي أغراضه التبليغية. وبعبارة أخرى هو مجموعة من المفردات الوظيفية التي تساعده على تبليغ ما يريد من أفكار وأحاسيس وكذا التعبير عمّا جدّ من مفاهيم حضارية يعجز في أحيان كثيرة أن يجد لها مقابلا في العربية. وكان همّ واضعي هذا الرصيد أيضا تقريب الفصحى من العامية وذلك بتبني العديد من الألفاظ العامية التي لها أصل فصيح.

وقد أوكل هؤلاء الوزراء مهمة إنجازه إلى ثلاث مؤسسات هي:

- معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط.
- قسم اللسانيات أو الألسنية التابع لمركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، جامعة تونس.
- معهد العلوم اللسانية والصوتية، بجامعة الجزائر.

ولتحقيق هذا المشروع، عمدت المؤسسات المذكورة إلى منهجية عمل حصيفة تتمثل في :

أ. الوقوف على ما هو متداول في الكتب المدرسية المعتمدة في التعليم بقصد حصر النقائص وسدّ الفراغات لاسيما بالنسبة للمفاهيم الحديثة التي لا نجد لها ألفاظا عربية تدلّ عليها.

ب. الوقوف على ما يدور على ألسنة الأطفال من كلام ومفردات وكذلك الأمر بالنسبة لما يكتبون للنظر فيما تمثلوه وما ينبغي تزويدهم به ليثروا زادهم اللغوي، كما أن هناك غاية أخرى هي السعي إلى توحيد الأرصدة اللغوية المستعملة في هذه الأقطار.

ت. بعد الفراغ من هذه الأعمال التي تكفل معهد العلوم اللسانية بتنسيقها وجردها تمّ استخلاص الرصيد اللغوي الوظيفي.

أ) الرصيد اللغوي العربي (1976 – 1986) :

لكن سرعان ما أصبح هذا المشروع مشروعا قوميا وذلك عندما أقدمت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على تبنيه وتعميمه على كلّ البلدان العربية. وفضلا عن هذا رأت المنظمة وضع رصيد لغوي لكل سنوات المرحلة الابتدائية، ويعرّف الرصيد كالتالي: "هو مجموعة من المفردات والتراكيب العربية الفصيحة أو الجارية على قياس كلام العرب التي يحتاج إليها التلميذ في مرحلة التعليم الابتدائي والثانوي حتى يتسنى له التعبير عن الأغراض والمعاني العادية التي تجري في التخاطب اليومي من ناحية، ومن ناحية أخرى التعبير عن المفاهيم الحضارية والعلية الأساسية التي يجب أن يتعلمها في هذه المرحلة من التعليم".

ما هي المبادئ المنهجية التي انبنى عليها المشروع؟

1. ضرورة الرجوع إلى الواقع الذي يعيشه المتعلم في وسطه واستقراء المواد التي يتلقاها.

2. الاعتماد على أنواع ثلاثة من المعطيات: ما يقرأه المتعلم في الكتب المقررة وما يكتبه في كتاباته وما يسمعه في محيطه وما ينطق به هو نفسه.

3. ضرورة الاعتماد على عدد من المقاييس العلمية والمعطيات الموضوعية لحصر هذه المعلومات وتحليلها ثمّ تقويمها وضبط الرصيد الوظيفي في نهاية المطاف.

أما بالنسبة لاستخلاص الرصيد ، فلا بدّ من :

– الاعتماد على شبكة من المفاهيم العالمية: أي تلك التي يشترك في معرفتها أكثر الأطفال العرب وكذا المفاهيم التي يتفق في معرفتها الأطفال العرب وغيرهم.

– تغطية جميع المفاهيم التي ليس لها لفظ عربي فصيح يدلّ عليها.

والجدير بالذكر أنه قد تمّت بمعهد العلوم اللسانية المعالجة الحاسوبية لكل هذه المعطيات. كما تمّ إقرار الرصيد اللغوي العربي في اجتماع علمي بتونس في سنة 1986، حيث نظر الباحثون العرب في الحصيلة لفظا لفظا وأقروا ما رأوه جديرا أن يكون من صلب هذا الرصيد .

ب) مشروع الذخيرة اللغوية العربية : Thésaurus de la langue arabe

المقصود بالذخيرة اللغوية العربية هو عبارة عن قاموس جامع للألفاظ العربية التي استعملت منذ القديم إلى غاية أيامنا هذه. ويعتمد في وضعه على المعالجة الحاسوبية. وفوائد هذا القاموس يمكن حصرها في النقطتين التاليتين :

– حصر كل ما جاء في المعاجم اللغوية العربية وكذا كل ما ورد في أمهات الكتب القديمة والحديثة (بما فيها المصطلحات) والآثار الأدبية والرسائل وغيرها.

– وهذا العمل الضخم من شأنه أن يساعد الباحث الراصد لتطور اللغة من إثبات تاريخ كل كلمة عبر الزمان وتطور معانيها. ثمّ بالنسبة إلى المصطلحات فإن هذا العمل قد يساعد الباحث على إيجاد اللفظ العربي المناسب الذي يؤدي هذا المفهوم أو ذاك.

أما من حيث الصورة أو الصور التي سيكون عليها هذا القاموس الجامع، فهي كالتالي :

- الترتيب الأبجدي العام (الانطلاق من اللفظ).
- الترتيب بحسب المجالات المفهومية (الانطلاق من المفهوم).
- الترتيب بحسب العلوم والفنون.
- الترتيب بحسب شيوع الكلمة (عدد المرات التي ظهرت فيها في النصوص).

إن هذا المشروع لا يزال جاريا اليوم في كنف مركز الدراسات والأبحاث من أجل ترقية اللغة العربية وهي التسمية الجديدة التي أطلقت على هذه المؤسسة. وقد عولجت العديد من المعطيات النصية من شعر وفلسفة وتاريخ...

د) وضع طريقة لتعليم العربية لأساتذة الجامعة ذوي التكوين المفرنس

هناك فريق من الباحثين المنتسبين للمعهد عكفوا على وضع طريقة جديدة لتعليم العربية لجمهور من الأساتذة الجامعيين ممن يرغبون في تدريس تخصصاتهم بالعربية (لاسيما بعد تعريب العلوم الإنسانية والاجتماعية في 1980). وقد أطلق هذا الفريق تسمية " اللغة العربية لغة سهلة ووظيفية" على طريقته هذه. واعتمد في ذلك على أحدث ما توصلت إليه تعليمية اللغات ونعني بذلك : التناول التبليغي للغة Approche communicative ومن بين الأسس التي تقوم عليها :

- التركيز على المتعلم (استكشاف خصائصه، مؤهلاته، التعرف على مكتسباته اللغوية السابقة والحاجات التي يتوسلها من إتقان اللغة التي يريد تعلمها).

– التركيز فيما يتعلق بالزاد اللغوي الذي يراد تلقينه على ما يفيد المتعلم في مهنته على سبيل المثال :

– ربط الملكة الشفاهية بالملكة الكتابية.

هذا ويمكن القول بأن هذه الطريقة قد لقيت قبولا واستحسانا لدى المتعلمين الذين طبقت عليهم.

ذ) التكوين في الدراسات العليا (الماجستير)

يمكن القول بأن سنة 1980 بأنها تاريخ مميز في حياة المعهد. ذلك أنه في هذه السنة تمّ إنشاء " دبلوم الماجستير في علوم اللسان والتبليغ اللغوي" :

Magister en sciences du langage et de la communication linguistique وتدوم الدراسة – لغرض الحصول على هذه الشهادة – سنتين يحضر الطالب بعد السنة الأولى مذكرة في فرع من فروع علوم اللسان وهي :

– الصوتيات التطبيقية.

– الإلكترونيك الصوتي والفيزيولوجي للكلام.

– العلاج الصوري للغة والمعلوماتية اللسانية.

– علم أمراض الكلام : أ) السمعي الصوتي.

ب) علم اللسان العيادي والأفازيولوجيا

– علم اللسان التفاضلي.

– صناعة المعاجم وإحصاء المفردات.

– علم تحقيق المخطوطات.

- اللسانيات التعليمية.

وقد تخرّج إلى حدّ الآن عدد لا يستهان به من الطلبة، منهم من باشر التدريس في الجامعة ومنهم من آثر التفرغ للبحث اللغوي في المعهد. أما الأبحاث التي أنجزت بغرض الحصول على شهادة الماجستير فهي متنوعة وذات بال، يمكن أن نذكر منها :

- معالجة حاسوبية للجزء الأول من القرآن الكريم : دراسة معجمية آلية.

- دراسة الصوامت العربية بواسطة المطياف.

- اللغة المنطوقة والمكتوبة لدى عينة من المثقفين الجزائريين: دراسة مقارنة.

- دراسة تحليلية لسانية للمصطلحات التقنية المعتمدة في التدريس في مراكز التكوين المهني، والمتعلقة بالكهرباء وميكانيكا السيارات.

- دراسة راديو سينماتوغرافية لبعض الحروف العربية.

- النحو التفريعي التحويلي : دراسة وترجمة.

- مصطلحات الرياضيات المستعملة في الكتب المدرسية في البلدان المغاربية الثلاث : دراسة تحليلية إحصائية...

تجدر الإشارة إلى أن المعهد لا يزال يواصل مهامه بعد أن تحول إلى مركز للأبحاث من أجل ترقية اللغة العربية. ومن الأعمال التي تنجز الآن في كنفه نشير سريعا إلى مواصلة إنجاز مشروع الذخيرة اللغوية العربية علما بأن العديد من البلدان العربية قد تبنت المشروع وتريد المساهمة فيه. كما نشير إلى فريق آخر يعمل الآن على إنجاز طرائق جديدة لتعليم العربية

للكبار من الجزائريين وغيرهم فضلا عن الفريق الذي يعنى بصناعة المعاجم.

تجربتا القراءة والمشاهدة
بين انحسار المكتوب وانتشار المرئي*

أ. جمال العيفة

جامعة عنابة

يقول " هالمت واغنر" أحد رواد المدرسة الظاهرتية في علم الاجتماع :

"أن الحظ ساعده على مطالعة النصوص المكتوبة أثناء الصغر ذلك أن عائلته لم تكن تمتلك جهاز تلفزيون،

وهو يأسف على واقع أن جيل أحفاده فقد الكثير من عوائد القراءة وأصبح جد مرتبط بالإعلام السمعي البصري"**

---

* نال صاحب هذه الدراسة أ. جمال العيفة الجائزة الثانية للغة العربية لعام 2004، التي نظمها المجلس الأعلى في مجال علوم الإعلام والإدارة.

* * عبد الرحمان عزي، **الصحافة الالكترونية وأزمة الصحافة المكتوبة** في عبد الرحمان عزي (وآخرون)، عالم الاتصال، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1992، ص 375.

تعتبر المعلومات عنصرا أساسيا في أي نشاط بشري وهي ترتبط بالحالة الذهنية أو البنية المعرفية لكل فرد، والمعلومات هي كل ما يقرأ أو كل ما يسمع أوكل ما يشاهد أوكل ما نتلقاه بحواسنا.

وهناك العديد من السبل للحصول على المعلومات تعتبر القراءة أبرزها على الإطلاق باعتبارها ظاهرة حضارية لاحقة للكثير من الإنجازات البشرية في مجال الاتصال وتداول المعلومات.

وعلى الرغم من أن القراءة لم تكن أولى الإنجازات البشرية إلا أنها بقيت تحتل المكانة الأساسية في كل تطور حضاري أو بشري على الرغم من منافسة العديد من الإنجازات البشرية لها كالتلفزيون الذي يعتمد بالدرجة الأولى على الصورة وذلك في مرحلة لاحقة جدا من التاريخ الإنساني، حيث أصبح العديد من أفراد المجتمع غير قادرين على قراءة سطر واحد بفعل سيطرة ثقافة الصورة، وحتى من لهم صلة وثيقة بالقراءة مثل الأكاديميين وتلاميذ المدارس وطلاب المعاهد والجامعات أصبحوا يعانون من عدم القدرة على القراءة ومسايرة إيقاعها، مما خلف آثارا سلبية على تلقي العلوم والمعارف والمعلومات بشكل عام في العالمين المتقدم والمتخلف على حد سواء.

وفي هذا المقام سنحاول تحليل العلاقة بين فعل القراءة بأبعاده وصوره المختلفة بغض النظر عن نوع هذه القراءة، لكن مع التركيز بالطبع على قراءة الكتاب والصحيفة بالدرجة الأولى من جهة، ومن جهة أخرى فعل المشاهدة بالاعتماد أساسا على تجربة المشاهدة التلفزيونية كسلوك حديث ارتبط بتطور وسائل الاتصال السمعية البصرية وكيف أثر كل منهما على الآخر؟

وهل يميل فعل القراءة للانحسار أو الاندثار بعد أن اكتسحه فعل المشاهدة، وبالتالي يمكننا القول بانتهاء عصر الكلمة المطبوعة ؟ وهل غيرت وسائل الإعلام من عادات القراءة، وما هي طبيعة نشاط القراءة في حد ذاته؟

أم أنه يمكن إيجاد جسور تواصل بينهما تجعلنا نستفيد منهما معا باعتبارهما يندرجان تحت إطار عام هو نظرية التلقي سواء للنصوص المكتوبة أم المصورة ؟

كل هذه الأسئلة وغيرها سنجيب عنها من خلال تناولنا للمحاور التالية :

- مفهوم القراءة وعلاقتها بالتلقي (السياق العام لفعل القراءة في إطار نظرية القراءة).

- الجذور التاريخية لفعل القراءة ونظرة بعض المدارس الحديثة له.

- تجربة المشاهدة من خلال التركيز على الصورة التلفزيونية حيث أن التلفزيون كوسيط تكنولوجي حديث يشكل مؤسسة إنسانية لا يقل دورها عن دور الأسرة، فهل يعوض التلفزيون الفرد على ما خسره جراء عدم ممارسته للأنشطة الأخرى كالقراءة والكتابة؟ وما هي العادات وأنماط النشاط الإنساني التي تأثرت بظهور التلفزيون؟

ثم نقوم بعقد مقارنة بين المطبوع والمرئي من خلال استعراض خصائص كل منهما.

وفي الأخير نعرض لواقع القراءة في العالم العربي عموما والجزائرخصوصا.

وفي تحليلنا في العنصر المتعلق بالصورة فإننا نقصد الصورة المصنعة المادية (الإشهارية أو السياسية) التي يعكسها التلفزيون ويعرفها عزي عبد الرحمان بقوله : "الصورة المصورة هي التي تبث عن طريق وسيلة التلفزيون أو تتجلى في مختلف مظاهر الحياة المادية عامة كالإشهار والعلاقات العامة والأزياء وبقية مقتنيات المجتمع الاستهلاكي"[1].

ولذلك فالصورة المصنعة تختلف عن الصورة الاستدلالية حيث تقترن هذه الأخيرة بالتدبر والتفكير وبُعد النظر وعدم الوقوف عند الماديات والأشياء فقط، حيث أن كل محاولة لتفسير الواقع الإنساني يجب أن تبدأ من نقطة جوهرية هي الإنسان وليس من نقطة خارجة عنه وهي المادة أو الأشياء والوسائل.

وحتى بالنسبة للصورة بوجه عام فقد جرت العادة أن تقوم الدراسات الإعلامية بتناولها من الناحية التقنية الكمية (الدراسات الأمبريقية) أو السيميولوجية المرتبطة بدلالة الرموز غير اللغوية (التحليل البنيوي) في حين يتم إهمال المنهج القيمي القائم على مرجعية الثقافي الذي يعطي أولوية للقيمة على حساب المادة (الشيء) وهو الأمر الذي نريد إبرازه في هذا السياق.

مفهوم القراءة:

ارتبط مصطلح القراءة أكثر بمفهوم التلقي "RECEPTION" وقد استعمل القرآن الكريم لفظ "تلقي" بدل "استقبال" ذلك أن دلالة الاستعمال القرآني

---

1. عبد الرحمان عزي، **الإعلام والبعد الثقافي: من القيمي إلى المرئي**، المجلة الجزائرية للاتصال، العدد13، (جانفي- جوان1996)، ص95-113.

لمادة التلقي مع النص "تنبه إلى ما قد يكون لهذه المادة من إيحاءات وإشارات إلى عملية التفاعل النفسي والذهني مع النص"[1].

ولقد ركزت الدراسات الحديثة على لفظ "التلقي" حيث هو الشائع مثلا عند إيزر W. User وساوس Yaus حيث يعتبر هذا اللفظ هو الجامع لألفاظ "القراءة، الاستجابة، والاستقبال"[2].

ولقد ورد في مختار الصحاح حول مادة (ق ر أ) " أن قرأ، قرأ الكتابة قراءة تعني جمْعه وضمه، ومنه سمي القرآن لأنه يجمع السور ويضمها"[3].

أما سيبويه فيقول " قرأ، ولقتر بمعنى "بمنزلة علا قرنه، استعلاه"[4] أي حسن القراءة وأجودها على الإطلاق.

وقد اقترن الإلقاء عموما والقراءة على وجه الخصوص في التراث الإسلامي بالقرآن الكريم حيث قال رسول الله ﷺ :" أهل القرآن– القراء– هم أهل الله وخاصته" وأهل القرآن هم الذين حفظوه بالعمل عليه، وحفظةا حروفه فاستظهروه حفظا وعملا...[5]

ويتم التمييز في الحضارة العربية الإسلامية بين القراءة والتلاوة فهذه الأخيرة هي "إعادة لفظ نص بحرفيته دون شرح ولا تعليق وبشكل متتال"[6].

---

1. القرطبي، **جامع أحكام القرآن**، إعداد الخطيب لتسويق البرامج، المجلد الأول عمان: مكتبة الأدب العربي، 1999، ص 221.
2. محمد مبارك، **استقبال النص عند العرب**، بيروت: المؤسسة العربية للنشر، 1999، ص 28.
3. **مختار الصحاح**، إعداد الخطيب لتسويق البرامج، المجلد الأول، الأردن: مكتبة الأدب العربي، 1999 ، ص 22.
4. ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد السادس، بيروت: دار صادر، 1956، ص 291.
5. رفيق العج، **موسوعة المصطلحات العربية والإسلامية**، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ص 752.
6. محمد شحرور، **الكتاب والقرآن**، مجلة البيان الثقافة www.Culture@ Albayan.co.ae-2000

فالقارئ هو ذلك العالم الناسك، أما إذا أراد القارئ أن يقرأ عوضا عن تلاوته فهذا يعني أن يشرح آياته ويستظهرها حفظا وعملا وذلك بهدف تفهيم السامع ويتضح لنا الارتباط بين الناسك والقارئ في التراث الإسلامي حيث " يقال: قرأت، أي صرت قارئا ناسكا وقال بعضهم، قرأت: تفهمت وقرأ عليه السلام يقرؤه عليه واقرأه إياه، بلغه[1].

ويرى الكثير من النقاد أن عملية القراءة معقدة شائكة و " ليست القراءة عند الباحثين المعاصرين ذلك الفعل البسيط الذي تمرر به البصر على السطور وليست بالقراءة القبلية التي تكتفي عادة بتلقي الخطاب تلقيا سلبيا اعتمادا منها أن معنى النص قد صيغ نهائيا وحدد ولم يبق إلا العثور عليه كما هو أو كما كان في ذهن الكاتب، إن القراءة عندهم أشبه ما تكون بقراءة الفلاسفة للوجود، إنها فعل خلاق يقرب الرمز من الرمز ويضم العلاقة إلى العلاقة ويسير في دروب ملتوية جدا من الدلالات نصادفها حينا ونتوهها حينا فنختلقها اختلاقا[2].

ويقول وليام راي، W.RELLY عن القراءة أنها "تضيف قدرا من التجديد إلى المواضيع التي يفرضها النص في خطوط عامة"[3].

والقراءة ليست فقط عملية تمييز للحروف ومجرد النطق بالكلمات فتلك عملية آلية لا تتضمن صفات القراءة التي تنطوي على كثير من العمليات العقلية كالربط والإدراك والموازنة والفهم والاختيار والتقويم والتفكير والتنظيم والاستنباط والابتكار في كثير من الأحيان[4].

---

1. المرجع السابق.
2. حسين الواد، **من مناهج الدراسات الأدبية**، تونس: شيراس للنشر 1984، ص 86.
3. وليام راي، **المعنى الأدبي**، ترجمة يونيل يوسف عزيز، ص1، موقع انترنيت.
4. مُحَّد قدري لطفي، **التأخر في القراءة تشخيصه وعلاجه في المدرسة الابتدائية**، القاهرة، مكتبة مصر، 1957، ص 38.

كما أن القراءة عملية عقلية تشمل تفسير الرموز التي يتلقاها القارئ عن طريق عينه، وتتطلب هذه الرموز فهم المعاني كما تتطلب الربط بيم الخبرة الشخصية وهذه المعاني، مما يجعل العمليات النفسية المرتبطة بالقراءة معقدة إلى درجة كبيرة، والقراءة بهذا المفهوم تشمل الإستجابات الداخلية لما هو مكتوب والعمليات العقلية تدخل شخصية الإنسان لكل جوانبها بغية تفسير المعاني والفهم والربط والاستنتاج والنقد والحكم على ما يقرأ.

وتعتمد المجتمعات في تحقيق تقدمها الاجتماعي والاقتصادي على قدرات أبنائها في تحصيل المعارف واكتساب الأفكار وقد جعلت اليونسكو من أهدافها نشر الأبجدية، وتثبيت عادة القراءة والتزويد بالكتب المناسبة لترقية الشعوب.

أهمية القراءة في حياة الإنسان :

سيطرت المشافهة في العصور الوسطى إلى جانب المخطوطات، فإلى جانب تدريب الأنظمة التعليمية للخطباء على الفصاحة والبلاغة، وعلى فن الكلام فإن نظام التعليم الإنساني الجديد الذي ظهر إبان عصر النهضة الأوروبية تمركز في المكتبة واعتمد على تفسير النصوص المطبوعة، وكان التعليم بواسطة الكتاب طريق الخروج من البؤس والجهل لكل فقير يهتم بدراسته، وأصبحت القدرة على القراءة بابا لولوج ميادين جديدة متقدمة.

وتساعد القراءة الفرد في الإعداد العلمي الذي يؤهله النجاح في الحياة أو مواجهتها كما تساعده على التوافق الشخصي والاجتماعي وتمده بالمعلومات الضرورية لحل كثير من المشكلات الشخصية وتحدد الميول وتزيدها اتساعا وعمقا كما تعمل على تحرير الوجدانيات المكبوتة وإتباعها وتحقق التسلية والمتعة وتهذب مقاييس التذوق، وبالنسبة لجون بول سارتر فإن النص سيظل

"عدما وعبثا" ما لم تتدخل دينامية القراءة كما أن بناء معجم جيد يكون بالقراءة دون سواها على حد تعبير أحد النقاد.

وفي هذا الإطار يقول الروائي الفرنسي فيليب سولرز:" لا يمكن أن نكتب إلا إذا كنا نعرف أن نقرأ، لكن لمعرفة القراءة يجب أن نعرف كيف نعيش، القراءة هي فن الحياة الرائع"[1].

كما أن القراءة فعل امتلاك وحضور فاعل حيث يقول الشاعر والناقد الأمريكي باوند: "يجب أن نقرأ لنزيد من قوتنا، كل قارئ لا بد أن يكون رجلا ديناميكيا مفعما بالحياة، والكتاب إنما هو دائرة نور تقبع بين يديه"[2].

والقراءة لا تغير نظرة الإنسان للعالم من حوله فقط، بل تؤثر أيضاً على تركيب دماغه، فهي أشبه ما تكون بحاسة أخرى يكتسبها الإنسان في حياته.. هذا ما أكدته دراسة جديدة نشرتها المجلة الأوروبية للعلوم العصبية.

فقد لاحظ الباحثون – بعد دراسة الاختبارات العصبية لدى 41 امرأة– أن منطقة "الجسم الجاسئ" وهي التراكيب الدماغية البارزة التي تصل بين النصفين الأيمن والأيسر من الدماغ – كانت سميكة في الأشخاص الذين يستطيعون القراءة، ورقيقة في الأشخاص الذين لا يملكون القدرة على القراءة، وأشار الباحثون إلى أن لهذه القدرة التعليمية تأثيراً مباشراً على تركيب الدماغ نفسه كما تساعد في ربط نصفي الدماغ معاً بشكل أكثر فاعلية[3].

---

1. بسام بركة، **لماذا نقرأ ؟: الصورة التي تضيع.. والكلمة التي تبقى**، العربي، العدد518، يناير2002، ص24-29.
2. المرجع السابق.
3. مجلة المجتمع، السنة 30، العدد 1356، 29 يونيو– 5 يوليو1999.

ويستطيع الإنسان أن يقرأ في الدقيقة (500) كلمة، علماً بأن البعض يستطيع أن يقرأ 900 كلمة لكن هذا نادر .والـ(500) كلمة تساوي صفحتين من كتاب متوسط الحجم، أي أن الإنسان يستطيع في ساعة أن يقرأ 120 صفحة، فإذا كان الكتاب المتوسط يبلغ 400 صفحة، فهذا يعني أنك تحتاج إلى ثلاث ساعات وعشرين دقيقة لقراءته، ولنفترض أنك تحتاج إلى أربع ساعات لقراءته فلو أعطيت كل يوم ساعة للقراءة لقرأت في كل أربعة أيام كتاباً، أي في السنة يمكنك أن تقرأ نحو تسعين كتاباً[1].

الجذور التاريخية لفعل القراءة :

قال تعالى﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق** (01) **خلق الإنسان من علق** (02) **اقرأ وربك الأكرم** (03) **الذي علم بالقلم** (04) **علم الإنسان ما لم يعلم** (05)﴾ الآيات 01-05 من سورة العلق.

فأول ما نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات لينبثق فعل القراءة في القرآن الكريم من الخلق والإبداع ليهدف في الأخير إلى أن يحقق الإنسان: "ما لم يعلم" وبذلك فليس من الصدفة أن تكون أول كلمة يفتتح بها الوحي آمرا هو فعل القراءة.

ويرى ابن فارس تأكيدا لما سبقه: "إن فعل اقرأ اشتق من فعل قرن ويعني الجمع والمقارنة"[2].

ومن هنا جاء معنى القراءة عند العرب وهي "العملية التعليمية لأنها لا تكون إلا بالمقارنة أي مقارنة الأشياء بعضها لبعض، لذلك لا يقول العرب

---

1. المرجع السابق، السنة 29، العدد 1345، 13-19 أفريل1999.

2. **ابن فارس مقاس**، إعداد الخطاب لتسويق البرامج، المجلد الأول، (عمان: مكتبة الأدب العربي، 1999).

قراءة إلا على العلم كقولهم: " قرأت العلم على فلان" وفي هذا تمييزلمفهوم القراءة ورفع لشأنها[1].

وتقترن عملية الإفهام والشرح دائما بفعل القراءة لأنه جوهرها وماهيتها ذلك أن فعل القراءة مكابدة مستمرة تصاحب الإنسان من أول سؤال يتفوه به.

وأول من قدم تفسيرا علميا للقراءة هو الأقرب إلى الصواب حتى اليوم هو الحسن ابن الهيثم في مصر، وقد تُرجم كتابه إلى اللاتينية بعد مائتي سنة من كتابته ونشأت بعد وفاة ابن الهيثم ب 850 سنة بحوث الأعصاب اللغوية التي تقدم لنا أن جسم الإنسان هو في وضع يمكنه من إجراء فعل القراءة والكتابة، وكان الإنسان كذلك حتى قبل نشوء علم الكتابة في سوريا والعراق (السومريون)، وربما ينطبق هذا مع الآية القرآنية عن قصة الخلْق ﴿وعَلَّم آدمَ الأَسماءَ كُلهَا﴾[2].

أنماط القراءة :

تتعدد أسباب ودوافع القراءة فهناك من يقرأ استعدادا لدخول الامتحان وهناك من يقرأ للإلمام بالمعلومات والتوجيهات التي ينبغي الالتزام بها في عمله ومن يقرأ بحثا عن حقائق معينة ومن يقرأ للترفيه وتجزية وقت الفراغ ومن يقرأ التماسا للنوم.

ويمكن تقسيم القراءة وفقا لأهدافها وطرق ممارستها إلى أربعة أنماط رئيسية وهي : القراءة الترويحية، أو الترفيهية والقراءة لأغراض البحث عن حقائق معينة، والقراءة لأجل الإستيعاب، والقراءة النقدية.

---

1. مُحَّد شحرور...مرجع سابق.

2. ألبرتو مانغويل، **تاريخ القراءة**، ترجمة سامي شمعون، لبنان: دار الساقي، 2001.

أ- القراءة الترويحية :

والمقصود بها القراءة من أجل الاسترخاء أي التي نختارها بمحض إرادتنا ولا تفرض علينا على الرغم من أننا يمكن أن نجد المتعة أيضا في أنواع القراءة الأخرى.

وأكثر المواد القرائية شيوعا في القراءة الترويحية نجد الأدب الخيالي والكتب والمجلات العامة فضلا عن كتب التراجم والكتب التاريخية والمذكرات الشخصية وأدب الرحلات.

وتتسم معظم المواد القرائية الترويحية بسهولة الأسلوب التي تكفل القراءة بوجه عام مما يمكن العقل والذاكرة من العمل دون جهد يذكر.

ويُعتبر هذا النوع من القراءة مظلة عريضة ينضوي تحتها عدد من الأنماط الفرعية للقراءة كالقراءة من أجل التسلية وملء وقت الفراغ والقراءة من أجل الابتعاد عن ظروف معينة أو ما يسمى بالقراءة من أجل الهروب[1].

ب- القراءة للحصول على حقائق معينة :

يرتبط هذا النوع بمواقف تتطلب الإجابة عن سؤال معين كتصفح دليل الهاتف بحثا عن رقم معين أو عنوان شخصي معين أو الرجوع إلى أحد المعاجم للتأكد من هجاء لفظ معين أو البحث في أحد كتب الحقائق عن إحصائية معينة، إلى غيرها من الاستفسارات التي يمكن أن نصادفها في ممارستنا لنشاطنا اليومي ولذلك فإن هذا النوع من القراءة لا يتطلب قدرا

---

1. حشمت قاسم، **المكتبة والبحث**، الطبعة الثانية، القاهرة : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، د س ن، ص 36-38.

كبيرا من الإدراك الشخصي كما لا تتطلب تسلسل أفكار المؤلف وإنما مجرد العثور على حقائق معينة[1].

ج- القراءة من أجل الاستيعاب :

القراءة لأجل الاستيعاب أو التحصيل تحتم تتبع موضوع والتقاط المعلومات في نفس الوقت ولها عدة صور و أشكال أبرزها قراءة الكتب الدراسية استعدادا للامتحان والقراءة لغرض الإلمام بمتطلبات الحياة وسبل مواجهاتها والإطلاع على الصحيفة اليومية للتعرف على الأحداث الجارية ويتيح هذا النوع من القراءة مجالا فسيحا لاستعمال العقل كما أنها تتيح لنا مجالا عريضا لاستغلال الطاقات الكامنة للعديد من الأساليب القرائية الفعالة كالنظرة المبدئية الشاملة بكل أشكالها والتساؤل والتحكم في سرعة القراءة، ومراجعة ما تم تحصيله واستيعابه، واستظهار بعض الحقائق والعبارات ويقصد بالنظرة المبدئية الشاملة إلقاء نظرة على ما نحن بصدد الإطلاع عليه قبل قراءته أو إلقاء نظرة على المواد القرائية لكي نقرر ما إذا كانت جديرة بالقراءة أم لا ؟

وتتخذ النظرة المبدئية الشاملة ثلاثة أشكال :

1- وهو عبارة عن التصفح العرضي، وينطوي على النظر إلى المادة القرائية بطريقة آلية أو تلقائية للتعرف على ما إذا كانت جديرة بمواصلة الإطلاع عليها أم لا وعادة ما نقوم بعملية التصفح هذه أثناء وجودنا بالمكتبة نحاول البحث عن كتاب يجذب انتباهنا على الرفوف وحينما نمسك بالصحيفة اليومية نستطلع العناوين الرئيسة.

---

1. المرجع السابق، ص 37-38.

2- وهو التصفح المقصود من خلال الإطلاع على عناوين الفصول والأقسام أو الفقرات الإعلامية أو الخلاصة والهدف من هذا الإطلاع هو التأكد مما إذا كان الكتاب أو المقالة تشتمل على شيء يدخل في مجال اهتمامنا.

3- وهو ما يسمى الإلمام بعناصر معالجة الموضوع في الكتاب أو المقالة ونلجأ إليه في حالتي القراءة لأجل الاستيعاب والقراءة النقدية.

والهدف من هذا الإلمام هو التعرف على هيكلة الكتاب أو الموضوع وإتاحة القدرة على التحكم في طريقة ترتيب المؤلف لمادته.و يمكن للقراءة من أجل الاستيعاب أن تنطوي على حفظ بعض الحقائق وربما بعض العبارات أيضا عن ظهر قلب[1].

د- القراءة النقدية :

وهي أكثر أنماط القراءة تقدما وتنطوي على عمليتين هما: الفهم والتقدير وإذا كانت القراءة النقدية لا تستغني عن كل أساليب القراءة لأجل الاستيعاب فإنها تتطلب أيضا القدرة على تحليل وتقييم ما يسوقه المؤلف من حقائق وأفكار.

ومن الأسئلة التي تطرح في هذا النوع من القراءة :

ما هو موقف المؤلف وما هي اتجاهاته ونواحي تحيزه؟ وما هي اتجاهاتنا بالمقارنة باتجاهاته؟ وهل أثرت القراءة في اتجاهاتنا؟[2].

---

1. المرجع نفسه، ص38-41.
2. المرجع نفسه، ص41-42.

القراءة فعل حضاري :

يتضح جليا أن فعل (قرأ) يتجاوز الخط والكتابة المشروطين بحيز ضيق ومحدد هو الكتاب " إلى مدارات العلامات الشاسعة في احتوائها الكون جملة ولمظاهر الحياة تفصيلا لتشمل عمليات: التدبر، التأمل، النظر، البصر، السمع، الإستبصار الباطني، رؤية، رؤيا...."[1].

وبالنسبة للمسيحيين فقد ظلت القراءة فعلا تختص به الكنيسة وتحرص على بقائها في فلكها فلا ترخص لها البوح بسير الخط وإذاعته بين العامة إلى أن جاء "غوتنبرغ" وأفشى سرها بالطباعة.وقد ظل الفعل القرائي محصورا في العامل الديني وحده لا يتعداه إلى مجالات أخرى ففرنسا مثلا انتظرت حتى سنة 1882 أين ظهرت اللائكية تحت شعار القراءة لكل كحتمية اجتماعية.

أما الحضارة العربية الإسلامية فقد اعتنت بالقراءة من خلال اعتنائها بالكتب و المكتبات، ففي العصر العباسي الذهبي كان المستوى الاقتصادي والعقلي والاجتماعي للإنسان يقاس بالمكتبة الخاصة مثل ما يُقاس في عصرنا بامتلاك السيارة والتلفزيون وغيرهما، حيث ظل الكتاب هو معيار التقدم والحضارة طيلة قرنين من الزمن.

وقد كان بعض الوزراء لا يقومون برحلة ما دون أن ترافقهم مكتباتهم الخاصة، وكانت تزن حمولة بعضها ثلاثين جملا، وهذا دليل على الشغف بعالم الكتب بطريقة لا تقبل التفنيد[2].

---

1. حبيب موينسي، **القراءة والحداثة مقارنة الكائن والممكن في القراءة العربية**، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب www.Google.com/aru@ net.sy2000

2. زيغريد هونكه، **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمة فؤاد حسنين علي، الجزائر : مكتبة رحاب، 1986، ص290-292.

وقد كانت تجارة الكتب تكلف المجتمع العربي ملايين الملايين سنويا، فالمكتبة النظامية لجامعة بغداد مثلا كانت ميزانيتها السنوية مليوني ونصف المليون فرنك ذهبي لشراء الكتب والمخطوطات، لذلك كانت الكتب مصدرا من أهم مصادر الرزق لمئات الآلاف من البشر.

وكان تاجر الكتب رسولا من رسل الثقافة، كما أن مكان بيعها مركز ثقافي هام في المدينة، فهذه التجارة وُجدت أولا ولزمن طويل فقط عند العرب، ففي سوق الوراقين هكذا كان يسمى الحي الواقع عند باب البصرة حيث كان يوجد أكثر من مائة وراق في مكان يلتقي فيه علماء بغداد وعلماء العالم الإسلامي من فلاسفة وشعراء وفلكيين حول الكتب الجديدة[1].

القراءة فعل مختص :

"... إن على القراءة الإبداعية أن تنفخ في بنية النص وتعيد إليه توثبه وحرارته المثالية فتبعث به إلى الوجود إلى كثافة الحضور"[2]

ولقد مر أكثر من نصف قرن على تأسيس نظرية القراءة في ألمانيا، إلا أنها لا تزال تقدم لنا نموذجا مطرد القدرة على فهم فاعلية النظر واستجابة القارئ.

وقد كان عبد القاهر الجرجاني واعيا ببعض أبعاد نظرية القراءة وسباقا حيث يقول: المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك في طلبه واجتهاد في بذله"[3].

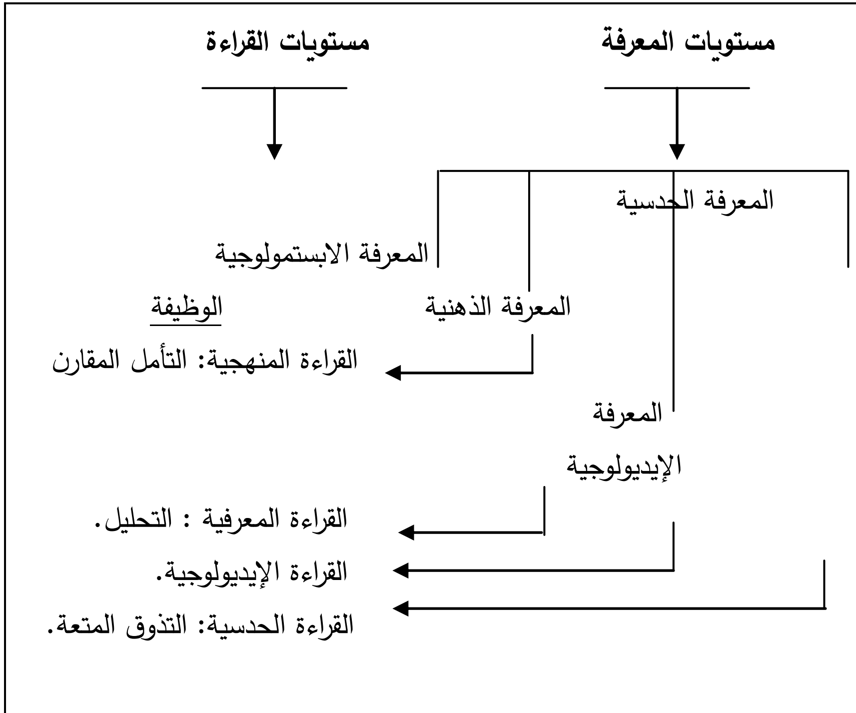
---

1. المرجع السابق، ص 294.

2. عبد العزيز بن عرفة، **الإبداع الشعري وتجربة التخوم**، تونس: دار النشر، 1988، ص 60.

3. حبيب مونسي... مرجع سابق.

القراءة والمعرفة :



شكل رقم 10 يمثل المعرفة وعلاقاتها بمستويات القراءة

نشير هنا بأنه لا يجب الاعتقاد بأن هذه القراءات جزر متباعدة لا تلتقي أبدا، بل هي تتداخل فيما بينها "فالانتقال من المستوى الحدسي إلى المستوى المعرفي يشكل خطا تصاعديا في منحنى التطور الذي تشهده كل معرفة بغض النظر عن المعرفة الإيديولوجية التي تجتهد في قصر المعنى على هدف مسطر قبلا، تتولى القراءة الإيديولوجية تذليل التأويل إليه، لأن غايتها –وإن نعتت بالمنفعة– فهي غاية مبيتة تؤطرها مخططات الفكر الإيديولوجي الصادر عنه".

فالقراءة بهذا المعنى أيضا تفاعل ديناميكي بين معطيات النص، والخطابة الذهنية للمتلقي بما فيها رغباته وردود أفعاله.

وإن كنا قد ألفنا الانعطاف إلى الموروث العربي في ثنايا بحثنا لإبراز فكرة ما أو تأكيدها فإننا نلمس – هنا أيضا – مكانة بارزة لفكرة مدى تفاعل النص والقارئ عند عبد القاهر الجرجاني حيث يقول " المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك في طلبه واجتهاد في بذله" فما وعاه عبد القاهر الجرجاني يعد سبقا في نظرية القراءة عند العرب وتقدما في طرح تصور ما يمكن أن يقوم عليه التفاعل بين النص والقارئ.

تفسير فعل القراءة:

سنحاول في هذا العنصر تحليل فعل القراءة من وجهة نظر مجموعة من المدارس الفكرية التي لها علاقة بعلم الاتصال (مدرسة فرانكفورت) وكذا مجموعة من المفكرين والأكاديميين الذين تلتقي اهتماماتهم مع ذات العلم مثل مارشال ماكلوهان ورولان بارت وأمبرتو إيكو.

فمدرسة فرانكفورت النقدية التي يعود تاريخها " إلى بداية ثلاثينات القرن العشرين ويرتبط تأسيسها بالمفكرين الألمان أمثال: ماكس هور كهايمر H.MAX وتيودورأدورنو T. Adorno وهربرت ماركوز H. Marcuse ، وفي الوقت الراهن يورغن هابرماس j. HABERMAS" حيث " شكلت كل من الفلسفة الماركسية والتحليل النفسي وفلسفة التاريخ وعلم الجمال محطات وقفت عندها المدرسة و هذا في البحث عن الشمولية والتكامل بين المناهج المختلفة.

وقد حددت هذه المدرسة مجموعة أسس جمالية يمكننا إيجازها في ما يلي:

ربط الطبيعة السياسية لكل فن لأنه يحافظ على التطلعات البشرية والحنين لأشكال طوباوية من الحياة " فالفن احتجاج ثوري ضد السيطرة حيث تذهب مدرسة فرانكفورت إلى "أن القاعدة الاجتماعية- الاقتصادية تحدد البنية الفوقية الثقافية للمجتمع، فالأعمال ليست ظواهر تابعة تعكس المصالح الطبقية" فمهمتها تتعدى ذلك الكشف عن التناقضات الاجتماعية والتطلعات الطوباوية وعندها يكون العمل الفني عظيما عندما يقدم خدمة ثورية من أجل التحرر مما هو سائد ومألوف.

وحاولنا أمام هذا الثراء المرجعي لمدرسة فرانكورت الاهتمام بضبط نقاط التقاء بينها و بين نظرية القراءة في النقاط التالية:

أولا: دفعت المرجعية النفسية لرواد مدرسة فرانكفورت إلى الاهتمام بالنظرية الجشطالتية وقدرتها على الانفتاح حول القضايا الاجتماعية حيث أصبح لعلم النفس الاجتماعي منزلة خاصة لدى أصحاب النظرية النقدية " وهذا ما فتح الباب للعناية بالتأويل أو الهرمينوطيقا.

ثانيا: اهتم رواد مدرسة فرانكفورت كثيرا بعلم التأويل حيث اجتهد هابرماس في البحث عن مكانة التحليل النفسي ضمن دائرة التأويل من دلثاي إلى غادامر" وفي هذا محاولة لتأصيل علاقة القارئ بالنص[1].

وبعد إنهائنا لتحليل فعل القراءة نتناول في العنصر الموالي خصائص المكتوب (المطبوع) ومميزاته ثم إلى الصحيفة كأحدى أبرز الوسائط المطبوعة في عصرنا.

---

1. وداد جدي، **الأسس الفكرية والجمالية لنظرية القراءة : مدرسة كونستانس نموذجا**، مذكرة لنيل شهادة الليسانس في الأدب العربي، المركز الجامعي تبسة، 2003.

القراءة من المنظور الماكلوهاني:

اتجه ماكلوهان إلى معالجة النص الإعلامي ليس كنص في حد ذاته ولكنه كمادة يستحضر من خلالها تفاعل القارئ مع المادة الإعلامية. فالنص يحمل في طياته التفاعل بين هذا القارئ الذي نتصوره والنص الذي نتصادم معه.

يقول ماكلوهان في هذا السياق "أن المستعمل (بكسر الميم) هو المحتوى". عن القارئ، على حد قول ماكلوهان، يسقط تحيزا ته على المعاني التي يستنبطها من النص، ولكن هذا النص يوفر للقارئ محيطا من المحفزات التي تشكل وتعيد تنظيم تصوراته. وفي الواقع، فإن الباحث الذي يتعامل مع النص يحد نفسه أما النص والقارئ معا في سياق التفاعل بدل الارتكان إلى حديث منعزل أو منفرد مع نص هو يبحث عن تفاعل المعاني[1].

ويذهب رولان بارت إلى أبعد من ذلك فيضع الكتاب في محور تلتقي فيه كل مفاصل الحياة البشرية. فهو يقول:" إن النص نقطة تشابك بين الذاكرة الاجتماعية الخاصة بمجتمع معين والذاكرة الفردية الخاصة بشخص ما والتجارب الإنسانية التي يشترك بها الناس أجمعين"[2].

في حين يرى المفكر الإيطالي أمبرتو إيكو أن الكتاب يستعمل الرموز المكتوبة، وهي رموز تتطلب من القارئ شيئا من الجهد والمشاركة، حيث يقول في هذا الإطار:" القراءة عملية تتطلب جهدا خاصا، فالنص المكتوب آلة كسولة تتطلب من القارئ جهدا كبيرا وتعاونا متواصلا لملء الفراغات ولجلب التذكرات الموجودة في النص"[3].

---

1. عبد الرحمان عزي (وآخرون)، **فضاء الإعلام**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص31-35.
2. بسام بركة... مرجع سابق.
3. المرجع السابق.

خصائص النص المطبوع:

تتميزالمواد المطبوعة بالخصائص التالية:

- تسمح لقارئها بالسيطرة على ظرف التعرض وبتكرار العرض عليها أكثر من مرة.

- يفضل استخدام المواد المطبوعة مع الجمهور المختص وصغير الحجم بغية فعالية أكبر ولأسباب مادية.

- من الأفضل تقديم الرسائل الاتصالية المعقدة عبر الوسائل المطبوعة وتوجيهها لجمهور مثقف.

- عن طريق الوسائل المطبوعة يمكن الاحتفاظ بالمعلومات وتخزينها.

- يلاحظ في الوسائل المطبوعة تأثيرا أبلغ للحجج والبراهين ومخاطبة العقل على تغيير المواقف.

- الصفحة المطبوعة سجل دائم لما أنتجه الإنسان.

- كما لقي المطبوع نجاحا أفضل في تحقيق فهم أحسن، فقد أثبتت الدراسات المقارنة التي عالجت اختلاف قدرة الوسائل على تسهيل الفهم، مثل دراسة "جاكوبي وآخرون" عام 1983 التي توصلت إلى أن الجمهور يفهم الوسائل المطبوعة أفضل من المسموعة والمرئية حتى في حالة تحديد الوقت المخصص للقراءة.

الصحيفة كوسيلة مطبوعة:

مفهوم الصحيفة لغويا: "أنها الورقة من الكتاب بوجهيها، وصحيفة الوجه أي البشرة، والصحيفة جمعها صحف، والجريدة الصحيفة هي النشرية

الدورية التي تحمل الأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المتنوعة"[1].

ويتجلى دور الصحيفة (الجريدة) باعتبارها أداة اتصال يومي ومباشر لجمهور القراء، بغرض نقل الخبر والرأي التحليلي لهم، حسب طبيعة وتوجه كل جريدة، ودرجة انتشارها وتوزيعها، وتحتل الصحافة المكتوبة مكانة مرموقة، إلى جانب وسائل الإعلام الأخرى، إلى جانب تاريخها القديم، فهي تعرض يوميا اتجاهاتها السياسية وآرائها في حل المشاكل الاجتماعية المختلفة.

كما تتعرض للأحداث والأخبار اليومية عن طريق اختيارها لبعض الأخبار ومعالجتها بواسطة الخبر، أو المقال، أو النقد أو التحقيق...الخ.

دور الصحيفة اليومية:

تمتلك الصحيفة القدرة على بث الأفكار والإقناع بها، لأنها تعتمد على الكلمة المطبوعة التي تمتلكها من تحقيق تكرار العرض مع التنوع في الشكل، كما تمكنها من استثارة الانفعالات لدى قرائها، من خلال تغطية كافة مجالات الحياة وتقديم الخبر والرأي والخدمة، إلى جانب ميزات أخرى كالتحكم في أوقات التعرض وسهولة الحمل والنقل، كما أن القارئ يجد وقتا للتفكر في المعلومات التي قرأها لبلورة وجهة نظره فيها.

1. سامي ذبيان، **الصحافة اليومية والإعلام: الموضوع، التقنية والتنفيذ**، الطبعة الثانية، بيروت: دار المسيرة، 1987، ص 153.

وتؤدي الصحيفة واجبها بالحياد وإعطاء الأخبار الصحيحة فتسمى بذلك صحيفة خبر، وإما أنها تعطي آراءها واتجاهاتها السياسية مع الأخبار، فتسمى عندئذ صحيفة رأي، وغالبا ما تقوم الصحيفة بإعطاء الجانبين معا.

وتظهر أهمية الصحافة المكتوبة كذلك من خلال اتساعها في العديد من الأحيان في تناول بعض القضايا والمواضيع التي تعترضها فتقوم بتناولها من زوايا مختلفة وبأنواع صحفية متعددة، فهي بذلك تقوم ببعض المهام التي قد لا تقوم بها وسيلة أخرى مثل الراديو.

وفي ذلك يقول عبد العزيز الغنام أنه: "يصعب على السامع أو الناظر أن ينظر إلى الأخبار كلها نظرة مستوعبة يستطيع بها أن يحللها أو ينظمها طبقا لأهميتها وبالأخص أنه لا يمكن عن طريق الراديو (مثلا) إعطاء رسوم بيانية أو توضيحية، ومن هنا يزداد اهتمام القارئ بالصحافة المكتوبة، وخصوصا بعد سماع أو رؤية أخبار مهمة بالراديو أو بالتلفزيون"[1] .

" فالصحف تهم بعض القراء في دورها التقليدي كمصدر للمعلومات والأفكار عن الشؤون العامة الجادة، وقد وجد الباحثون أن القراء لا يستخدمونها فقط للحصول على الحقائق الخام عن الأحداث الجارية وإنما من أجل التفسيرات التي يقدمها كتاب المقالات والمعلومات الخلفية والأعمدة...[2]

الكتاب:

1. عبد العزيز الغنام، مدخل في علم الصحافة : الصحافة اليومية، الجزء الأول، بيروت: دار النجاح، 1972، ص 15.

2. وليام ريفرز (وآخرون)، وسائل الإعلام والمجتمع الحديث، ترجمة إبراهيم إمام، القاهرة : دار المعرفة، 1975، ص 349.

إن حسن التعلم يأتي من الكتاب، فهو المعلم الأول لكل العلوم، وناقل الثقافة في جميع الوجوه، حتى البرامج المدمجة مأخوذة من الكتاب، وعليه فكل كتاب يصل إلى القارئ له دور السبق والريادة في نقل المعلومة وتسجيلها، ولن تنازعه وسيلة في سرقة لقبه "رائد المعرفة".

وسيظل للكتاب جاذبيته الخاصة حتى لو تفوق عليه الكتاب الإلكتروني، بمزايا إضافية لكونه نصاً يقرأ، وصوتاً يسمع، وفيلماً يرى، وتفاعلاً بالحواس كافة: السمع والبصر والفؤاد واللمس، وغيرها من الحواس الداخلة في عملية التفاعل.

أهمية السمع والبصر:

يعتبر الاتصال السمعي البصري أبرز أنواع الاتصال الإنساني لاعتماده على حاستين هامتين هما: السمع والبصر المرتبطتان ببعضهما البعض بل والمتكاملتان في أداء إحدى أهم وظائف الجسم البشري.

وقد كان استعمال هاتين الحاستين مقترنا بالبدايات الأولى للاتصال الإنساني في شكلها البدائي، وعلى الرغم من التطورات التكنولوجية العديدة والمتتالية إلا أن أهمية هاتين الحاستين ظلت ثابتة في كل المراحل المختلفة لتطور الحياة البشرية.

ونظرا لأهميتهما فقد تم خلال القرن العشرين اختراع وسائط إعلامية تعتمد بالأساس على السمع والبصر وأبرزها الراديو والتلفزيون وفي مرحلة لاحقة الإعلام

الآلـي والانترنيت واستطاع العقل البشري الذهاب بعيدا في هذا المجال من خلال التحكم في صناعة الأجهزة السمعية البصرية.

مفهوم الصورة :

أ- لغة: الصورة إحدى ظواهر الطبيعة وهي إما حقيقة أو خيال، وقد جاء في لسان العرب لابن منظور: الصورة في الشكل والجمع صور، وقد صوره فتصور، وتصورت الشيء، توهمت صورته، فتصور لي، والتصاوير التماثيل.

يقول ابن الأثير: الصورة تلد في لسان العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته، وإذا شاهد الإنسان صورة ما ينفعل بها ويدركها إدراكا حسيا[1]، والإدراك الحسي هو: "الأثر النفسي الذي ينشأ مباشرة من انفعال حاسة أو عضو حاس... وهو يعني الفهم أو التعقل بواسطة الحواس، وذلك كإدراك ألوان الأشياء وأشكالها أو أحجامها أو أبعادها بواسطة البصر".

ب: اصطلاحا: التصوير هو إبراز الصورة إلى الخارج بشكل فني بعد مرورها بمخيلة المصور، وكما يقول المثل الصيني فإن"الصورة أبلغ من ألف كلمة" ولكم هزت صورة إعلامية من خلال التلفزيون أو السينما أو الصحف مشاعر الناس وفجرت ثورات، ويتوقف أثر الصورة على خصائص مستقبل

---

1. جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد الرابع، (بيروت : دار صادر، 1968)، ص473.

الرسالة الإعلامية وقدرته على استيعاب مغزاها وفهمها وفك رموزها، خاصة مع التطور الكبير والمذهل في التعامل مع الصورة إنتاجا وتركيبا وتوزيعا وتحكما في الحجم يمكن من خلاله الحصول على الأحجام التالية :

- اللقطة العامة- اللقطة المتوسطة- اللقطة القريبة- اللقطة الصدرية- اللقطة الكبيرة- اللقطة الكبيرة جدا.

أهمية الصورة الحية :

تعتمد خدمة التلفزيون أساسا على الصورة الحية المرئية، التي هي أقدر في التعبير من آلاف الكلمات، خاصة ونحن نعلم أن الرؤية هي أساس الاقتناع "Seeing is Believing" فالبصر وسيلة هامة من وسائل تحصيل المشاهد في استبيان المعلومات واستيعابها، كما أن التجربة البصرية أكثر دواما وأعمق أثرا من سائر التجارب، سواء كانت سمعية أم لمسية أم ذوقية كما أن 75% من المعرفة تكتسب عن طريق حاسة البصر و 88% عن طريق حاستي السمع والبصر.

وقد بنى أبو الحسن الرماني في رسالة "النكت في إعجاز القرآن" مفهوم البيان على أربع مراتب، ويمكن إسقاط ذلك على الصورة المصورة "المصنعة":

المرتبة الأولى: "إخراج ما لا تقع عليه الحاسة ": ذلك أن خصائص البث التلفزيوني والعرض السينمائي ومشاهد الفيديو ومعطيات الحاسوب من شأنها جميعا أن تغني المشاهد عن كل ما لا يمكن أن يقع عليه بصره في العالم الممتد من حوله لينحصر اهتمامه فيما يقع عليه بصره، لأن البصر محدود لا يبلغ كل شيء في وقت واحد.

المرتبـة الثانيـة: "إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة": لا يخفى أن الصـور صـارت تتكفل بنصـيب كبيـر مـن عـادات المتفـرجين وعلاقتهم بالمحيط القريب والبعيد، فهي تُكسبهم من الألفة والقرب والتعود ما يوثق صلتهم بالأشياء من حولهم، ويتسع مجال الألفة لديهم كلما اطلعوا على عناصر إخبارية ومعرفية جديدة.

المرتبـة الثالثـة: " إخراج ما لا يُعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها": تقوم المحتويات الأساسية للصورة على ثلاثة أركان هي: الخبر والمعرفة والخبرة، وهـي تسـاعد النـاس فـي مواقـع متباعـدة مـن العـالم علـى تبـادل الأركـان المحورية وتناقلها في ما بينهم. وهو ما يكون قد قصده مارشال ماكلوهان في حديثه عن "القرية الكونية"

المرتبـة الرابعـة:" إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها" ذلك أن الصورة تعطي الموصوف إشراقة قد لا تكون له في أصل واقعه فتمنحه البهاء، وهو ما يقوم به الفنيون والمخرجون الذين يركزون على وهم البصر والتضخيم والإبهار مثلما يحدث في الرسائل الإشهارية مثلا[1].

عوامل تزايد أهمية الصورة :

توجد مجموعة من العوامل تزيد من أهمية الصورة منها:

- تجذب الصورة انتباه الفرد وتستحوذ عليه، بحيث تجعله لا يملك إلا التركيز عليها.

1. مراد بن عياد، **قراءة "الصورة المصورة" من خلال المنهاج البلاغي في التراث العربي تقبلا وتأويلا**، المجلة التونسية لعلوم الاتصال، العدد 29/28 ديسمبر 1995 جانفي –جوان 1996، ص 113-13.

– تُبرز الصورة المعلومات المصاحبة لها وتدعمها.

– تقرب الصورة الأماكن البعيدة وتكبر الأشياء الصغيرة وتصغر الأشياء الكبيرة وتظهر الأشياء المختلفة.

– يميل الناس عامة، والأطفال خاصة إلى تصديق المرئيات أكثر من اللفظيات وقد قيل: "ليس من رأى كمن سمع".

– تزيد الصورة من استيعاب المعلومات وتذكرها حيث تتأثر الذاكرة بالصورة أكثر من الصوت، وقد أجريت بعض التجارب ثبت من خلالها أن الإنسان يحتفظ في ذاكرته بما يشاهد على الشاشة الصغيرة مدة أطول مما سمعه بالراديو، وذلك أن الصورة البصرية أكثر رسوخا وفرضا لنفسها من الصور الأخرى.

– وقد أكدت بعض الاختبارات السمعية والبصرية أن استيعاب الفرد للمعلومات يزداد بنسبة 35% عند استخدام الصوت والصورة في وقت واحد، وأن مدة الاحتفاظ بهذه المعلومات تطول عندئذ بنسبة [1] 55%.

التلفزيون وخصائصه :

التلفزيون وسيلة اتصال جماهيرية سمعية بصرية، وقد أسهم جون بيرد John.L.Baird الاسكتلندي وغيره من المخترعين في صناعة أول كاميرا تلفزيونية سنة 1926، وبعدها بعامين أرسل أول رسالة (صورة تلفزيونية) من بريطانيا إلى أمريكا.

---

1. عاطف عدلي العبد، **المداخل الأساسية لدراسة علم الاتصال**، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، 1988، ص 136-138.

وقد كان التلفزيون في بدايته بالأبيض والأسود، لكنه أصبح ملونا في منتصف السبعينيات.

ويعتبر التلفزيون أقوى وسائل الإعلام التي ظهرت في القرن العشرين، ويتميز بمزايا عديدة يشارك فيها باقي وسائل الإعلام، وينفرد دونها بمزايا أخرى، حيث يقدم للمشاهدين المعارف والأفكار والخبرات في مشاهد متكاملة تعتمد على الصورة الحية المعبرة المقترنة بالصوت الدال على عمق المشاعر ومغزى الأحداث والوقائع[1].

و يُعد التلفزيون من أبرز الاكتشافات في القرن العشرين في ميدان الاتصال وذلك للمزايا الشكلية التي يتفوق بها على وسائل الاتصال الأخرى، حيث يجمع بين الصوت والصورة خاصة بعدما أصبحت ملونة، واستطاع أن يحقق انتشارا واسعا في كل أنحاء العالم، ومما زاد من الإقبال عليه أنه وسيلة للقطات المقربة تصلح أكثر للكشف عن الشخصية وملامحها أكثر منها لنقل الأحداث[2].

وبالمقابل فهو وسيلة معقدة تستخدم لغة الكلمات والصور المرئية والصوت لتوليد الانطباعات وإثارة الأفكار عند الناس[3].

وقد أجريت دراسة[1] أثناء الأيام الأولى لظهور التلفزيون من قبل كورت لانغ"Kurt Lang" وغلاديس أنج لانغ "Gladys Engel Lang" تتناول مقارنة

1. إبراهيم أبو عرقوب، **الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي**، عمان : دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 1993، ص93.

2. آرثر أسا برغر، **أساليب التحليل الإعلامي**، ترجمة علي شو يل القرني (د د ن، د س ن)، ص 41.

3. المرجع نفسه، ص 43.

تفصيلية بين تصوير الحدث في التلفزيون وحقيقة الحادث كما جرى فعلا استنتج من خلالها الباحثان أن التلفزيون يعكس وجهة نظر فريدة من نوعها فهو يختار المناظر وزوايا الكاميرا بعناية وبحيث يضاعف من إثارة المشاهدين وهذا ما أكدته أبحاث أخرى* حيث توصلت إلى أن العالم الحقيقي والعالم الذي تقدمه وسائل الإعلام قد يكونا مختلفين إلى حد كبير.

وقد كتب جيمس ب. تويتشل "James B. Twitchell" في كتابه ثقافة الكرنفال "Carnaval culture" عن التلفزيون " إن ثقافة التلفزيون هي ثقافتي... لقد شاهدته طول حياتي ... وفطمت عن (أبوي) على ذلك الأوج (الذي بلغه حضوره في حياتنا) فعند نقطة غامضة في عقد الخمسينيات كف التلفزيون عن أن يكون شيئا إضافيا لا أهمية له ودخل في مجرى الدم، لقد أصبح نحن وأصبحنا نحن ما هو ..."[2].

فهذه نظرة تؤكد الحضور القوي للتلفزيون في المجتمعات الغربية واسهامه بشكل كبير في [illegible] الفرد في هذه المجتمعات بالأخبار والمعلومات، حيث يستولي على 30 و40% من وقت الأشخاص الشاغر أو

---

1 . Kurt Lang and Gladys Engel Lang**, the unique perspective of television and it's effects** : a pilot study، American sociological review XVII, PP. 3-12.

* Walter lippmann**, public opinion** (new York : Mc Millan, 1922).

- George Gerbner, **“violence in television drama : trends and symbolic functions”** In G. A Comstock And E. A Rubinstein 'Eds'، television and social behavior. vol. 1, media content and control (Washington D. C:us government printing office 1971).

2. راسل جاكوبي، نهاية اليوتوبيا: السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة، ترجمة فاروق عبد القادر، سلسلة عالم المعرفة (269)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت: مطابع الوطن، 2001، ص 93.

الحر، كما أن التلفزيون موجود لدى حوالي 80 و95% من الأسر في العالم الغربي[1].

ولذلك فإن قطاعا معتبرا من المثقفين الغربيين يعتبر أن التلفزيون يقدم منفعة تلهي عن القلق في حياة الوحدة والعزلة، وعن سأم الحياة الزوجية وتخفف من النزاعات العائلية، وتغطي الشعور بالعجز أمام تطور العالم، من خلال دفع الأفراد إلى تقمص أبطال وعبر منحنا وجبة يومية من إيماءات وحركات الكبار في هذا العالم، فتوحي بشكل وهمي بالقوة... كما أنه يمس فئات السكان التي تجاهلتها وسائل الإعلام لحد الآن. ويشكل أداة للديمقراطية، واستطاع أن يكون خميرة العلاقة الاجتماعية بين الأشخاص، كما أنه في نظرهم أبعد من أن يشجع على العزلة بل هو أداة للحوار[2].

كما أن للتلفزيون مزايا خاصة من خلال تركيزه الاستثنائي على المتع الحسية في كم واحد من التجربة، الصور المتحركة والأصوات الجذابة والمثيرة مقترنة بالطابع المتكرر لهذه المثيرات على الشاشة والمعززة بالمغريات الإدراكية للأصوات والصور الإنسانية المألوفة، ربما وفر تجربة فريدة في الإمتاع تمنح إشباعا لا يُقاوَم.

وقد أصبحت نشرة الأخبار التلفزيونية محط أنظار العديد من فئات المجتمع إما كفرع إخباري من أجل متابعة آخر الأحداث المهمة، أو كنوع من التسلية والترويح بالنسبة لآخرين، وقد تعاملت محطات التلفزيون

1. ناتالي كوست سيردان، **التلفزيون والمجتمع الدور المقلوب**، ترجمة نصر الدين لعياضي في نصر الدين لعياضي، وسائل الاتصال الجماهيري والمجتمع... مرجع سابق، ص 25-34.

2. المرجع نفسه، ص34.

التجاري مع نشرات الأخبار كمادة تعتمد على التسلية بالدرجة الأولى، فقدمتها في شكل روائي ممتع "Fictionalisation of The News" ومما يزيد من هذا الانطباع لدى المشاهد أن مذيعي الأخبار في التلفزيون أصبحوا بمثابة نجوم وفنانين ويعاملون على هذا الأساس من قبل الجمهور ومن المشرفين على المحطات الذين لا يترددون أن يدفعوا لهم أكثر من مليون دولار سنويا[1].

ولا يقتصر الأمر في التلفزيون على الأخبار بل إن الدراما التلفزيونية أضحت لها مصداقية عالية لدى الكثيرين، ويمكن أن تصبح مصدرا هاما لمعلوماتهم ورافدا أساسيا لثقافتهم العامة، فكثير من المشاهدين مثلا لم يدخلوا طوال حياتهم قاعة محكمة أو غرفة عمليات في مستشفى أو قسما للشرطة وتكون معلوماتهم محدودة جدا إن لم تكن منعدمة حول هذه المواضيع المختلفةالتي لها علاقة بحياتهم اليومية فمسلسلات مثل الطبيب كوينسي "Quency" أو مسلسل المفتش كوجاك"Kojak" أوكولومبو"Colombo" ستكون مصدر معلوماتهم الأساسية وسيعتبرون أن أغلب الأفكار والنماذج والتصرفات التي تقدم لهم في هذا الإطار تعكس بأمانة الواقع المعيش.

يضاف إلى كل ذلك عنصر الإبهار الذي تتميز به الأعمال التلفزيونية، حيث تبدو الصورة التي يعرضها التلفزيون أجمل من الواقع الحقيقي خاصة في

1. توفيق عبد يعقوب، التلفزيون وإشكالية الثقافة الجماهيرية والصناعات الثقافية، المجلة التونسية لعلوم الاتصال... مرجع سابق، ص 57 -62.

ظل التطورات المتسارعة التي شهدتها الصورة حيث يعتمد البث التلفزيوني الآن على الرقمي الذي يعرض الصورة بشكل جذاب.

ولذلك فإن الجانب الإيجابي لوسائل الإعلام السمعية البصرية والذي يتميز بطابعه المبهر الجذاب المثير في الوقت نفسه دفع العديد من المفكرين والأكاديميين والمتخصصين إلى الدفاع عن هذه الوسائل كأدوات أو كمضامين واعتبارها ضرورة من ضرورات العصر يجب التعامل معها بواقعية والكف عن كيل الانتقادات والتهم لها جزافا.

وتشير الأدلة العلمية إلى أن التلفزيون مثلا يسرع في عملية النمو العقلي للطفل ذلك بسبب تعرضه في وقت مبكر إلى صور ومشاهد تنتمي إلى عالم البالغين[1].

ويتخندق مارشال ماكلوهان ضمن المدافعين عن هذه الوسائل بحد ذاتها معتبرا أنها ساهمت في تقريب البشر من بعضهم البعض، ومقابل ذلك هناك من دافع بقوة عن مضامين هذه الوسائل معتبرا أن لا فرق بينها وبين الثقافة الراقية بل ولا يرى مانعا في خلط الترفيه والتسلية بالأخبار والمعلومات.

خصائص التلفزيون:

إذا كان للرسالة ولخصائصها الذاتية أهمية كبرى في التأثير على المتلقي، فإنه قد يكون لوسيلة الرسالة دور حاسم في ذلك وقد يصل الأمر إلى حد جعل لكل وسيلة رسالتها.

ولذلك تختلف الوسائل [illegible] في التأثير على الإنسان أو الجمهور وفقا لخصائص الرسالة والهدف المتوخي منها، ولطبيعة الجمهورحيث تنفرد

1. STEIN، Aletha and Fredrick, lynette, **impact of television on children and youth**، university of Pennsylvania press; Philadelphia. 1982, p p 183-274.

الوسائل السمعية البصرية عموما والتلفزيون على وجه الخصوص عن المواد المطبوعة بمجموعة من الميزات أبرزها:

- التلفزيون وسيلة اتصال إلكترونية جماهيرية تزودنا بالصوت والصورة والحركة واللون.

- تتميز التلفزة بحيازتها على أوسع جمهور ويليها في ذلك الراديو.

- المشاهدة التلفزيونية عادة جماعية وتكلفتها رخيصة.

- يمكن مخاطبة المشاهد بلغته عن طريق ترجمة البرامج إلى أكثر من لغة.

- جمهور التلفزيون متنوع الثقافات والتعليم والأديان والأجناس واللغات[1].

- تعتبر وسائل الإعلام السمعية البصرية مجالا مفضلا للشعور والعاطفة.

- تنفرد التلفزة بعملية التأثير السريع، ولكنه يتلاشى بسهولة أكبر مع مرور الوقت.

- كما ينفرد التلفزيون بالجمع بين الصوت والصورة، خاصة مع ميل الإنسان لتصديق ما رآه أكثر مما سمعه.

- يمكن مشاهدة التلفزيون والاستماع إليه أثناء القيام بأعمال أخرى، كما يعطينا حرية اختيار أكثر من قناة.

- الراديو والتلفزيون بإمكانهما تخطي حاجزي الزمان والمكان واجتياز حاجز الأمية خاصة في بلدان العالم الثالث التي يقل فيها عدد المتعلمين.

- مجال التغطية التلفزيونية محلي وإقليمي وعالمي عبر الأقمار الصناعية.

---

1. إبراهيم أبو عرقوب، مرجع سابق، ص93-94.

– يقول أحد الباحثين: "النقطة الأساسية فيما يتعلق بالتلفزيون هي أن قدرا كبيرا من الطاقة يصدر عن الجهاز تجاهك، بينما أنت جالس هناك في حالة سلبية، وهذه الطاقة تدخل إليك وحين تغلق الجهاز يتعين على تلك الطاقة أن تخرج ثانية والذي ألاحظه في أطفالي أنها تخرج بطريقة غبية جدا –غير واعية– طاقة.....نوبة غضب قصيرة ينفجرون في أثنائها بين دفع ودَسْر بسبب عدم الرضا"[1].

– " إن التجربة التلفزيونية من دون أن تختلف عن المخدرات أو الكحول تتيح للمشارك محو العالم الحقيقي والدخول في حالة عقلية سارة وسلبية"[2].

وهكذا تكتسب عملية المشاهدة التلفزيونية بالنسبة للكثير من المشاهدين أهمية تتجاوز المضامين الفعلية للبرامج التي يشاهدونها"[3].

الصورة التلفزيونية: يجمع التلفزيون بين الصوت والصورة، ويُكون مشهدا يعتبر خلاصة إمكانيات الراديو والسينما، حيث يضيف التلفزيون إلى سحر الصوت إغراء الصورة المتحركة، حيث تساعد الصورة عموما حركات يدي المذيع وتعبيرات وجهه في توصيل الرسالة الإعلامية وتكملتها، وتعتبر أولى العناصر الرئيسية المكونة للبرامج التلفزيونية وتؤدي الصورة وظيفتين بالنسبة للتلفزيون هما:

1. ماري وين، **الأطفال والإدمان التلفزيوني**، ترجمة عبد الفتاح صبحي، سلسلة عالم المعرفة (247)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (الكويت: مطابع الوطن، 1999)، ص 33.

2. المرجع نفسه، ص38.

3. المرجع نفسه، ص42.

- **وظيفة طبيعية:** تحدث تلقائيا بمجرد العرض التلفزيوني، بمعنى أن برامج التلفزيون تعرض عن طريق الصور ودونها لا يمكن أن يكون هناك عرض تلفزيوني.

- **وظيفة فنية:** تصنع وتوظف لخدمة المضمون، حيث أن وجود الصور في التلفزيون يوصل بعض البرامج بفاعلية أكثر من برامج الراديو- كمباريات الملاكمة- وينقل حقيقة الشيء إلى المشاهد، كما أن الصورة هي العنصر الجوهري في التلفزيون.

والذي يمكن من تحويل بعض الأفكار والمعلومات إلى صيغ صورية تساهم في نقل مضمون البرامج بالأسلوب التلفزيوني حتى بدا من الطبيعي أن يتكون لدى الناس ما يمكن أن يطلق عليه العقلية البصرية أو " الإنسان الموجه بصريا أو مرئيا " وقد كتب عالم الاتصال الكندي الشهير مارشال ماكلوهان عن التلفزيون قائلا: " إن نجاح أي مؤد على شاشة التلفزيون، يعتمد على طريقة أدائه، والتلفزيون يتطلب الهدوء والسخرية الهادئة والحوار، لا الخطب والاقتراحات والبيانات والالتزامات لا الأوامر، أي أن الهدوء وعدم الاهتمام وهي كلمة السر ولكنه هدوء وعدم اكتراث مدروس..."[1].

بين المكتوب والمرئي، أوالاتصال الساخن في مواجهة البارد:**

في إطار المقارنة بين الكلمة المنطوقة و الكلمة المكتوبة من حيث فاعليتهما في الإقناع تشير النتائج بوجه عام إلى أن الكلمة المنطوقة تنطوي على تأثير إقناعي أكثر من الكلمة المكتوبة (Cantril &Allport 1935;

---

1. عاطف عدلي العبد... مرجع سابق، ص 136-138.

** الاتصال الساخن حسب ماكلوهان تكون فيه العلاقة مباشرة متفاعلة بين المرسل والمستقبل. (عالم المكتوب).

أما الاتصال البارد فتكون فيه العلاقة ساكنة غير مباشرة. (التلفزيون) وسيلة باردة.

(Eliott1937 و من ناحية أخرى لم تجد دراسات أخرى فروقا بين الأسلوبين (Tannelbaum And Kerrick 1954).

و قد وُجد بوجه عام أن الفهم يكون أكبر أثناء القراءة عنه أثناء الاستماع (1951Hor. Mood 1958،Beighley).

و في دراسة أخرى (Heak 1967،whittaker) تبين أن القائم بالاتصال يكون أكثر قابلية للتصديق في حالة الرسائل الشفوية منها في حالة الرسائل المكتوبة.

ويبين العلم الحديث أن الإنسان يوزع زمنه الاتصالي على النحو التالي:

1- الاستماع بنسبة 45%.

2- الكلام بنسبة 30%.

3- القراءة بنسبة 16%.

4- الكتابة بنسبة 09%[1].

ويمكن فهم استجابة الأفراد لوسائل الاتصال المختلفة، على نحو جزئي اعتمادا على مستوى اندماج الجمهور مع الرسالة التي تقدمها، وهذا يوحي بأن الوسائل التي تنتقل عن طريقها المعلومات في ذاتها تمارس تأثيرا على الجمهور بصرف النظر عن التأثير الناتج عن مضمون المعلومات، فيذهب البعض مثلا إلى أن التلفزيون يميل لجعل مشاهديه في حالة من

---

1. عبد الرحمان عزي، قراءة ابستمولوجية في تكنولوجيا الاتصال، المستقبل العربي، السنة 23، العدد 258، آب – أغسطس 2000، ص 22-32.

السلبية الذهنية (Assel 1981) وربما يرجع هذا إلى أن جمهوره في حالة المشاهدة يتعود على أن يأخذ وضع الاسترخاء كأن يتكئ إلى الخلف ويشاهد ما يعرض عليه.

وتكون سرعة عرض الصور التلفزيونية خارج نطاق قدرته على التحكم فيها، وهي أيضا أسرع من أن تسمح له بالتأمل أو التفكير فها لهذا يعتبر الكثيرون مشاهدة التلفزيون من الأنشطة غير الحافزة على التفكير فضلا عن أنها تبعث على الإحساس بالاسترخاء والخمول (1981، Csikszentminhly) ومن ثم فإنه ليس بغريب أن تؤدي الوسائل الإذاعية عموما والتلفزيون على نحو خاص إلى خفض مستوى اندماج الجمهور مع الرسالة التي تقدمها.

ولننظر إلى الفارق بين مشاهدة التلفزيون وقراءة صحيفة، في الحالة الأخيرة يمكن للجمهور أن يجد المعلومات على الصفحات المطبوعة، وليس شرطا أن تكون جذابة، المهم أن هناك وقتا للتفكير فها، ولبلورة وجهة نظر المتلقي (القارئ) في المعلومات المقدمة، وعلى العكس قد يجد مشاهدو التلفزيون الصور المتحركة، على الشاشة أكثر جاذبية من القصص المكتوبة في الصحف، إلا أنهم لا يكونوا منه محبين بالضرورة فيما يشاهدونه بطريقة النشط في المضمون الكلي للمادة، حيث تكون هذه المضامين والتشعيبات غالبا هامشية في المحيط العقلي.

وما يجذب الاهتمام في هذه الحالة هو الجوانب المركزية لمستوى النشاط الذهني المنخفض الذي يستثيره التلفزيون في جمهوره فإن الجوانب المركزية أو السائدة فيما يشاهدونه تترك فيهم انطباعا قويا، وهذه الملامح

تبدو بوضوح في الوسائل الإعلامية الإذاعية (Chaiken And Eagly 1983 Eagly and Chaiken،1984).

من هنا فإن العكس صحيح عند قراءة المتلقي لنفس الرسالة في الوسائل المطبوعة، حيث يكون أكثر ميلا للاهتمام بكل جوانب الموضوع المعروض والاستغراق في التفكير (Wright 1947)[1].

ولقد وجد الباحثون أن الفرد الذي عاش قبل ظهور التلفزيون كان يقضي وقتا أطول في قراءة الكتب والاستماع إلى الراديو ومشاهدة الأفلام في دور السينما ويكتب عددا أكبر من الرسائل، وقد يقضي وقتا أطول في الاهتمام بشؤون المنزل وفي الزيارات واللقاءات الاجتماعية، وكان يذهب إلى النوم في ساعة مبكرة[2].

ويمكن تلخيص أهم الفروق بين القراءة والمشاهدة في النقاط التالية:

– حين نقرأ نستطيع ضبط السرعة حسب رغبتنا في القراءة، فإذا لم نفهم شيئا، فقد نتوقف ونعيد قراءته أو نمضي باحثين عن شرح قبل أن نواصل القراءة وإذا كان ما نقرأه مثيرا للمشاعر، قد نضع الكتاب جانبا للحظات ونتكيف مع انفعالنا دون خوف من أن يفوتنا شيء، و**بالمقابل** لا يمكننا التحكم في سرعة البرنامج التلفزيوني، حيث نستطيع التحكم فقط في البداية (التشغيل) أو النهاية

1. زين العابدين درويش (وآخرون)، **علم النفس الاجتماعي: أسسه وتطبيقاته**، الطبعة الثالثة، مركز النشر لجامعة القاهرة، 1994، ص 222-223.

2. بدران عبد الرزاق، **التلفزيون وسيكولوجية الفرد**، مجلة بحوث، المركز العربي لبحوث المستمعين والمشاهدين، عدد 18، سبتمبر 1986، ص 68-79.

(الإيقاف) كما لا نستطيع إبطاء أو تسريع برنامج كما لا نستطيع العودة إلى الوراء إذا كانت هناك كلمة أو عبارة غير مفهومة.

– الصورة المتوقعة عند القراءة يجد القارئ الحرية في تركيبها، و**بالمقابل** نستقبل الصورة التلفزيونية البصرية مباشرة من جهاز التلفزيون بشكل قوي لكنها أقل إشباعا في النهاية، حيث أن العقل ليس عليه أن يمارس عملا أو يحل شفرة.

– القراءة عمل شخصي يعمل على تنمية مهارات التخيل لدى القارئ وتستلزم ممارسات عقلية معقدة فهي حسب" ألبرتو مانغويل" عملية بصرية مصحوبة بالتأمل والخيال والتدبر، و**بالمقابل** يعمل التلفزيون على إضعاف مهارة التخيل بشكل كبير حيث يقع المشاهد تحت سلطة خيال معدي البرنامج.

– تجربة القراءة تمتاز بطبيعة غير ميكانيكية سهلة المنال يسيرة الانتقال من خلالها يكتسب القارئ مهارة التهيؤ للتركيز، و**بالمقابل** يحدث تشوش حسي أثناء المشاهدة التلفزيونية نتيجة لحركة الصور التلفزيونية الناجمة عن صراعات بصرية حركية.

– تستحوذ القراءة على الفكر والانتباه لكنها لا تُنوم مغناطيسيا أو تشغل القارئ عن مسؤولياته الإنسانية، **بينما** الشخص الذي تعلم أن يركز سيفشل في إدراك الكثير من الأنماط المعلوماتية التي تنقلها المثيرات الإلكترونية ذلك أن العينين والأذنين في التلفزيون تغمرهما فورية المناظر والأصوات.

– القراءة عملية ثنائية الاتجاه، فالقارئ يستطيع أيضا أن يكتب، كما أن الكتب والمواد المطبوعة متاحة في كل وقت، بينما المشاهدة التلفزيونية فهي طريق وحيد الاتجاه.

- عندما تركز العين على شاشة التلفزيون وتستوعبها في حدة بالكامل يمحو العقل العالم الخارجي تماما، وعندما يغيب هذا الأخير يزيد اهتمامنا بالصورة التلفزيونية.

- ما يهم الوسائل السمعية البصرية (الإلكترونية) هو الانفتاح Openess حيث يتيح للمثيرات السمعية والبصرية المزيد من سهولة الوصول المباشر إلى الدماغ[1].

- القراءة ملَكَة صعبة الاكتساب، أما مشاهدة التلفزيون فلا تقتضي مجهودا.

- تبدو الحقيقة من خلال وسيلة التلفزيون موضوعية، إلا أن تجربة المرئي تكون ذاتية محضة على اعتبار أن المرئي تقليص وتشويه للحقيقة الموضوعية في غياب السردية والخطابية ومن ثم القيمة في بنية هذا المرئي...ذلك أن الإنسان حكى وجوده ومعناه سرديا وذلك مثل الأسطورة أو التاريخ في حالة، المجتمع أو السيرة الذاتية في حالة الفرد وذلك بصفة التتابع الزمني والتحول، أما المرئي في مقابل ذلك فإنه يحطم البنية السردية للخطاب، فقد أفقر المرئي اللغة الطبيعية رأي الشفوية والمكتوبة[2].

التلفزيون ضد البيداغوجيا والمعرفة:

طًرحت مشكلة التلفزيون كذلك على المستوى التربوي حيث اعتبر مختصو التربية والأساتذة على وجه الخصوص أن مشكلة الخمول والسلبية التي تخلفها وسائل الإعلام وخاصة التلفز المردود البيداغوجي للأطفال "التلاميذ" قد

1 . Tony Schwartz، The responsive chord، (New York : anchor/ double day، 1973).

2. عزي عبد الرحمان، الإعلام والبعد الثقافي: من القيمة إلى المرئي، المجلة الجزائرية للاتصال، العدد 13، مرجع سابق... ص 95-113.

اتسعت بشكل ملحوظ، فها هو أحد الأساتذة الذي سأله الباحثون يؤكد قائلا:" لاحظت منذ الدخول المدرسي أن أحد تلميذاتي (6 سنوات) تبدو دائما أنها خارج القسم، فلا تجيب عن الأسئلة ولا تقوم بأي شيء آخر، لقد كانت في عالم آخر عندما علمت أنها تشاهد كثيرا التلفزيون أدركت أنها تستعيد ما شاهدته من أفلام حتى تعايشها مرة أخرى"[1]، حيث ينظر النقاد الأمريكيون للتلفزيون على أنه "عقار مُسكن".

ولم يتوقف التأثير على الأطفال والتلاميذ عند هذه الدرجة بل تعداها إلى ضعف علامات (درجات) التلاميذ في الفصل الدراسي في عدة دراسات أقيمت في الولايات المتحدة الأمريكية، كما وجد الباحثون كذلك تراجعا في عملية التفكير الاستدلالي "Inferential Reasoning" والتي تسمى أيضا مهارة القراءة المتقدمة "Advanced Reading" والتي تعني قراءة مواد عالية المستوى والقدرة على استخلاص استنتاجات وتكوين أحكام وخلق أفكار جديدة من خلال ما يقرأه المرء وهو العامل الحاسم الذي يشكل أساس القراءة الهادفة في الأدب والتاريخ والعلوم وغيرها من المجالات[2]، كما وُجد أن الكثير من الأطفال يجدون صعوبات جمة في التكيف مع التجارب البصرية.

ويشير الباحثون كذلك إلى تزايد التلاميذ العاجزين عن كتابة جمل متناسقة أو حل مسألة حسابية بسيطة، مما أدى بالجامعات إلى التفكير في القيام بعمل

1. بيرغلان أوليفين، الخمول والهروبية في تأثير وسائل الاتصال الجماهيري، ترجمة نصر الدين لعياضي، وسائل الاتصال الجماهيري والمجتمع، مرجع سابق... ص 85- 103.

2. ماري وين، الأطفال والإدمان التلفزيوني... مرجع سابق، ص 93-114.

علاجي في هذه المهارات الأساسية، خاصة بعدما لاحظ الباحثون أن غالبية التلاميذ تميل إلى استعمال أبسط تركيب للجملة وأكثر المفردات شيوعا عند الكتابة، كما أن مقالاتهم أكثر فجاجة وتفككا وهو ما حدا بأحد المؤلفين التربويين وهو كارلوس بيكر إلى القول: "إن تعلم الكتابة هو أصعب وأهم شيء يفعله أي طفل، إن تعلم الكتابة هو تعلم التفكير"[1].

وفي محاولة لتحديد مفهوم الخمول قام الباحثون: هملويت "Himmelweit" و أوبنهيم "Oppenheim" وفنس "vince" بدراسة ميدانية كبرى أجريت ببريطانيا سنة 1958 حول تأثير التلفزيون في الأطفال وتوصلوا إلى خمسة أشكال مختلفة من توظيب مصطلح الخمول وأكدوا النتائج التالية :

1- إن فعل المشاهدة ذاته هو نشاط سلبي.

2- يستطيع التلفزيون أن يقود الطفل إلى تفضيل رؤية نسخة من الحياة ذاتها.

3- يفرز التلفزيون حالة المشاهدة وفقدان المبادرة.

4- التلفزيون يضجر.

5- التلفزيون ينهك التخيل "l`imagination"[2].

ويؤكد العلماء عدم حيوية نصف كرة الدماغ الأيسر عند الذين يكتفون فقط بمزاولة أنشطة بصرية، ذلك أن أهم فرق بين نصفي كرة الدماغ الأيسر

---

1. المرجع نفسه، ص 104.

2. جمال العيفة، الثقافة الجماهيرية: عندما تخضع وسائل الإعلام والاتصال لقوى السوق، الجزائر: منشورات جامعة عنابة، 2003، ص 125.

والأيمن يتعلق بتحكم الدماغ في المادة اللفظية وغير اللفظية فنصف كرة الدماغ الأيسر يدير معظم أنشطة الدماغ اللفظية والمنطقية، ولهذا السبب فإنه كثيرا ما يسمى نصف الكرة "المسيطر" أما الوظائف المحددة لنصف الكرة الأيمن وعلى الرغم من بعض الغموض الذي يشوبها فإنها مرتبطة عموما بالأنشطة المكانية والبصرية وربما الأنشطة الوجدانية"[1].

وما يمكن أن يلخص هذا العنصر هو ما اشتكى منه مدرس إحدى المدارس المتوسطة الأمريكية من أن التلفزيون يؤثر على التلاميذ ولا يدعهم ينجزون واجباتهم المنزلية حيث يقول : "إن إعطاء واجب منزلي مساء الثلاثاء ليس سوى قضية خاسرة، فكيف يستطيع أي شخص منافسة:

"Laverne ، Shirley، Susanne Soners Fonz"

إن البرامج* قد تتغير من سنة إلى أخرى لكن فتنة التلفزيون تظل كما هي[2]".

نحو تطوير المكتوب وتطويع المرئي:

بالموازاة مع ذلك ولتخليص الأفراد من هيمنة التلفزيون ودكتاتوريته الإلكترونية التي غالبا ما تنشر ثقافة سطحية تحمل أفكارا عامة، يقترح بعض الباحثين ضرورة تنمية مهارات القراءة بمستوياتها المختلفة والتي تعيد الإنسان إلى المشاركة الفعالة في الحياة اليومية الحقيقية وليست الحياة الوهمية التي تصنعها وسائل الإعلام الحديثة، معتمدا بالدرجة الأولى على عنصر الخيال، ومن أبرز هذه المهارات نجد:

---

1. ماري وين، ص 60-61.

* برامج أطفال في التلفزيون الأمريكي.

2. المرجع نفسه، ص 109.

- القراءة المتعجلة Skimming reading.
- القراءة الانتقائية Skipping reading.
- القراءة العادية Normal reading.
- القراءة المتعمقة Indeph reading [1] أو قراءة متقدمة advanced reading أي قراءة مواد عالية المستوى.

و يقول الروائي جيرزي كوزنسكي jerzy kosiski : "إن القراءة تقدم دعابات فجائية، غير مطروقة، وتبصرا جديدا في مراوحات حياة المرء الذاتية، فالقارئ تستوهبه مخاطر الإبحار في النص، وتأمل حياته الخاصة في ضوء المعاني الشخصية للكتاب"[2].

وبالتالي يمكن الاستفادة أكثر من علم القراءة الذي أسس له جاك دريدا "J. Derida"على الرغم من أن التفكيكية التي يتزعمها هذا الأخير تنفي وجود قراءة صحيحة أو قراءة واحدة وقالت بالقراءات المتعددة ورفضت القراءة الأصلية أو المحكمة .

حيث يوفر العديد من المداخل المهمة كما أنه يعتبر عودة إلى عالم المكتوب والمطبوع الذي انحسر بفعل انتشار وتطور المرئي على اعتبار أن المكتوب يتوفر في أغلبه على مضمون جاد وعميق، ذلك أن الاختلاف الكبير بين الصورة المقروءة " أي صور الحروف والكلمات والصور التي نتلقاها حين نشاهد التلفزيون" يتمثل في أننا نخلق صورنا الخاصة حين نقرأ،

1. نبيل علي... مرجع سابق، ص 278.

2. jerzy kosiski, quoted **in** Horace new comb, Television : the critical view, (London : oxford university press 1976).

بالاستناد إلى تجارب حياتنا الخاصة وبما يعكس حاجاتنا الفردية الخاصة، بينما يجب علينا أن نقبل ما نستقبله حين نشاهد الصور التلفزيونية إننا حين نقرأ فكأننا تقريبا نخلق برامجنا التلفزيونية الداخلية الصغيرة الخاصة وتكون النتيجة تجربة تغذي الخيال وكما قال برونو بتلهايم "Bruno Bettelheim" فإن:" التلفزيون يأسر الخيال لكنه لا يحرره، أما الكتاب الجيد فإنه ينبه الذهن ويحرره في الوقت ذاته"[1].

وفي إطار علم القراءة دائما فقد ظهر مصطلح جديد يمكن أن يؤسس لفكر جديد يسمى إدارة القراءة "Reading Management"، فحين نقرأ نستطيع ضبط السرعة حسب رغبتنا في القراءة فإذا لم نفهم أعدنا القراءة حتى نفك رموز ما نقرأ غير أننا لا نستطيع التحكم في سرعة البرنامج التلفزيوني لأن البداية "التشغيل" والنهاية "إيقاف عمل الجهاز" وهما اللتان تخضعان لسيطرتنا لأن البرنامج يتحرك إلى الأمام دون هوادة وقد تمر علينا العديد من الكلمات والعبارات غير المفهومة دون التمكن من إعادة عرضها ولذلك فإن كلا من العينين والأذنين في التجربة التلفزيونية تغمرهما فورية المناظر واللقطات والأصوات التي تمر بسرعة ودون ترك مجال أوسع للتفكير الملي والمعمق. تؤثر المشاهدة التلفزيونية في كم ما نقرأ أو طبيعته، وشعورنا تجاه القراءة وما نكتبه وما نكتبه ومدى جودته ما دامت مهارات الكتابة ترتبط بصورة وثيقة بتجارب القراءة.

---

1. ماري وين، الأطفال والإدمان التلفزيوني... مرجع سابق، ص 73 75.

وفي هذا السياق يقول دونالد بار Donald Barr : "إن التلفزيون يجعلك تلقي نظرة عابرة على الصفحة، وذلك يختلف كثيرا عن القراءة"[1]

ومع هذه الدعوة إلى ضرورة الاعتماد على عملية القراءة التي تحتوي على العديد من الممارسات العقلية المعقدة التي تجعل الفرد قادرا على استعمال عقله مما يفتح له المجال للقيام بالعديد من الأعمال المنطقية والعقلية التي تجعله يستغل هذه المَلَكَة في تعزيز تجربة الحياة اليومية لديه ولا يبقى حبيس مَشاهد تلفزيونية متسارعة قد لا تلبي سوى نزر يسير مما يحتاجه الفرد في علاقاته اليومية.

ولقد أدرك هذه الأهمية العديد من التربويين في الولايات المتحدة الأمريكية فوضعوا برامج خاصة للتشجيع على القراءة وهو ما يلخصه قول دانيال بورستين Daniel Boorstin أمين مكتبة الكونغرس سابقا في دعوته للقراءة بقوله:" من أجل أن نستفيد من شعب من القراء لا بد أن يكون لدينا مواطنون يستطيعون القراءة، إن واجبنا المحدد الأول هو عدم السماح للصورة الإلكترونية المنشورة أو الكلمة الشائعة بأن تحُول بيننا وبين الجهد الأساس لتربيتنا لا بد لنا من تنشئة مواطنين مؤهلين لاختيار تجربتهم بأنفسهم ومن كتب الماضي والحاضر وبذلك نؤمن الاستقلالية التي يستطيع القارئ وحده أن يستمتع بها"[2].

وما يلاحظ من خلال هذه الفقرة أن المجتمعات الغربية انتبهت إلى ضرورة إحداث موازنة على الأقل بين عالم المطبوع والمرئي حتى لا يطغى

---

1 . quoted **in** Norman Morris; Televisions child (restore little brown, 1971).

2. المرجع نفسه، ص 111-112.

هذا الأخير بكل سلبياته فينتج أفرادا غير قادرين على القيام بأبسط العمليات العقلية.

واقع القراءة في العالم العربي:

قبل استعراض واقع القراءة في العالم العربي سنتطرق لجزء من هذا الواقع في الدول المتقدمة مثل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا واليابان و ذلك من خلال التعرض لبعض مؤشرات التعليم في هذه البلدان، باعتبار أنه أهم ميدان تمارس فيه القراءة.

فإذا عقدنا مقارنة بين حالة التربية والتعليم في الدول المتقدمة والدول العربية نجد أن الطلبة في اليابان يدرسون فعليا 220 يوما من أصل 366 يوما وهو عدد أيام السنة، أما في الولايات المتحدة الأمريكية فيدرسون فعليا 175 يوما من أصل 366 يوما.

في حين أن الطالب في الدول العربية يدرس فقط 150 يوما في السنة[1].

أما عن مؤشر استهلاك ورق الصحف فقد تراجع في العالم العربي لكل فرد من 3.3 كلغ سنة 1985 إلى 207 كلغ سنة 1995، وفي الفترة نفسها ارتفع في أوروبا من 55.7 كلغ إلى 82.2 كلغ.

في حين بلغ عدد أجهزة التلفزيون في الوطن العربي سنة 1995 حوالي 28 مليون جهاز، أي بمعدل 109 جهازا لكل ألف من السكان[2].

وهو ما يؤكد ارتفاع نسبة من يعتمدون على سلوك المشاهدة في عالمنا العربي مقابل من يُقبلون على تجربة القراءة.

---

1. "حصة بلا حدود" (21-02-2001) موقع: www.Aljazeera.Net.
2. المصدر: كتاب اليونسكو الإحصائي السنوي لسنة 1997 .UNESCO YEAR BOOK 1997

كما يقل عدد الصحف في البلدان العربية عن 53 لكل 1000 شخص مقارنة مع 258 صحيفة لكل 1000 شخص في البلدان المتقدمة[1].

أما عن واقع القراءة في الولايات المتحدة الأمريكية مثلا فتشير الإحصائيات أن أعدادا متزايدة من الأمريكيين عاجزة عن القراءة، أولا يجسدها لدرجة تقيدهم، حيث أنه من 10 إلى 12 في المائة من سكان الولايات المتحدة الأمريكية لا يستطيعون القراءة، ومن بين الذين يستطيعون القراءة نجد أن حوالي 60% لا يقرؤون الكتب والمجلات والصحف عمدا، وفي التعليم العالي يتجلى ذلك في انخفاض الأداء والاختبارات الشفهية وفي انخفاض القدرة على قراءة وفهم المواضيع الطويلة[2].

كما كشفت دراسة أمريكية حديثة أن أطفال ما قبل المدرسة يمضون وقتا أمام التلفزيون وأجهزة الكمبيوتر واللعب خارج المنزل أكثر بثلاث مرات من الوقت الذي يستغرقونه في القراءة.

وذكرت الدراسة التي تهدف لبحث مدى تعرض الصغار لوسائل الإعلام أن الأطفال ما بين 6-9 سنوات يقضون ساعتين يوميا في المتوسط في مشاهدة التلفزيون والفيديو كما يمضون ساعتين أيضا في اللعب خارج المنزل.بما يعادل ثلاثة أضعاف الوقت الذي يقرأون فيه أو يقرأ لهم، ويبلغ حوالي49 دقيقة يوميا.وقال الباحث الرئيس للدراسة كايسر ريد أوت : "اكتشفنا أن أطفال اليوم ينضجون وهم غارقون كليا في وسائل الإعلام الإلكترونية"، وقد أوضحت الدراسة أن مشاهدة التلفزيون تؤثر على مهارات

1. برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003، نيويورك، 2003.

2. القراءة القريبة والمطالعة الشاقة تضعفان البصر، موقع : www.aljazeera.net

القراءة لدى الأطفال، فمن غير المحتمل أن يستطيع الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون بكثرة القراءة قبل سن السادسة، وخلصت الدراسة إلى أن 34 في المائة من هؤلاء الأطفال الذين تتراوح أعمارهم من 4–6 سنوات لا يستطيعون القراءة على النقيض من 56 في المائة من أطفال أقل تعرضا للتلفزيون، وفقا للعينة التي خضعت للبحث[1].

ويبلغ عدد الصحف في الولايات المتحدة الأمريكية 1654 صحيفة يومية و 7710 صحيفة أسبوعية ويبلغ عدد محطات الإذاعة ما يقرب من 10 آلاف محطة إذاعية وأكثر من 1220 محطة تلفزيون ويصل البث التلفزيوني إلى 98% من البيوت الأمريكية، وتدل بعض الدراسات أن 65% من الشعب الأمريكي يعتمد على التلفزيون كمصدر رئيسي للأخبار، ويقدر الباحثون أن القارئ الأمريكي العادي يصرف حوالي 15 دقيقة يوميا في قراءة الصحيفة، فيما يبقى جهاز التلفزيون في البيت الأمريكي مفتوحا لمدة سبع ساعات.

وعلى الرغم من هذه الأرقام المذهلة فإن أنظمة التعليم الغربية تعتمد بشكل أساس على القراءة والمطالعة والدراسة الشاقة لتحقيق النجاح والتفوق الأكاديمي.

أما في الدول العربية فتشير الإحصائيات إلى أن مصر وحدها تنشر من العناوين ما يعادل منشورات كل البلدان العربية (ما عدا لبنان التي لم تقدم إحصائيات إلى اليونسكو سنة 1996).

---

1. جريدة الخبر، العدد 3923، 01-11-2003.

وإذا قارنا بين إنتاجنا وإنتاج البلدان المصنفة التي لنا علاقات وطيدة معها، فإننا نلاحظ أن مصر تنشر كتابا لكل واحد وعشرين ألف نسمة (21000) في حين أن المملكة البريطانية تنشر كتابا لكل سبعة آلاف نسمة، أي ثلاثة أضعاف ما تصدره مصر، في حين أن تونس والجزائر والمغرب الأقصى تصدر كلها كتابا واحدا لكل سبعين ألف نسمة، وفرنسا كتابا واحدا لعشرة آلاف نسمة[1].

وقد كان متوسط الكتب المترجمة لكل مليون شخص من العرب في السنوات الأولى من الثمانينيات يساوي 4.4 كتب، أي أقل من كتاب واحد كل سنة، بينما بلغ 519 كتابا في المجر و920 كتابا في إسبانيا[2].

وقد توصل أحد الباحثين مثلا إلى أن التونسي ليس بقارئ، بمعنى أنه لا يقرأ للمتعة بما قرأ، بل مطالعته جبرية (نفعية)، أي أن الموظف يقرأ لإعداد امتحان انتداب أو مسابقة وأن الطالب أو التلميذ يقرأ لكي يتحصل على علامة مرتفعة في امتحانه وينجح في مسيرته الدراسية[3].

ويؤكد الباحث ذاته أنه بفعل تدني القدرة الشرائية للمواطن التونسي فليست هناك مخصصات دنيا لاقتناء الكتاب، وإن وجدت فقليلا من تخصص أكثر من خمسين دينارا سنويا لشراء الكتب، ونجد أيضا بعض المدرسين الذين يقرون بأنهم يخصصون ميزانية تتراوح بين 150 و200 دينار

---

1. مُحَمَّد عبد الجواد، واقع النشر وصناعة الكتاب في الوطن العربي، في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، التصنيع الثقافي وإنشاء سوق ثقافية عربية مشتركة، مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي 16-22 نوفمبر 2000، ص 225-226.

2. برنامج الأمم المتحدة الإنمائي... تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003، مرجع سابق.

3. المرجع السابق، ص 247.

سنويا لهذه العملية مع التأكيد أن أغلبيتهم يلجأ ون إلى التبادل، كما انه قليلا ما نرى أشخاصا يفكرون في إهداء كتاب في المناسبات (عيد ميلاد أو أي عيد آخر أو بمناسبة نجاح مدرسي)[1] ، ففي السويد مثلا يهدى للمولود الجديد كتاب...

وهذا ما يؤكده تقرير التنمية البشرية العربية لعام 2003 حيث أشار أن الإنتاج الأدبي العربي يعاني من قلة عدد القراء بسبب الأمية وضعف القدرة الشرائية للقارئ العربي، فلا يتجاوز الإنتاج العربي في مجال الكتب 1.1% من الإنتاج العالمي رغم أن العرب يشكلون 5 % من عدد سكان العالم[2].

أما عن واقع القراءة في عالمنا العربي عموما وفي الجزائر على وجه الخصوص فتؤكده الدراسة التي قامت إحدى الباحثات العربيات في التدريب على فنون القراءة بإحدى المراكز النسائية المخصصة لهذا الغرض حيث أكدت نتائجها أن 41% من المتدربات طوال سنوات التدريب لم تعتب أرجلهن داخل المكتبة لاستعارة كتاب واحد، وأن 70% يقرأن فقط ما يطلب منهن ومعظمها تكون مناهج دراسية، كما أن 66% منهن تقتصر قراءتهن على المواضيع العامة من المجلات النسائية والصحف المحلية، ووجدت أيضا أن 71.6% يعتقدن أن الاستمتاع هو الهدف الرئيس من وراء القراءة.

وهذا ما يطلق عليه المتخصصون مصطلح عسر القراءة (DYSLEXIA) حيث يؤكدون أن الذين يعانون من عسر القراءة تتراوح نسبتهم في كل مجتمع بين 4 و10%[3].

---

1. المرجع نفسه، ص 249.
2. برنامج الأمم المتحدة الإنمائي... تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003، مرجع سابق.
3. ألكسو تحذر من تفشي الأمية في الوطن العربي، موقع: www.aljazeera.net

وتبين الإحصائيات التي صدرت عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أن عدد الأميين في الوطن العربي بلغ 68 مليونا أي ما نسبته 43% من عدد السكان، وأن المواطن العربي لا يقرأ أكثر من 7 دقائق في السنة، كما أن 90% من الطلبة العرب لا يمتلكون ثقافة معلوماتية[1].

وفيما يتعلق بالجزائر فإن السياسة الاستعمارية الرامية إلى تجهيل الجزائريين إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر كان لها بالغ الأثر في التأثير على واقع القراءة فيها حيث كان أكثر من أربعة أخماس الشعب الجزائري أميين لا يقرأون ولا يكتبون عند نهاية الاستعمار الفرنسي في الجزائر عام 1962[2]، وقد كان 90% من الجزائريين محرومون من التعليم في مدارس التعليم الفرنسي بالجزائر[3].

وقد توصل التقرير المتعلق بحالة السكان في العالم لسنة 2003 الصادر عن صندوق الأمم المتحدة للسكان في الثامن من شهر أكتوبر وكذا عملية المسح التي قام بها الديوان الوطني للإحصائيات بالجزائر والتي مست 3268 شابا أعزبا تتراوح أعمارهم ما بين 15 و29 سنة منهم 1501 إناث وموزعين على 1927 شابا في الوسط الحضري و1341 في الوسط الريفي، إلى أن الأغلبية الساحقة من الشباب يشاهدون التلفزيون كل يوم تقريبا بنسبة 82.1 % مقابل 2.4% لا يشاهدونه بتاتا و20.2% من الشباب لا يطلعون أبدا على الصحف اليومية والمجلات مقابل 19.3% يقرأ ون تقريبا كل يوم.

1. وجيهة الحويدر، مشكلة عسر القراءة عند العرب، جريدة الوطن، السنة الثانية، العدد 407، 10نوفمبر 2001.
2. تركي رابح، مشكلة الأمية في الجزائر، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص17.
3. المرجع السابق، ص23.

والجدول التالي يعرض المسألة بالتفصيل[1]:

الوتيرة	ذكور	إناث	إجمالي
تقريبا كل يوم	% 82.9	% 81.3	% 82.1
مرة على الأقل في الأسبوع	%12.7	%13.6	%13.1
أقل من مرة في الأسبوع	%1.7	%3.0	%2.3
ولامرة	%2.6	%2.1	%2.4

جدول يبين توزيع الشباب
حسب مشاهدة التلفزيون.

الوتيرة	ذكور	إناث	إجمالي
تقريبا كل يوم	%19.7	%18.9	%19.3
مرة على الأقل في الأسبوع	%32.5	%26.7	%29.8
أقل من مرة في الأسبوع	%17.6	%26.3	%21.6
ولامرة	%23.8	%16.0	%20.2

جدول يبين توزيع الشباب
حسب قراءة الصحف والمجلات

ولذلك فإن القيام بتنمية ثقافة القراءة من خلال المكتوب كحزام أساس في نقل التراث والثقافة، والمهارات، يُعد أمرا بالغ الأهمية، فانطلاق الحضارة الغربية تزامن مع اكتشاف الطباعة في القرن الخامس عشر وانتشار التعليم والمعرفة وعلى رأس ذلك اتساع دائرة الكتاب والصحيفة، وينطبق ذلك مع ازدهار الحضارة الإسلامية التي ازدهرت مع عصر تدوين الإنتاج العلمي والفكري في شتى المجالات، والواضح أن المجتمعات العربية والإسلامية لم تستعد إلا جزءا من ثقافة المكتوب إذ انتقلت من العالم الشفوي إلى عالم الوسائل السمعية البصرية

1. الشروق اليومي، عدد 900، 14 أكتوبر 2003.

من دون أن تمارس قيمها بشكل من يجعلها تتحكم في زمام الإنتاج السمعي البصري"[1].

وقد وضع الاختصاصيون برنامج قراءة لكل فرد يريد أن يكون قارئا جادا و مطلعا على كل الأحداث التي تدور حوله في العالم وذلك من خلال برنامج وضعه 24 مفكرا وناقدا وأديبا، ويتلخص هذا البرنامج الذي يمكن لمجتمعنا الإفادة منه في النقاط الأربع التالية :

1- كتاب واحد جيد أسبوعيا على الأقل.

2- جريدة أو مجلة عادية سيارة (دورية).

3- مجلة للتحليل والتعليقات.

4- مجلة لمراجعة الكتب (على شكل دليل)[2].

ويمكن الاستفادة من هذا الدليل كأداة لتنمية وتطوير مهارة القراءة في مجتمعاتنا حيث تغلب عليه النزعة العملية.

ومن ناحية أخرى فإن الصورة الإعلامية إذا كان لها مزايا أبرزها ربح الوقت واختصار المسافات ومد المتفرج بدقائق الأمور فهي من خلال التلفزيون وإن كانت تسجل الواقع فهي لا تسجله كاملا وإنما تسجل ما يدخل في نطاق زاوية رؤية العدسة، مما يقلل من نسبتي الحياد والموضوعية

---

1. عبد الرحمان عزي: قراءة ابستمولوجية في تكنولوجيا الاتصال...مرجع سابق.

2. أحمد عمر شاهين، دليل القارئ إلى الثقافة الجادة، مجلة العربي، العدد 524، يوليو 2002، ص 190-193.

ويفتح مجالا أوسع للتزييف خاصة في ظل تطور تكنولوجيا الاتصال العالمية.

كما أن خطر الصورة لا يخفى من الناحية الاجتماعية والحضارية العامة، وما يمس خصوصيات المجتمعات بالقياس إلى بعض، ووجه الخطر يتأتى إجمالا من مظاهر الاستهلاك السلبي للصورة.

ذلك أن مستقبلي الظاهرة الجمالية (الصورة) صنفان:

1. صنف يكتفي بظاهر السمة، فيأخذها على ظاهرها دون نقاش أو تأويل، وهو الصنف الذي يُخشى عليه من التأثيرات السلبية للصورة.

2. صنف لا يكتفي بذلك، بل يبحث لما يحصل لديه من انطباعات ما تصدره من أحكام عن دواع وأسباب تكون مسؤولة عن تحديد مصدر التأثير في النفس سواء بالسلب أم الإيجاب، ذلك أن المتلقي ليس من الضرورة أن يتبع نفس الخطة التي رسمها له المنتج (المرسل) بل إنه يختار لنفسه مسلكا خاصا لا ينسجم بالضرورة مع مجموع المؤثرات التي قصدها المنتج[1].

ولذلك فإن مجتمعنا مطلوب منه اكتساب آليات التعامل مع الصورة بصفة عامة من خلال تطويعها لخدمة أهدافه وفقا لخصوصياته انسجاما للصنف الثاني.

وفي الأخير فإن المقارنة بين المشاهدة التلفزيونية والقراءة لا يمكنها أن تستغني عن الوقوف عند فكرة مفادها أنه يوجد اختلاف في نوعية المادة المتاحة في كل وسيلة، فقد نجد من الكتب ذات المحتويات التافهة التي

---

1. مراد بن عياد، قراءة "الصورة المصورة" من خلال المنهاج البلاغي في التراث العربي تقبلا وتأويلا... مرجع سابق.

تقابلها البرامج التلفزيونية الجميلة العميقة، كما نجد البرامج الضحلة التي تقابلها الروائع الأدبية...

قوة التواصل في الخطاب الإشهاري
دراسة في ضوء اللسانيات التداولية

د. بشير إبرير
قسم اللغة العربية وآدابها

1. مقدمة :

يتمثل الهدف من هذه الدراسة في محاولة البحث عن جملة من العناصر التي تجعل من الإشهار خطابا تداوليا بالنظر إلى صوره الثابتة والمتحركة بما تحمله من كفاءة وقوة على التبليغ والتواصل وما يكمن فيها من عناصر جمالية وفنية وطاقة وفاعلية في التأثير على المتلقي وذلك بمحاولة ربط الصلة بينه وبين الدراسة اللسانية والأدبية متخذين من **اللسانيات التداولية** ميدانا للاستثمار؛ فنراها أكثر **المداخل المنهجية** صلاحية – إلى جانب السيمياء – لدراسة الخطاب الإشهاري.

إن ما حفزني على دراسة هذا الموضوع هو أن الخطاب الإشهاري في الجزائر صار خطابا متميزا عن السابق من حيث الكمّ والكيف مقارنة بما

كانت عليه قبل انفتاح الجزائر على اقتصاد السوق، وبخاصة في الفترة الممتدة من 1999 إلى 2004؛ فقد شهد فيها الخطاب الإشهاري قفزة نوعية واضحة. ثم إننا قد تعودنا على دراسة النصوص الأدبية التي ينتجها كبار الأدباء والكتاب وما عداها مما ينتجه المجتمع من خطابات يتم تداولها بين أفراده تُبْعَدُ من الدراسة بحجة أنها غير بليغة. ولهذا فإن لي هدفا بيداغوجيا وهو أن يعرف الطلبة الجامعيون في أقسام اللغة العربية وآدابها أن **مفهوم تحليل الخطاب** لا يعني الأدب وحده وإنما يشمل الخطابات المختلفة المتداولة في المجتمع ومنها : **الإشهار باعتباره حدثا لغويا منجزا هدفه التواصل مع أفراد المؤسسات الاجتماعية، وله منطق داخلي ومراجع تأثير ومفاهيم ومصطلحات خاصة به تبين أصالته وتفرده.**

2. مفهوم المصطلح :

جاء في لسان العرب : "الشُّهرةُ وضوح الأمر وقد شَهَرَهُ يَشْهَرُهُ شَهْرًا وشُهْرَةً فاشتهر، وشَهَرَهُ تَشْهِيرًا فاشتهر... والشهرة الفضيحة... ورجل شَهِيرٌ ومشهور معروفُ المكان مذكورٌ... قال ثعلب: ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا قدمتم علينا شَهَرنا أحسنكم اسما فإذا رأيناكم شهرنا أحسنكم وجها فإذا بلوناكم كان الاختيار. والشهر القمر سمي بذلك لشهرته وظهوره...

وقال الزجاج : سُمي الشهر شهرا لشهرته وبيانه. وقال أبو العباس : إنما سمي شهرا لشهرته وذلك أن الناس يشهرون دخوله وخروجه... وقال ابن الأثير : الشهر الهلال سمي به لشهرته وظهوره...

وفي حديث عائشة : خرج شاهرا سيفه... أي مبرزا له من غمده..."[1].

وجاء في المصباح المنير : "... الشهر من الشُّهرة وهي الانتشار... وشَهَرْتُ زيدا بكذا وشهَّرته مبالغة. وأما أشْهَرتُهُ بالألف بمعنى شَهَرتُهُ فغير منقول وشَهَرتُهُ بين الناس أبرزته، وشَهَرتُ الحديثَ شَهرًا وشُهرةً أفشيته فاشتهر..."[2].

وبهذا ترتبط كلمة "إشهار" بالشهرة التي تعني الوضوح والإظهار والبيان والانتشار. وقد تعني الفضيحة أيضا لأنها تنشر بين الناس وهو ما نلاحظه في وقتنا إذ نجد كلا من كلمة "إشهار" وكلمة "تشهير" فأشْهَرَه يُشْهِره إشهارا؛ بمعنى أظهر محاسنه وبيّن إيجابياته ومنافعه.

وشَهَّرَ به تشهيرا؛ بمعنى أظهر مساوئه وبيَّن سلبياته ومضاره. وهكذا "يرتبط الإشهار لغويا بالتشهير، كما يرتبط بالشهرة، فهو تشهير حيث يهدف إلى تسويد مشهد سياسي أو صورة شخصية سياسية [أو فنية...]، وهو شهرة حيث يهدف إلى إنجاز عكس ذلك..."[3].

أما من حيث الاصطلاح فإنّ الإشهار يعد صناعة إعلامية وثقافية في عصرنا هذا بأتم معنى الكلمة؛ إنه ميدان جديد خصب بدأت تعرفه الدراسات اللسانية والأدبية في وطننا العربي منذ فترة وجيزة جدا كخطاب له

---

1. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، د.ت، ص 431/4، 432، 433، مكتبة المعاجم والغريب والمصطلحات، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، الإصدار 1، 1999.

2. أحمد بن عمر بن علي المقري الفيومي، المصباح المنير، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 326/1، مكتبة المعاجم والغريب والمصطلحات، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، الإصدار 1، 199.

3. مُحَمَّد شكري سلام، ثورة الاتصال والإعلام : من الإيديولوجيا إلى الميديولوجيا، عالم الفكر، العدد1، المجلد 32، 2003، ص 109.

خصوصياته السيميائية والتداولية التي تزوده بالطاقة على التواصل الفعال مع المتلقي بغية تمريره محتوى خطابه وتحقيق منفعته باستعمال كل الوسائط المعرفية المتاحة له ولذلك فهو خطاب ذو سيادة يرتبط بالسلطة والمال ويوظفها من أجل استمالة المتلقي وإقناعه بالخدمة المعلن عنها؛ وبهذا فهو عند رجال المال والأعمال : "البوابة الذهبية لمراكمة المزيد من الرأسمال ومضاعفة الأرباح مع هجرة الهاجس الاجتماعي المرتبط بالعدالة والمساواة"[1].

إنه فن إعلامي يستند على مؤثرات مرئية مثل العناوين في كتابتها ومضامينها وأنواع الطباعة والصورة... يتوخى أن تكون أفكاره واصفة واضحة هادفة ويستعمل وسائل تبليغ متنوعة ومتناسقة يسخرها كلها في سبيل تحقيق الهدف المحدد[2]، وهو تعريف الجمهور أو المتلقي بموضوع ما، سلعة مثلا، في شكل مادي ملموس أو في شكل خدماتي أفضل وذلك بإبراز مزاياها ومحاسنها **ودفع الناس إلى فعل الشراء** بتوظيفه للعوامل النفسية والاجتماعية لديهم بأساليب عديدة ومتنوعة تأخذ في أحيان كثيرة شكل النصيحة والظهور بمظهر الحريص على مصلحة المستهلك؛ ليستفيد أكثر ويدفع أقل[3]. وهذا يعني "أن نجاح المشهر "**le publicitaire**" في مهمته رهين بحسن اختياره للوسائل والآليات التعبيرية التي يرى أنها أكثر فعالية لتمرير رسالته"[4].

---

1. المرجع نفسه، ص 90.

2. انظر: بشير إبرير، بلاغة الصورة وفاعلية التأثير في الخطاب الإشهاري: نظرة سيميائية تداولية، أعمال الملتقى الثاني "السيمياء والنص الأدبي" ص 63. جامعة بسكرة، 2003.

3. انظر: أحمد مرسلي، أشكال الاتصال، حوليات جامعة الجزائر، الجزء الأول، المجلد 1998/11، ص 84-85.

4. عبد العالي بوطيب، آليات الخطاب الإشهاري، مجلة علامات في النقد، المجلد 13، الجزء 49، ص 312، 2003، نادي جدة الأدبي، المملكة العربية السعودية.

ولهذا فإنا نعتقد مع عبد العالي بوطيب "بأن الخطاب الإشهاري دونا عن غيره من الخطابات الأخرى يتميز ببناء خاص تتظافر مختلف مكوناته التعبيرية بقصد تبليغ رسالة وحيدة محددة، ولا يمكن ولا ينبغي أبدا، أن يخطئها القارئ المستهدف le lecteur cible والزبون المحتمل le client virtuel وإلا اعتبر ذلك دليلا على فشله الذريع"[1].

وهكذا فإن الإشهار متنوع الأشكال والأهداف؛ فقد يتم توجيهه إلى فرد أو جماعة أو حزب أو أمة وقد يكون علميا أو ثقافيا أو سياسيا أو اقتصاديا وقد يكون مسموعا أو مكتوبا أو سمعيا بصريا. إنه كما يقال : "فن مركب يضع العالم بين يديك"[2].

إن الخطاب الإشهاري، من هذه الناحية، خطاب إقناعي يتأسس على إطار نظري وجهاز مفاهيمي يستثمر مواقف معينة لدعم وجهة نظر محددة والعمل على الإقناع بها بشتى الوسائل؛ بالكلمة المسموعة في الإذاعات والمحاضرات والندوات والخطب وبالصورة الثابتة والكلمة المكتوبة في الكتب والمجلات والنشرات والملصقات... وبالصورة السمعية البصرية في التلفزة حيث يتم استخدام الصورة واللون والموسيقي وطريقة الأداء والحركة والموضوع، وحيث يكون الخطاب الإشهاري عبارة عن "ميكروفيلم" يتعاون على إنتاجه وإنجازه فريق متخصص في الإخراج والديكور ووضع الأثاث والحلاقة والتجميل والإضاءة والتسجيل وضبط الصوت واختيار اللغة المناسبة للمقام.

---

1. المرجع نفسه، ص 312.

2. عصام نور الدين، الإعلان وتأثيره في اللغة العربية، مجلة الفكر العربي، العدد 92، 1998، ص23.

إن عالم الوصلة الإشهارية كما يقول سعيد بن كراد "هو عالم الهوية: هوية لفظية طباعية (المكتوب)، أو هوية صوتية (المسموع)، أو هوية بصرية (المرئي)، ذلك أن الإرسالية الإشهارية تسعى دائما إلى تأثيث عالم إنساني يتوسطه أو يزينه كيان متميز. ولهذا السبب فإن الوصلة الإشهارية تسعى دائما من خلال طرائقها إلى بناء دلالاتها ومن خلال موضوعاتها وكائناتها وأبعادها التشكيلية إلى تأسيس هوية تستوعب الشيء المدرج للتداول وتنوب عنه. إن الأمر يتعلق بتحديد اسم يتجاوز الشيء المفرد ولكنه يصدق على كل أحجامه"[1] .

3 – المداخل المنهجية لتحليل الخطاب الإشهاري :

توجد عدة مداخل منهجية لتحليل الخطاب الإشهاري، وهي متداخلة بعضها ببعض، نذكر منها :

3. 1. المدخل اللساني:

لا يوجد إشهار من دون لغة منطوقة أو مكتوبة بحسب ما تقتضيه الومضة الإشهارية في ثباتها وسكونها أو في حركتها ونموها وتغيرها. يتم الانطلاق من النظام أو النسق اللساني فيبحث في مستوياته المختلفة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالات الناتجة عن هذه المستويات؛ فلابد أن تُختار الكلمات بعناية وتركّب في نظام ونسق مفيد بما يتناسب مع النظام أو النسق الإيقوني البصري المصاحب للغة.

---

1. سعيد بن كراد، الصورة الإشهارية : المرجعية والجمالية والمدلول الإيديولوجي، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 112 - 113، 2000، ص 101.

إن النسق اللساني هو الذي "يوجه القارئ نحو قراءة محددة ويربط بين مختلف مقاطع النسق الإيقوني، لا سيما عندما يتعلق الأمر بصوره الثابتة"[1]، وبذلك تقوم اللغة بمنح المنتوج هويته البصرية واللفظية وهي أساس وجود وضمان تداوله وتذكره واستهلاكه[2].

3. 2. المدخل النفسي:

ويظهر في كون الخطاب الإشهاري يركز أكثر ما يركز على المتلقي فيعمل على إغوائه واستدراجه بأن يتسلط على الحساسية المتأثرة لديه ويهيمن على أفق انتظاره فيجعله لا يرى شيئا غيره، فهو المناسب وهو الأجمل والأحلى والأبهى وهو الجديد الذي لم يصنع من قبل بل صنع لأجل المتلقي دون غيره من أجل إسعاده؛ فـ "الحلم يشترى والسعادة تتشكل من متع سريعة من بداية الصباح حتى المساء... فلكل مسألة حل معين... والإنسان الذي لفحته الشمس هو النموذج. كما تؤكد ذلك تلميذة حين كتبت: "من حسن الحظ، أن هناك التلفزة التي تسهل علينا الحياة بواسطة الإشهار... "[3].

فيُوجد لَعِبٌ على مشاعر المتلقي ومداعبته لإثارة رغبته وانطلاقها والإقبال على شراء المنتوج وهو الهدف الذي يعمل من أجله الإشهاري بإبراز الخصوصيات المميزة للمنتوج مثلا : سراويل الجينز : عملية – متينة – دائمة؛ وبهذا فإن المتلقي لا يشتري المنتوج فحسب وإنما يشتري أيضا

1. مراني المصطفى، الخطاب الإشهاري بين التقرير والإيحاء، مجلة فكر ونقد، عدد 34، ديسمبر 2000، ص 28.
2. سعيد بن كراد، مذكور سابقا، ص 102.
3. حمد شكري سلام، مذكور سابقا، ص 90.

قيمة المنتوج الذي يعني أسلوبا في الحياة ورؤيا للعالم متفردة متميزة "...إننا لا نشتري أحذية بل نشتري أقداما جميلة، ولا نشتري العطر بل نشتري حالات إغراء، ولا نشتري سيارة بل نشتري وضعا اجتماعيا"[1].

فالهدف دائما هو إيقاظ الخيال ومخاطبة الحلم لدى المتلقي من خلال لمسات سحرية جمالية عليه، ومن هنا فإن هذا النوع من الخطاب يحمل معاني مختلفة حسب نوعية الجمهور وما يميزه من مستوى ثقافي ودوافع نفسية من أجل استغلالها في إثارة رغباته وأهوائه وأحلامه لتحقق من خلال ذلك كله أهداف الإشهاري.

3. 3. المدخل الاجتماعي اللساني:

ينظر هذا الاتجاه إلى الخطاب الإشهاري باعتباره ممارسة لغوية تبرز العلاقات الاجتماعية (العلاقات الاقتصادية – الطبقات الاجتماعية) واللغة التي تميز الخطاب الإشهاري تعد مرآة تعكس ما يجري في المجتمع من أحداث وتفاعلات سلبا أو إيجابا.

يتجاوز الاتجاه الاجتماعي اللساني في تحليله للخطاب الإشهاري الزاوية النصية الخالصة والبنية الشكلية والصياغة اللغوية الصميم؛ وإنما ينظر إليه بكونه "فاعلية فكرية تتوجه توجها ذا معنى وتستهدف غايات محددة في الواقع الاجتماعي"[2].

يركز هذا الاتجاه "على النصوص ذات الأهمية في حياة الناس وذلك بدراسة اللغة في خلق المعنى الاجتماعي... وأن كلا من التفاعلات

---

1. سعيد بن كراد، مذكور سابقا، ص 102.

2. مُحَمَّد حافظ دياب، سيد قطب : الخطاب والإيديولوجيا، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص 15.

الاجتماعية الحافة بعملية إنتاج الخطاب... وتلك التي تحف بعملية قراءته هي بالأساس تفاعلات اجتماعية قبل أن تكون معرفية أو كلامية أو تأويلية"[1]. وهكذا تتحدد خصوصيات الخطاب انطلاقا من عملية التركيب والصياغة إلى محتوياته المبينة لرؤية منبع الخطاب في الواقع الاجتماعي.

3. 4. المدخل السيميائي:

يعد المدخل السيميائي من أهم المداخل التي تصلح لتحليل الخطاب الإشهاري سواء في نسقه اللساني أم في نسقه الإيقوني، وتتوسع فيه دراسة العلامة لتشمل العلامة اللسانية وغير اللسانية، ولذلك تعد السيميائية في منظور بيرس (Peirce) مدخلا منهجيا مهما في دراسة الخطابات البصرية ومنها الإشهار الذي يوفر لها علامات كثيرة ومتنوعة من ناحية الصوت والحركة والأداء واللون والموسيقى والأغاني واللغة المستعملة. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه المداخل مترابطة إلى الدرجة التي يصعب الفصل بينها، فنرى تداخلا واضحا بينها وبين المدخل التداولي، وربما يعود هذا التداخل إلى المنابع والأسس التي أدت إلى تكوين الحقل التداولي.

3. 5. المدخل التداولي:

تجاوزت اللسانيات التداولية المفاهيم اللسانية التقليدية من مثل : الوحدة الصوتية والصرفية والتركيبية والجملة، وهي المفاهيم التي كانت سائدة في الفترة الممتدة بين سوسير وتشومسكي؛ بمعنى أنها تعدت دراسة اللغة كنظام لساني يدرس في ذاته ولذاته إلى دراستها كنظام للتواصل الفعال فامتدت بذلك إلى دراسة

---

1. منير التريكي، آليات الخطاب السياسي، مجلة الحياة الثقافية، تونس، 2002، عدد 132، ص 5-6.

أفعال الكلام (les actes de paroles) وأشكال الإقناع والتأكيد في اللفظ والكلام لتشمل شروط تحقيق الخطاب الإقناعي وتحليله.

تركز الدراسات التداولية على **مفهوم المقام** الذي تحدث فيه الخطابات وعلاقة العلامات اللغوية وغير اللغوية بمستعمليها والمؤولين لها والوضع الذي ينطلقون منه بما يشمل من لغة وثقافة.

وتجدر الإشارة – هنا – إلى أن الاتجاه التداولي يتأسس على المقتضيات التواصلية والسيميائية ويتداخل معها. **إن التداول، هو في الحقيقة التواصل الفعّال** الذي يعبر عن الغرض ويبلغ المقصود بسهولة ويسر؛ أي يصيب المعنى من أقرب مرمى بلغة العلماء العرب القدامى.

تستدعي التداولية الإجابة عن أسئلة هامة مثل : من يتكلم ؟ ومع من يتكلم ؟ وماذا يقول بالضبط ؟ وكيف يتكلم عن مسألة ويقصد مسألة غيرها ؟. تحتاج محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة إلى أن نستحضر مقاصدنا وأفعال لغتنا وسياق تبادلاتنا الرمزية والبعد اللغوي للغة المستعملة وأهدافها مما أدى إلى وجود مفاهيم هامة تميز الحقل التداولي مثل : مفهوم المقام ومفهوم السياق ومفهوم الفعل ومفهوم الإنجاز.

لن نطيل الحديث عن التداولية وإنما نحاول أن نبحث كيف يكون الخطاب الإشهاري تداوليا ؟ وما هي جملة الشروط التي تجعله كذلك ؟.

4. قوة التواصل في الخطاب الإشهاري، أو كيف يكون الخطاب الإشهاري تداوليا ؟ :

يكتسب الخطاب الإشهاري قوته في التواصل وقدرته على أداء وظيفته التأثيرية في المتلقي من خلال كونه خطابا حجاجيا (discours argumentatif)

يوظف أدلة حجاجية برهانية لإقناع المتلقي واستمالته بل وإغرائه بالموضوع المتحدث فيه. وذلك على مستويين اثنين مترابطين هما :

- مستوى النظام اللساني (le système linguistique)
- مستوى النظام الإيقوني (le système iconique)

فأما على مستوى النظام اللساني:

فأهم ما يميز لغة الإشهار أنها تحمل فكرة رئيسية واحدة، تود تبليغها إلى المتلقي في أحسن الظروف والأحوال. إن ما يهم الإشهاري من اللغة هو أن يتخذها وسيلة لتبليغ خطابه ويحقق الهدف منه مهما يكن المستوى اللغوي المستعمل؛ فقد يكون فصيحا أو تتداخل فيه الفصحى بالعامية أو يكون خليطا بين الفصحى والعامية واللغة الأجنبية.

فلو تأملنا النماذج الإشهارية التالية :

1. مكتبة جرير مكتبتي

خذني إليها آه يا أبتي.

فيها كتب أقرأها فتقوى لغتي

أقرأ، أكتب، أتعلم

وأصبح دوما في الأعلى[1].

2. "ابعد عن المشاكل...

تمتع بالحركة والحيوية والنشاط بشكل طبيعي

---

1. إشهار بثته قناة الأردن.

عبّر عن نفسك.. **7 up** طعم حليب

وانتعاش طبيعي .. **7 up** خذها على طبيعتها"[1].

3. "زيت عافية

زيت ذري خال من الكولسترول

ما أحلى الحياة بصحة وعافية"[2].

4. "تمتع بالوقت مع ساعات راما السويسرية"[3].

5. "التكنولوجيا العالمية لكسب ثقتكم دوما ENIE

عش الحدث كأنه أمامك مع AMIVISION 74 سم

الصورة الحقيقية لمناظر حية SYMPHONIE 55 سم

تأخذكم إلى آفاق واسعة مع JOYMAX 37 سم

ENIE رفيكم الدائم"[4].

فما يلاحظ على هذه النماذج من الخطابات الإشهارية أن أصحابها قد اتبعوا في أداء مقاصدهم والتعبير عن أغراضهم وتحقيق أهدافهم طريقة تجنبوا فيها **التطويل في العبارة** بما لا يزيد عن حاجة المخاطب بالنظر إلى المقتضيات اللغوية التي يحتاجها مجاله التداولي وبذلك جنّب مخاطبه أو متلقيه ما يسميه الدكتور طه عبد الرحمن **بالضرر اللغوي للتطويل**[5] وذلك إذا أخلت الزيادة في التعبير بسلامة التبليغ من حيث صيغته وأثره في المخاطب.

---

1. 2. 3. إشهارات تبثها قناة M.B.C.

4. إشهار تبثه التلفزة الجزائرية.

5. انظر: بخصوص هذه المسائل الهامة جدا طه عبد الرحمن في كتابه: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، ط2، ص 282 وما بعدها.

فمن حيث الصيغة : جنبه **آفة الحشو** التي تتمثل في زيادة العبارة عن الحاجة التبليغية وعن الكفاية الإفهامية، وبعبارة أخرى حقق **النفع اللغوي للاختصار** وجنبه في النموذج رقن 1 ورقم 3 ورقم 4 **آفة الركاكة؛** إذ التطويل في العبارة يؤدي إلى العيي في الأسلوب وضيق الفصاحة.

ومن حيث أثره في المخاطب : جنبه **آفة الإتعاب** إذ إن المتلقي يتابع الخطاب بسهولة ويسر ودون تعب أو ملل في فهم المقصود؛ فالمتلقي في النموذج الأول هو الراغب في الذهاب إلى المكتبة بدليل أنه يعبر عن ذلك بلغة شعرية وينادي أباه طالبا منه أن يأخذه إلى المكتبة ويصفها بأنها مكتبته : "مكتبة جرير مكتبتي" فالصلة بينها وبينه كأنها الصلة بين المضاف والمضاف إليه.

وجنبه أيضا **آفة التشكيك** فلم يأخذ المخاطب الشك في فحوى الخطاب، ومن ذلك انه سيصبح دوما في الأعلى بالقراءة والكتابة والتعلم كما تدل عليه الأفعال: أقرأ، أكتب، أتعلم، أصبح، فكلها صيغ تدل على المستقبل ويقينية تحقيق الفعل، فالخطاب الإشهاري لا يهتم بالماضي إلا بالقدر الذي يخدم به المستقبل.

ويبين له مزايا المنتوج: "**7 up** طعم حليب وانتعاش طبيعي"، وأن "زيت عافية خالٍ من الكولسترول" وأن جهاز التلفزيون الذي تصنعه شركة ENIE الجزائرية تكنولوجيا عالمية تكسب ثقتكم دائما وتنقلكم إلى آفاق واسعة رحبة، لأنها شركة تصنع **الماركة** شأنها شأن "ساعات راما السويسرية" ذات الشهرة العالمية.

"ولعل هذا – كما يقول سعيد بن كراد – ما يجعل من "الماركة" أساسا لوجود المنتوج رغم كونها كيانا لاحقا له، إنها ما يشبه "الكلام" و"الكلام" كما شائع في الدراسات اللسانية هو تحيين مفرد وأداء خاص، فأشكال المنتوج الواحد تتعدد وتتنوع في الحجم والشكل ورغم ذلك يظل الانتماء إلى "ماركة" هو أساس التعريف لأنه هو العنصر الموحد والحاضن لكل النسخ باعتبارها كذلك، فهي الخالقة للهوية الاسمية والبصرية على حد سواء"[1].

تستحيل الماركة بهذا، ميثاقا اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا يحيل على قيم مثل الثقة والارتباط والأمانة : "التكنولوجيا العالمية تكسب ثقتكم دوما"، "ENIE رفيقكم الدائم"، "زيت عافية بصحة وعافية"؛ بل إن الخطاب الإشهاري يجعل من نفسه الخادم الساهر على راحة المتلقي الخائف على مصلحته ولذلك كثيرا ما يوظف أفعالا كلامية يحث من خلالها المتلقي ويطلب إنجازها ليدخل عالم السعادة من ذلك ما نراه في النماذج المذكورة سابقا :

1. خذني إليها آه يا أبتي

أقرأ، أكتب، أتعلم، أصبح...

2. أبعد عن المشاكل، تمتع بالحيوية والحركة والنشاط،

عبر عن نفسك، خذها على طبيعتها.

3. تمتع بالوقت...

4. عش الحدث كأنه أمامك...

---

1. سعيد بن كراد، المرجع مذكور سابقا، ص 102.

تبين هذه الأفعال الطلبية التي تحث المتلقي على المتعة والصحة والتعبير عن نفسه والحيوية والنشاط والحركة والبعد عن المشاكل أن **الخطاب الإشهاري خطاب حيوي نشيط سعيد متأنق من أجل إدخال المسرة** على المتلقي والاجتهاد قدر الإمكان في العمل على إيقاظ الإنسان الذي يرقد في أعماقه ليقبل على الموضوع المشهر له؛ فإذا كان حليبا وجبنا وحلويات ولُعبا كان المتلقي – غالبا – طفلا، وإذا كان عطورا فواحة وفساتين فاخرة وأنواعا من الصابون والغاسول كان امرأة، وإذا كان سيارة وحقائب دبلوماسية ومكاتب كان المتلقي من رجال الأعمال وهكذا...

فعلى الإشهاري أن يخلص **فعل الإشهار** اليومي من الملل من خلال إضفاء غطاء من الأحلام على الأشياء وإعطائها أبعادا شاعرية تخرق العادي وتخرج عن المألوف لأنه داخل كل مستهلك يرقد شاعر وعلى الوصلة الإشهارية أن توقظ هذا الشاعر[1].

وتمكن الإشارة إلى أن الأفعال الكلامية تعد عناصر لغوية أساسية مناسبة جدا لتشكيل بنية الخطاب الإشهاري الذي يوظفها حسب مقتضيات المقام أو حال الخطاب (situation de discours)؛ المتمثل في مجموع العوامل والأحوال والظروف المحيطة بالخطاب والمساهمة في إيضاحه والمساعدة على فهمه وتفسيره، **فعلى قدر القرائن الحالية تكون القرائن المقالية وبتعبير آخر لكل مقام مقال، أو لكل مقام إشهار** إن جاز التعبير، فكل خطاب يتم إحداثه عن قصد يجد تبريرا له في شخصيتي المتخاطبين (الإشهاري ومتلقي الإشهار) **للإفهام والفهم، أو حصول الإفادة والانتفاع بالخطاب.**

---

1. انظر: سعيد بن كراد، المرجع نفسه ص 106.

أما على مستوى النظام الإيقوني فتوجد عناصر عديدة تساهم في تداولية الخطاب الإشهاري مثل الصورة والصوت واللون وطريقة الأداء والحركة المشهدية ... وكلها عناصر لها قوة التواصل اللاشفوي الذي يكون في أحايين كثيرة أكثر بلاغة من بلاغة اللغة المعبر بها عن الغرض طبقا لعبارة العالم العربي القديم ابن جني : "رب إشارة أبلغ من عبارة[1].

أو كما يقول ألبرت مهلابيان "إن رسائلنا الصامتة يمكن أن تناقض أو تعزز ما نقوله في الكلمات، وفي كلتا الحالتين تبقى الرسائل الصامتة أكثر إمكانية في عملية التواصل من الكلمات التي تحكيها"[2].

ومن بين العناصر الموظفة في الخطاب الإشهاري :

الإشارة؛ أي حركة الجسد، وهي كما قال الجاحظ تكون : "باليد وبالرأس وبالعين وبالحاجب وبالمنكب وبالثوب وبالسيف إذا تباعد الشخصان"[3]. ولابد أن تنسجم الحركات التي يحدثها الجسد مع موضوع الإشهار والعناصر المكونة له؛ فالحركات كأنها كلمات، إنها لغة صامتة لكنها متحركة ناطقة مغرية فاتنة حالمة لا يمكن إلا أن نقول لها : نعم. فهي تصاحب اللغة الشفوية المنطوقة وأحيانا تستغني عنها فتكون أكثر قدرة وفاعلية على التواصل حسب ما يقتضي المقام.

أشارت بطرف العين خيفة أهلـها　　　إشــارة مــذعور ولــم تتكـلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبـا　　　وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

---

1. ابن جني، الخصائص، تحقيق مُحَّد علي النجار، ص 246/1-247.

2. أوجين رادوبيست، قوة التواصل اللاشفوي، يمكن للغة جسدنا أن تتناقض أو تعزز ما نقوله في الكلمات، ترجمة حسن بحري، الفكر العربي المعاصر، عدد 112-113، 2000، ص 136.

3. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوبي، دار المعرف، تونس، 1990، ص 79/1.

إن التواصل هنا لم يتم باللغة وإنما استدعى المقام أن يكون بالإشارة؛ إشارة العين؛ لأن ذلك أقوى وأبلغ، به تشرق المخيّلة وتنطق الرغبات، وكثيرا ما يلعب الإشهار على هذا الوتر المفجر للأحاسيس والمشاعر.

يذهب أوجين رادوبيست إلى أن "التواصل اللاشفوي أكثر فصاحة ونزاهة ودقة من التواصل الشفوي؛ فهو أكثر تلقائية وأقل خضوعا للسيطرة أو للمواربة، وهو بمثابة نافذة تطل على الأحاسيس الحقيقية للفرد وتكشف مواقفه. يمكن للكلمات أن تخدع، فكثير من الناس لا يعني ما يقول أو يقول ما لا يعني، بينما تبقى للغة الجسد نشاطات عقلية تحت عتبة الوعي تفضح ما نفكر ونشعر به حقيقة"[1].

تعتمد الإشارة الجسمية على المشاهدة العينية المباشرة وتمكن من رؤية حال الخطاب في لحظة حدوثه بمختلف ظروفه وملابساته وما به من تفاصيل وحتى إذا أراد المتحدث إخفاء غرض من الأغراض عن صاحبه دلت عليه إشارة من الإشارات التي يحدثها وهو يتكلم. وبهذا فإن الإشارة تجعل كلا من المتكلم والمخاطب "شاهد حال"[2]، ولا حيلة ولا مغالطة إذا حضر الشاهد شاهد الحس وأعظم به من شاهد[3].

ويكمن دور الإشارة الجسمية في كونها أساسية تمكّن المتكلمين من تبليغ أغراضهم والتفاهم فيما بينهم ومعرفة مقاصدهم الدقيقة جدا وعلاقتهم

1. أوجين رادوبيست، المرجع مذكور سابقا، ص 136.

2. ابن جني، الخصائص، ص 19/1.

3. انظر: عبد الرحمن الحاج صالح، النحو العربي ومنطق أرسطو، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، عدد1، 1964، ص 84.

الحميمة "ولو لا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة"[1].

لقد اتخذ الخطاب الإشهاري من الإشارات والحركات الجسدية وسيلة فعالة للتعبير عن موضوعاته المختلفة والتسلط على الحساسية المتأثرة لدى المتلقي ومسكه من اليد التي توجعه كما نقول بالخطاب الدارج. حتى إنه يعطل عناصر الوعي عنده أو يبطلها ليجعله يتعلق بالمنتوج ويصير لا يرى غيره، فهو المستقبل بين يديه وهو الحياة التي لابد أن يعيشها وهو الذي صنع من أجله، وهو الحلم الذي انتظره كثيرا ليتحقق وهاهو أمامه يتحقق... إنه يخاطب خاصّ خاصه ويستفز مكبوته ويدغدغ دواخله وجوانحه وما يخفيه.

ونجد إلى جانب الإشارة الصوت بنبراته التي تُظهر في الخطاب الإشهاري دلالة الفرح والانبهار والشوق والمحبة... مثل : "اشرب ميراندا .. آه .. اَمْمْ حلو" إن الصوت في الإشهار دافئ ومرتاح، تتزامن نبرته ومقامه وانسيابيته وقوته مع المشاعر التي يعيشها المتلقي أيّا كانت فيستطيع عبر صوته أن ينعكس اهتياجه وابتهاجه وحماسه واهتمامه ليحقق جوا من الألفة والثقة ويخلق حالة من الانتباه المركز عند المتلقي ومدى استعداده لاستقبال الرسالة، وكل هذا يعد مفتاحا للتواصل الفعال[2].

ويتظافر مع الإشارة والصوت عنصر آخر يتمثل في اللون والإنارة وتأويلهما كما يقول عبد العالي بوطيب "...ذو بعد انثروبولوجي محدد،

---

1. الجاحظ، البيان والتبيين، ص 79/1.
2. أوجين رادوبيست، مرجع مذكور سابقا، ص 139.

يحيل في العمق على خلفية سوسيوثقافية محددة رغم ما قد تكتسيه أحيانا من مظهر طبيعي يخفي أبعادها التعبيرية المعروفة ويطمسها، بدليل ما تحدثه في المشاهد من آثار نفسية مختلفة تعيده لنفس إحساس التجربة الأولى فالأسود لون الحزن والأبيض لون الصفاء والأحمر لون العنف، إلى غير ذلك من الإيحاءات العديدة الأخرى المدعمة لقصدية هذه الاختيارات في الصورة الإشهارية"[1].

إن هذه الدلالات في الألوان غير ثابتة؛ فالأسود مثلا لا يدل على الحزن دائما وليس لونا مرغوبا عنه وإنما قد يكون لونا دالا على الجمال والفرح.

والشاعر العربي القديم مسكين الدارمي عندما أنشد أبياته المشهورة :

قل للمليحة في الخمار الأسود ما ذا فعلت بزاهد متعبد

قد كان شمّر للصلاة ثيابه حتى خطرت له بباب المسجد

ردّي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق دين محمد

قد حوّل اللون الأسود الذي كسد ورغبت عنه فتيات المدينة إلى ماركة مرغوب فيها ترتديه كل مليحة بل إن التي لا ترتدي خمارا أسود فهي ليست مليحة[2].

إن كل هذه العناصر بالإضافة إلى الوصلات الغنائية وما يتركه اللحن من تأثير في نفسية المتلقي يتم توظيفها في تكوين الصورة أو الوصلة الإشهارية المتكاملة التي تتقاطع فيها علامات عديدة وتتلاقى فيها فضاءات

1. عبد العالي بوطيب، مرجع مذكور سابقا، ص 320.
2. انظر بشير إبرير، مرجع مذكور سابقا، وانظر عصام نور الدين، مرجع مذكور سابقا.

متنوعة لها جميعا هدف نهائي واحد يتمثل في الوصول إلى فعل الشراء وخلق جملة من المبررات والدوافع التي تؤدي بالمتلقي إلى أن يقبل على هذا المنتوج دون غيره.

وخاتمة الحديث إن الإشهار ميدان جديد خصب متشعب ومتشابك ومتعدد الرؤى والأبعاد التي منها الإيجابي ومنها السلبي، ولا ندعي الإحاطة بالموضوع المطروق وإنما حسبنا أننا ألفتنا النظر إلى مدى أهمية البحث فيه وبخاصة في لغتنا العربية التي كثيرا ما أهملت هذا النوع من الخطابات بحجة أو بأخرى.

آراء في المبــرق
(معجم موسوعي في علوم الإعلام والاتصال)

أ. بلولي فرحات

لقد شهدت الجزائر على غرار البلدان العربية الأخرى تأسيس المجلس الأعلى للغة العربية سنة 1998، ولقد صاحب ذلك حركية معتبرة في مجال البحث وترقية اللغة العربية، ومن جملة ما تم نشره في السنوات الأخيرة – إلى جانب النشاطات الأخرى للمجلس– هناك مجموعة من المعاجم المتخصصة نذكر منها معجم المصطلحات الإدارية، والمعجم الموسوعي في الإعلام والاتصال الذي سنتعرض إليه في هذه الدراسة، وهو الموسوم بـ"المبرق " نسبة إلى صاحبه محمود إبراقن – وبالمناسبة نتمنى له الشفاء العاجل – واستقر قراري على ذلك لعدة اعتبارات، لعل أهمها كون هذا العمل من أهم المعاجم المنجزة في الجزائر، والدليل على ذلك اختياره كأحسن عمل سنة 2001 م وحصوله على جائزة المجلس الأعلى للغة العربية الجزائري في ذات السنة.

نُشر هذا الجهد المصطلحي القيّم سنة 2004م، وذلك تحت إشراف المجلس الأعلى للغة العربية الجزائري، ويقع هذا العمل في 820 صفحة، تضمنت على العديد من المقدمات (منها العربية ومنها الفرنسية) ومتن يتناول الوحدات المصطلحية وشروحها المستفيضة. وسنتناول بالتقديم وإبداء الرأي كل الأجزاء التي ذكرناها، وذلك في النقاط التالية :

1 : مقدمات المعجم وأدواته المنهجية :

1.1 : المقدمات : ينقسم المعجم في خطته العامة إلى جزئين، الأول مرقم بالعربية من "أ " إلى " ش" والثاني مرقم بالفرنسية من01 إلى 811، ولقد استهل المعجم من جانبه العربي بتصدير ثم تقديم، وفي الأخير تناول المؤلف الكلمة، فتعرض لكل المسائل المنهجية التي يتطلبها إنجاز هذا النوع من المعاجم (المتخصصة)، وسنتعرض هنا لكل جزء بشكل موجز.

1.1.1 : التصدير: كَتَبَ هذا التصدير رئيس المجلس الأعلى للغة العربية الدكتور محمد العربي ولد خليفة وتعرض فيه لبعض القضايا المتعلقة بأسباب نشر هيئته لهذا المعجم، فكان ذلك لصعوبة هذا العمل وجدّته واهتمامه بميدان لمّا تطرق إليه الباحثون بالدرس والإنتاج، ولقد تعرض هذا التصدير أيضا إلى أزمة المصطلح العربي بصفة عامة، واعتبرها أزمة استعمال وليس وضع، فالمشكل الأساسي في المصطلحية العربية هو نقص البحث الأساسي، لذلك يجب أخذ هذا الجانب بجدية والعمل من خلاله على وضع المصطلحات بما يتناسب مع اللغة العربية، و لقد أشار المتحدث إلى أن أهم شيء تفتقر إليه المصطلحية العربية هو عملية إشاعة المصطلحات ونشرها، وما نشر هذا المعجم إلا جزء مما تقتضيه عملية إشاعة المصطلح

لكي يتحصل على رخصة المستعمل أو يُرفض- مما يعني وجوب وضع مصطلح آخر يلائم رغبات المستعمل- ويُذكر أنه هناك تخمة مصطلحية، لكن بقيت في الأبراج العاجية للمجامع وكتبهم[1] فعمل المجلس الأعلى للغة العربية هو بالأحرى إخراج المصطلحات من تلك الأبراج وإيصالها إلى المستعمل.

2.1.1 : التقديم: حرر هذا التقديم أحد أعضاء المجلس الأعلى للغة العربية وهو الدكتور زهير إحدادن وتعرض فيه إلى تقديم صاحب المعجم، وهو الدكتور محمود إبراقن، المتحصل على العديد من الشهادات العليا، أهمها شهادة الدكتوراه في علوم الاتصال التي تخرّج بها بجامعة السوربون (باريس03)، ومن الملفت للانتباه في هذه السيرة العلمية للباحث أنه مطلع على الثقافة العربية من خلال دراسته في المعهد الإسلامي في البليدة، وملم أيضا بالثقافة الغربية من خلال دراسته في جامعة السوربون - كما أسلفنا-.

واعتبره لبنة جديدة في الصناعة المعجمية (المصطلحية)[2] الجزائرية، إن لم نقل تأسيسا لها، لما يبدو من إتقان في هذا المعجم-على الرغم من أن العمل المعجمي (المصطلحي) يبقى دائما عملا ناقصا، مهما بلغ من الجودة والإتقان- لذا اعتبرَ هذا العمل قفزة في تجربة الترجمة الجزائرية.

---

1. بلعيد صالح، مقالات لغوية، دط. الجزائر: 2004، دار هومة، ص 280.

2. هنا يجدر بي المقام استعمال مصطلح المصطلحية، وهذا اعتبارا أن البحث الإصطلاحي ينقسم إلى فرعين: الأول يتناول الجانب النظري وهو علم المصطلح، والثاني يتناول الجانب التطبيقي وهو المصطلحية قياسا على ما هو جار من تقييس في اللغة الفرنسية واللغات الأوروبية (terminologie/ terminographie).

3.1.1 : المقدمة: هذا الجزء من تحرير المؤلف نفسه(د. إبراقن)، وهي أهم المقدمات التي تضمنها المعجم لما تضمّنها المؤلف من معلومات متعلقة بالمتن، والتي تنوّرنا كباحثين في كيفية الدراسة، ولقد توفرت على المعلومات الآتية :

– **الصعوبات :** يَعتبر المؤلف أن هذا العمل هو نتيجة مباشرة لنقص المصطلحات في العربية، والذي يعزوه إلى عدم وجود هيئة موحدة.

– **الهدف من المعجم :** صرح الدكتور إبراقن أن هدفه من عمله هذا هو خدمة الترجمة، وسد النقص الملاحظ في المصطلح العلمي الذي يعاني حتى على مستوى الوضع، إضافة إلى رغبته في إثراء المكتبة العربية وإفادة طلابها بمادة مصطلحية جديدة.

– **محتويات القاموس :** ذكر المؤلف أن معجمه يحتوي على مادة مصطلحية تنتمي إلى العلوم التالية :

- مصطلحات العلوم الإنسانية والاجتماعية التي لها علاقة بعلوم الإعلام والاتصال.
- مصطلحات اللسانيات والسميولوجيا التي لها علاقة بعلوم الإعلام والاتصال.
- المصطلحات التقنية المتداولة في مختلف ميادين الإعلام والاتصال.

– **خطوات الإنجاز:** يقول صاحب المعجم أنه بدأ العمل في إنجاز هذا المعجم منذ سنة 1984م عندما كان أستاذا للسميولوجيا في معهد علوم الإعلام والاتصال ، وذلك بعدما لاحظ نقصا بيّنا في الرصيد المفرداتي للعربية في هذا الميدان.

- **تعريف القاموس:** ذكر أنه قاموس مزدوج اللغة (فرنسي، عربي) مرتب حسب ألفبائيا انطلق فيه من المصطلح الفرنسي ليصل إلى المصطلح العربي مع إعطائه شروحا وافية، وذلك حسب الميادين التي يرد فيها المصطلح بصدد التعريف أو الشرح.

- **منهجية وضع القاموس:** يقول صاحب المعجم إنه اعتمد على المنهجية التالية :

1. مقابلة المصطلح الفرنسي بالمصطلح العربي الذي يقابله وربطه بالشرح الذي يلائمه.
2. شرح المفاهيم الرئيسية شرحا وافيا استنادا الى المجال الدلالي الذي يلائمه.
3. احترم الدلالات اللغوية المعجمية للمصطلح العربي .
4. اختيار المفردات الأكثر شيوعا.
5. تعمد استعمال المصطلحات الشبيهة بالجمل مقابل بعض المفاهيم وذلك للوصول إلى المعنى الدقيق للفظة.

الفئة التي وجه اليها المعجم : هم الطلبة والباحثون وكل المهتمين بمجالات الإعلام والاتصال.

والمتفحص لهذه المقدمة ليجد فيها كل ما يريده في سبيل الاطلاع الواسع على أهداف المعجم والأمور الخفية منه، وما يؤاخذ عليه هو عدم ذكره لأهم المراجع التي اعتمد عليها – واعتبارا أن المؤلف وضع قائمة للمصادر والمراجع في آخر المعجم فهذا جهد مثمن، ولكن يبقى أن ذكر المصادر الأساسية في المقدمة يبين بما فيه الكفاية توجه الباحث وهو ما لم

يقم به الباحث- إضافة لذلك فالمؤلف يتحدث عن عدم وجود أية هيئة موحدة للمصطلح ، وهذا يجانب الصواب والدليل على ذلك هو اعتماد المؤلف ذاته على المعاجم الموحدة التي وضعها مكتب تنسيق التعريب بالرباط اعتبارا أن غرض هذه الهيئة هو التوحيد.

4.1.1 : الاستهلال: ورد هذا الجزء من المعجم في الجزء المرقم باللغة الفرنسية، لكني جعلت له حيزا هنا نظرا لكونه لا يعدو أن يكون إلا مقدمة من المقدمات، وهو تقديم ونقد قيم للمعجم من تأليف الدكتور شيريقن فوضيل (عميد كلية الأداب والعلوم الإنسانية بجامعة بجاية) تعرض فيه المحرر إلى مساهمة هذا المعجم في البحث الاصطلاحي العربي، والاشادة بالجهد المعتبر المبذول فيه، مع التأكيد على أن هذا العمل لم يحل بعدُ مشاكل المصطلحية العربية، وهذا – كما يبدو لي- من الوجاهة ما يجعلنا نسانده القول، وعلى العموم لا وجود للعمل المصطلحي الكامل، والنقص من سمات العمل الإنساني عامة والعمل المعجمي خاصة.

2.1 : الأدوات المنهجية : كل الأدوات المنهجية التي تضمنها المعجم جاءت في الجزء الفرنسي أي الجزء المرقم من 01 إلى 811، فبداية ووفقا للتقاليد المصطلحية افتتح المعجم بقائمة للمختصرات وذلك للتسهيل على القارئ استعمال المعجم، ثم عرض القائم على المعجم المتن الذي اختاره للعرض، وعمد إلى تذييل المعجم بقائمة للمراجع والمصادر، لمن أراد الإستزادة والتوسع، ومسرد عربي يُقرب للمتصفح المادة المصطلحية إن هو انطلق من المدخل العربي، وسنتعرض فيما يلى بالتقديم والنقد لكل هذه العناصر.

1.2.1. : شرح المختصرات المعتمدة: اقترح المؤلف في بداية هذا الجزء شرح الترتيب المعتمد وهو القائم على الألفباء الفرنسية –مع الاشارة إلى أن هذه الظاهرة منتشرة في المعاجم الثنائية العربية لأنها في صدد نقل هذه العلوم، وليس وضعها كما هو جار عند الأوروبين، وفي الحقيقة هذا ينبئ بتطور ملحوظ في البحث المعجمي والاصطلاحي العربي، لأن الاتجاه نحو المعجم الذي يستعمل اللغة العربية في ترجمة المدخل، ثم تعريفه بالعربية يعني أن اللغة العربية بدأت تستوعب ذلك العلم[1] على اعتبار أن ظهور المعاجم الأحادية اللغة يعني اختفاء الترجمة واستوعاب العلم[2] – ثم بعد ذلك عمد المؤلف إلى شرح المختصرات التي استعملها في ثنايا المعجم، فبدأ بالعربية منها حيث استخدم مختصرين هما "ج" بمعنى الجمع، و "= " بمعنى يساوي، ونلاحظ أنه قلل من المختصرات، وهذا ما يتماشى مع الصناعة المصطلحية، فيشير (جون دبوا–Jean Dubois) إلى ضرورة شرح كل المؤشرات والإختزالات المعتمدة في المعجم، ووجوب التقليل من استعمالها إلى الحد الأدنى لكي يسهل على مستعمل المعجم تذكرها، وذلك تحقيقا للهدف المنشود وهو تحقيق ميتالغة اتفاقية[3]، ولكن هذا الامر لم يتبعه القائم على المعجم في المختصرات الفرنسية، فكان عددها كبيرا إلى حد لا يمكن معه تذكرها وهذا ما يثقل كاهل المتصفح الذي سيكون مجبرا في كل مرة على الرجوع لشرح هذه المختصرات.

---

1. هنا تجدر بي الإشارة إلى أن الهيئات متأخرة نوعا ما بالمقارنة مع الأفراد، حيث أنه صدرت معجمات تعريفية كثيرة وتستعمل اللغة العربية قبل سنة 2004 بداية بمعجم مُحَمَّد رشاد الحمزاوي في اللسانيات... إلخ.

2. Alain Rey in Jean Dubois : «Introduction a la lexicographie», Larousse, coll. langue et langage, p10.

3. ibid., p10.

2.2.1 : قائمة المراجع: لقد عمد الباحث إلى التعريف بالكتب التي اعتمدها في وضع هذا المعجم ولقد أورد لنا فهرسين، فخصص الأول للمراجع العربية أما الثاني فللمراجع الفرنسية، والنظرة الفاحصة لهذه المراجع والمصادر لسوف يلاحظ أن أغلبها معاجم، بل وأكثر من ذلك فهي معاجم موحدة أي من وضع مكتب تنسيق التعريب[1]، وهذا في الحقيقة ينبىء باستمرارية الجهود من جهة فهذه الهيئة لها من الأعمال ما يجب الأخذ به، وذلك تحقيقا للتوحيد المنشود- رغم أن التوحيد فكرة يشهر بها الجميع ولا يحترمها إلا القليل - ومن جهة أخرى فان هذا النوع من المراجع يساعد على تحقيق الشمولية التى ينشدها أي عمل معجمي، لكن هذا لا يعني البتة أن هذه القائمة خالية من النقائص فالبحث في المعاجم فقط قد لا يوصل إلى كل ما هو موجود في الميدان المعني بالدراسة فيجب الرجوع إلى مصادر أخرى مثل المجلات التى تصدر فيها عادة آخر المختراعات المصطلحية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لاحظت بعض التقصير في ترتيب المراجع، كالخلط بين الكتب والمعاجم وهذه الملاحظة تعني كلا الفهرسين(العربي والفرنسي) وبعض الثغرات في التهميش (مثلا عدم ذكر عدد الصفحات في المراجع 11، 12 وعدم توحيد التهميش مثلا في المرجع 12... ويبدو لي أنه كان من الأجدر وضع هذه القائمة في المقدمة كما هو متعارف عليه- أو الإشارة إليها في المتن في صدد تعريف المصطلحات-.

---

1. هي الهيئة التابعة للمنظمة العربية والثقافة والعلوم والمكلفة أساسا بمراقبة التعريب والنهوض به على المستوى العربي، والكائنة مقرها بالرباط.

3.2.1 : المسرد العربي: ختم الباحث معجمه بمسرد عربي (على شكل جداول) يذكر فيه المصطلح العربي ويقابله بالصفحة التي ورد فيها، وهذا الجزء هام جدا لأنه يساعد القارئ العربي – خاصة- لكن مقابلة المصطلحات بالصفحة فيه نوع من السطحية، فكان من الأجدر وضع رقم لكل مصطلح في المتن(كما هو متعارف عليه عند المنظمة العالمية للتقييسiso) ليكون بعد ذلك بمثابة المقابل في المسرد العربي، وهذه الطريقة أسهل وهي المعمول بها في المعاجم الثنائية، ولقد لاحظت أيضا أن المسرد يتضمن خانات فارغة لا نعلم إن كانت تتضمن مصطلحات معينة أو لا، وذلك في مثل الصفحات 781 -783- 774 ولقد لاحظنا أن بعض المصطلحات لا يقابلها رقم مثل بعض المصطلحات الواردة في الصفحات 801-807- 810....

2 : متن المعجم : دراسة تطبيقية :

1.2 : المداخل :

1.1.2 : حجم المادة الاصطلاحية : يحتوى المعجم على حوالي 3475 وحدة إصطلاحية، وهذا عدد معتبر من المصطلحات يتوافق مع التقاليد المعجمية العربية، فهو حجم مقبول على اعتبار أنه هناك معاجم للمصطلحات اللسانية مثلا تتضمن نفس العدد أو ما يقاربه مثل المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات الذي وضعه مكتب تنسيق التعريب -خاصة الطبعة الأولى- لكن يجب الإشارة إلى أن هذا العدد منخفض حسب العلماء، حيث يُذكر أن أحد المعاجم اليابانية تحتوي على أكثر من مائتي ألف مصطلح[1]، وحتى أنه هناك بعض المعاجم العربية التي أنجزها بعض

---

1. أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، دط. القاهرة: 1995، ص24.

العلماء، تعادل أضعاف هذا العدد فمثلا معجم رمزي منير البعلبكي في اللسانيات يحتوي على ما يناهز 9000 مصطلح.

2.1.2 : ترتيب المداخل: المعجم مرتب حسب الألفباء الفرنسية، ويذكر أن هذه الطريقة سهلة الاستعمال ومعتمدة كثيرا، لكنها لا تظهر الإتساق المفهومي الذي يبنى عملية المعجم، مع الإشارة إلى أنه هناك مسرد عربي في آخر المعجم – كما سلف وأن أشرنا لذلك–. ولكن لاحظنا وجود بعض المداخل باللغة الإنجلزية، وبعض الإحالات إلى هذه اللغة في العديد من المرات في مثل zoom-out, travelling... لذلك أقترح اعتماد اللغة الإنجلزية كلغة المداخل– دون الدخول في تلك المماحكات الكلامية بين أنصار الفرنسية والإنجليزية لأننا كمتخلفين ننشد فقط العلم أينما وجد وبأية لغة كانت.

3.1.2 : الشمولية : تطرق المعجم إلى 17 ميدانا، وهذا مهم جدا حيث وفق في اختيار كل المادة المعجمية التي تسير فلك علوم الاتصال والإعلام.

4.1.2 : طرق وضع المصطلحات : في هذا العنصر حدَدت المدوّنة بـ30 مصطلحا أخذتها كعينة في الحروف "a" "m" "z". وبعد إحصاء صغير لاحظت أن المعجم اعتمد على التركيب (أحصيت 22 حالة) ويجب التنويه على أن هذه التراكيب التي اعتمدها الباحث تراكيب أصيلة[1] أي أن المؤلف يستعمل كلمات عربية أصلية في صوغ وترجمة

1. التركيب هو ما يفوق الكلمتين بحيث يساهم كل عنصر منه في تحديد معنى المركب المصطلحي، ويقسم عادة إلى مركبات دخيلة ومركبات مؤشبة ومركبات أصيلة (بن يوسف حميدي: المصطلحات اللسانية بين الوضع والاستعمال دراسة إحصائية حول مدى توظيف المعجم الموحد من خلال الملحقات الاصطلاحية، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، قسم اللغة العربية و آدابها، ص11).

المصطلحات، فلم أعثر في المدوّنة إلا على تركيب مؤشب واحد هو" الزوم الخلفي" (في الصفحة751) حيث اعتمد فيه على تعريب كلمة (zoom) وإضافتها إلى كلمة عربية هي "خلفي"، و هذا لا يشين بالترجمة المعتمدة ولكن إن كثر فسيصبح عيبا يجب تفاديه، وإلى جانب التركيب اعتمد المؤلف على المصطلح المفرد لكن ذلك لم يكن بالقدر الكافي و لقد استعمل بعض الطرق المتعارف عليها في الصياغة مثل الاشتقاق ثم التعريب، ولكن لم يعتمد على النحت مثلا، ويبدو لي أنه ساير نوعا ما منهجية المجامع في وضع المصطلحات، لكنه باعتماده المفرط على التركيب أظهر عجز اللغة العربية في وضع المصطلحات، لأن الأصل هو الإتيان بالمصطلحات المفردة لكي يسهل الإشتقاق منها والتثنية والجمع... والتركيب إنما يساهم في تضخيم المصطلحات رغم أنه يساهم في توليد المصطلحات.

5.1.2 : مقابلة المصطلح الاجنبي باللغة العربية : لاحظنا من خلال استقراء العينة أن المقابلات العربية كانت مطابقة للمصطلح الأجنبي من حيث الحجم الفزيائي في 14 حالة وهناك تكثيف في 8 حالات و10 حالات فيها تضخيم، وهذه النتائج تثبت أن اعتماد الباحث التركيب لا يشين في المصطلحات التي وضعها لأن الأمر يعود لطبيعة المصطلحات التي ترجمها، وهي مصطلحات مركبة في أغلبها. لذا جاءت المقابلات في معظمها مطابقة من حيث الحجم الفزيائي.

2.2 : التعريف : يعتبر التعريف من أهم العناصر التي يتضمنها المعجم ويساهم بشكل كبير في نقل العلم المراد التعريف به، لذلك قلنا فيما سلف أن ظهور المعاجم الأحادية التي تحتوي على التعاريف تنبئ باستيعاب العلم، أما أول ملاحظة نبديها في هذا المعجم فهي وجود 14

مدخلا (في المدوّنة) لا تعريف لها، وهذه ثغرة من ثغرات المعجم لأن هذا العدد يمثل أكثر من ثلث المصطلحات التي استقرأ ناها.

1.2.2 : الأنواع : فيما يخص أنواع التعاريف التي اعتمدها د.إبراقن، نلاحظ أنه لم يحد على الصناعة المصطلحية، فاستعمل التعريف المنطقي الذي يقول فيه الباحث(برونو دو بيسي− Bruno de Bessé)" إن التعريف المنطقي يتلاءم بدون شك مع آمال المصطلحي، وعالم المصطلح لكنه لا يصلح في كل الميادين"[1]، لذلك نجد أن القائم على المعجم قد مزجه ببعض التعاريف المعجمية مثل التعريف بالمرادف والمغايرة في مثل تعريف المصطلح مفعول عنه (Ablatif) "هو كل ما يأتي من خارج المكان، **يقابل:** مفعول إليه" فاستعمل الباحث هنا التعريف بالضد. إلى جانب هذه التعاريف اعتمد المصطلحي التعريف بالصورة (الصورة بالأبيض والأسود، وحتى الملونة)، واعتمد أيضا الجداول، وهذا النوع من التعريف يدعم فهم القارئ كثيرا، وهو الشيء الذي لا تقوم به المعاجم العربية عادة ولكنه مفيد[2].

– **الاستقاء:** يفيد استقراء المدوّنة أن اغلب التعاريف موسوعية تحيط بالسمات التخصصية وتزيد عنها, وهذا مفيد جدا للقارئ حيث يشفى غليله

– **السمات التعميمية** : لاحظت من خلال الاستقراء أن الباحث متحكم في اختيار السمات التعميمية حيث أنه اختار النوع القريب بإتقان وتفادى الخطأ الشائع في معاجم المصطلحات وهو إعادة اللفظ الأساس في

1. Bruno de Bessé, «la définition terminologique» acte du colloque international la Définition organise par le centre du lexique, paris13, Larousse,1990, p 257.
2. ينظر في ذلك دراسة الدكتور جيلالي حلام ، مجلة المجلس الأعلى للغة العربية، العدد 02.

التعريف كسمة تعميمية، فلم يقع فيه إلا ثلاث 3 مرات، وهذه خطوة كبيرة في وضع التعاريف في المعاجم العربية.

2.2.2 : ذكر الميدان : من خلال الاستقراء لاحظت أن الباحث ذكر الميدان في أغلب مداخل المعجم حيث أحصيت ذلك 24 مرة، وهذا أيضا شيء يثمن، ولقد لاحظت أنه يذكر الميدان مختصرا باللغة الفرنسية، ويوضع بين قوسين ويشرح في المقدمة[1].

خاتمة :

نختم هذا البحث بالتركيز على بعض الملاحظات والمتمثلة في الآتي:

- يؤاخذ المعجم على اعتماده على التركيب كثيرا، مقابل عدم الاهتمام بالتراث والإشتقاق.

- يعتبر هذا العمل حقا لبنة جديدة في المصطلحية الجزائرية والعربية عامة خاصة أن اللغة العربية تعاني نقصا في المصطلحات.

- هذا المعجم يدل على استيعاب اللغة العربية لمجالات جديدة وخروجها من لغة الشعر والقرآن.

- لقد إستن هذا المعجم سنة جديدة في المصطلحية وهي التهميش في المتن، وهذا ما يبين الأمانة العلمية التى تحرى بها صاحب المعجم .

- لاحظنا أيضا استعمال الدكتور محمود إبراقن للتعريف بالصورة (أبيض وأسود، والملونة) والجداول والرسوم البيانية. وهذا يمكن اعتباره خطوة

---

1. وتجد هذه الفكرة جذورها في أحد مقالات د.بلعيد صالح، والمنشورة بمجلة المجلس الأعلى للغة العربية بعنوان اللغة العربية والتعريب العلمي، آراء وحلول، العدد 01.

جبارة في الصناعة المعجمية العربية التي لا تستخدم هذا النمط من التعريف وإن استخدمته فبأسلوب منتقد.

- اهتمام المعجم بالميدان، وهذا هام جدا في المصطلحية.

دراسة وصفية تحليلية لمؤلفات الباحث محمد العربي ولد خليفة

د. صالح بلعيد

المقدمة: لقد استقيت خطاب ومقولات هذه الدراسة من محورين أساسيين، هما : مؤلّفات الباحث المنشورة، وعددها عشر[1] بالإضافة إلى

---

1. ترسيمة تفصيلية للمدوّنة المعتمدة.

	عنوان الكتاب	الاختصاص	سنة الصدور
1	الثورة الجزائرية : معطيات وتحدّيات.	التاريخ	1978
2	قضايا فكرية في ليلة عربية.	فلسفة	1984
3	المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية.	تربية	1986
4	التنمية والديمقراطية في الجزائر والمنطقة العربية.	اجتماع	1989
5	النظام العالمي ماذا تغيّر فيه؟ وأين نحن من تحوّلاته؟	سياسة	1997
6	المحنة الكبرى.	تاريخ	1999
7	الجزائر المفكرة والتاريخية: أبعاد وملامح.	تاريخ	2000
8	الجزائر والعالم: ملامح قرن وأصداء ألفية.	اجتماع	2002
9	المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية (ترجمة).	سياسة	2002
10	المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية	ثقافة	2003

أطروحة دكتوراه لم تنشر، ومؤلفات تحت الطبع، ومن السيرة الذاتية، والمقصود من ذلك؛ تتبّع المؤلّفات وصفاً وتحليلاً واعتماد السيرة العلمية، لتتزاوج هذه الأمور؛ بغية الخروج بدراسة تحليلية أصيلة، ولتكتمل على الوجه المطلوب. ورأيت –قبل الولوج في الموضوع– التعرّض إلى بعض الجوانب الاجتماعية التي لمستها خلال علاقة العمل التي جرت بيني وبين المؤلّف بحكم رئاسته المجلس الأعلى للغة العربية الذي كنت عضواً فيه.

إنّ احتكاكي البسيط بالسيد الأستاذ الدكتور محمد العربي ولد خليفة، أو السيد الرئيس كما تعوّدنا تسميته، كانت من باب تأدية الواجب لا غير، فلقد لمست حرصَه ومتابعتَه الصارمة والدقيقة لكلّ الملفات، والجلسات، والمطبوعات، والمنشورات، وتنصيب اللجان ومتابعة أعمالها وتحرّي نتائجها وكأنّي به مسؤول عسكري يصدر الأوامر ويتابع تنفيذها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، تراه متواضعاً متسامحاً إلى أقصى الحدود، فتغلّبت خصلتا التسامح والتواضع عليه. ولا نقف عند هذا الأمر بل أراه سالماً مسالماً يدافع عن فكرته ولا يحاول فرضها، يستمع للرأي المضاد ويحترمه، يقبل المشورة ويوسّعها، وهمّه التوافق والاعتدال في الرأي ومحاولة الجمع لا التفريق. فكان الأبَ والأخَ المثاليَ لكلّ أعضاء المجلس؛ يجمعهم في لقاءات علمية وودّية، وفي أُلفة ودُعابة متواضعة، واحترام من نوع عالٍ. ولا أبالغ إذا قلت: إنّه سخي مقدام، يحترم العاملين ويبارك مبادراتهم، تأخذه العزّة والأنفة وهو يتكلّم عن **الوطن والدين واللغة العربية**، فتراه بأسلوب علمي مستشهدًا مقنعًا ومحاجًا بارعًا، فأنت أمام الإخلاص والسجيّة والفطرة وفي ذات الوقت تجدك أمام من ينطبق عليه قوله تعالى ﴿... فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ

يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب : الآية 23) باعتباره مجاهداً مثقّفاً مخلصاً لهذا الوطن، قدّم جسده قرباناً في سنوات الجمر، ويرفع الريشة في سنوات الكرامة يدافع عن هذا الوطن وخاصة في المحنة الكبرى أين غَزُر إنتاجه. ففي كلّ المواقع التي وجد بها، يسيل قلمه مدافعاً مثل الأمس بفكر عالم نزيه، وبأسلوب المثقّف المسؤول، فلا يتسامح في قطوف السابقين، وإنّها إرث نعضّ عليها بالنواجذ، ويطرح للساحة الثقافية كمّاً من المنتوج الفكري يشرح الوضع ويقدّم الحلول، وهذا ما أهّله لينال وسام المقاوم من الدرجة الأولى، وتكرّمه وزارة المجاهدين بشهادة تقدير عن مجمل أعماله الفكرية ونشاطاته في مختلف المواقع والمسؤوليات، وهذا في مارس 2003م.

وإذا كان عليّ من شهادة حول نشاطه العلمي من خلال عضويتي في المجلس الأعلى للغة العربية أقول: إنّه منذ تسلّمه رئاسة المجلس شهدنا ديناميكية وحركية علمية متميّزة، أوصلت المجلس إلى إصدار أكثر من ثلاثين عنواناً، في مختلف الاختصاصات، دون إغفال الورشات والمنتديات واللقاءات التي تعقد في طاولة حوار الأفكار، وعلى مائدة فرسان البيان، وإلى تنظيم العديد من الملتقيات الوطنية والدولية والتي نوقشت فيها سلسلة من المحاور اللغوية والعلمية ذات العلاقة بقضايا اللغة العربية. والحقيقة : إنّ المجلس خلية نحل عاملة تجود بعسل مصفّى، فكان نشاطه ولا يزال زاخراً بالحركة، كما لمست في كلّ ذلك النشاط حرصه على الجانب العلمي في كلّ المواقع العلمية والثقافية، فأراه محاضراً شارحاً معلّلاً مستفسراً مذاكراً مناقشاً منتقداً متنقلاً إلى أكثر الملتقيات والمنتديات الوطنية والأجنبية وهذه سمة قديمة، حيث كان يكثّف مجهوداته الثقافية محاضراً بالأمانة الدائمة

لحزب جبهة التحرير الوطني، ويحاضر في دورات هيئات الأركان لقيادة الجيش الوطني الشعبي... كما أجده يتعدّد في كتاباته، فمن حديثه الكبير والمستفيض عن فظائع فرنسا الكولونيالية التي أضحت خصمه، إلى توجيه نداء لشبابنا بعدم الانبهار بالاستعمار الذي لم يأتِ إلا بالخراب، فيجب أن تُزال من عقولهم تلك الأفكار الممجّدة لفرنسا الكولونيالية بأنّها فرنسا الحضارة، ومن ذلك أراه يشهّر قلمه لإزالة الأفكار السلبية التي علقت ببعضهم، ويتوجّه في ذات الوقت إلى السلطة الأوربية التي تناست فعل الكولون في الجزائر وما تزال تعتبر الجزائر الفردوس المفقود ويذكّرها بأنّ الاعتراف بجرائم المستعمر أكثر من ضرورة وهي من خصال الشعوب المتحضرّة، فلمَ تصرّ فرنسا المستعمر على نكران أفعالها الإجرامية. كما كان في كلّ كتبه يؤكّد ضرورة إفهام الخصم التاريخي بأنّ الجزائر ليست جزءاً من فرنسا، ولا يمكنها أن تكون ولن تكون، وأنّ الجزائريين خلقوا للعزّة لا للذلّة، للسيادة لا للاستكانة، للنباهة لا للخمول، وفي كلّ هذا نراه متحدّثاً عن مكاسب النّصر والحرية، ويتعرّض في كتب أخرى للحديث عن التحرير الوطني الذي ينظر إليه على أنّه عملية الانعتاق من التحكّم الأجنبي، وفي ذات الوقت تفجير قوى العمل، لأنّ الوطن من شأنه تحقيق ازدياد الثروة وتحقيق الرفاهية، وإلا ما جدوى الاستقلال، إلى الحديث عن المجاهدين وذوي الحقوق كالمعطوبين، وتأخذه كتاباته مرات إلى الكتابة عن التنمية والديمقراطية في الجزائر وفي الوطن العربي، ويعرج على إبراز المحن التي عرفتها الأمة العربية، ويقف كثيراً عند المحنة الوطنية بتشخيص أوضاعها، وتقديم المسكنات التي تحدّ من هذا الطاعون غير المبرمج، ثمّ ينتقد نظام التربية والتكوين والبحث العلمي بشكل قاطع، ولم يمنعه هذا من تقديم

العلاج الشافي لما آل إليه الوضع التربوي المزري، حيث يشرح المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية، وينظر إلى الإصلاح التربوي على أنّه الغاية الكبرى للتربية الأولى، ويجب أن يُنشد من أجل التحديث والتغيير؛ لأنّ التحديث يعمل على تلقين الثقافة الأصيلة وربطها بالثقافة المعاصرة، وإنّ كلّ الأمم التي أنجزت وحدتها واستقلالها وحقّقت استقراراً ثقافياً واجتماعياً عميقاً، اهتمت بالتربية وإصلاح النظام المدرسي. وقد تأكّد له هذا من خلال موقع التجربة التي حصلها عندما كان وزيراً للتعليم الثانوي والتقني خلال 1982-1984م من أنّ المدرسة باب التربية والتمدين، وتمثّل الإطار المرجعي والحضاري لقبول الآخر، والاستماع إلى الرأي المضاد، وعن طريق تحديثها تزول الطابوهات، وتفكّ القضايا الشائكة مثل: اللسان والهوية... وفي كلّ هذا نجد الكتابة في هذه القضايا تمثّل عنده الإطار الذي يفجّر فيه طاقته الجوهرية ذات الكمون العالي، وهي أكبر من أن تحدّ. غير أنّني ما لاحظت نقداً كبيراً للنظام الاجتماعي والاقتصادي إلا لماماً، وليس في ما كتبه ما ينمّ عن نقد اجتماعي صارخ أو مهدّد، باستثناء قضايا التربية التي شخّص فيها الواقع ونقدها نقداً ملموساً، ثمّ قدّم الحلول التي يراها تعمل على إخراجها من الأزمة..

ومن وراء هذا أجدني أقرأ مؤلّفاته هذه، فيتمثّل لي في مجموعة من المجدّدين المصلحين الذين قرأت عنهم ذات يوم، وبقيت أفكارهم الإصلاحية والتحديثية مختمرة في ذاكرتي، فأرى فيه : خير الدين التونسي، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رفاعة الطهطاوي، علال الفاسي، عبد الحميد بن باديس، طه حسين، مولود قاسم. هؤلاء دعاة يقظون ناشدوا التغيير، ورفضوا

الاستكانة، وروّجوا لأفكار الحداثة، وندّدوا بالتعسّف والاستبداد، وأبرزوا فظائع الاستعمار، ودعوا إلى رابطة الولاء للوطن، وإلى أن تكون الحكومات العربية دستورية، والحقوق محترمة، والمرأة حرّة، والتربية الوطنية شاملة والصناعة الوطنية دعامة لمستوى من العيش الرفيع، وإقامة المؤسّسات العلمية والدستورية، والسعي نحو الأخذ والعطاء مع الغير...

إنّ محمد العربي ولد خليفة من خلال مؤلّفاته، كاتب وباحث متّزن، ومسؤول ملتزم، وضع الحقيقة المطلقة لطائفة من الأفكار التي قام عليها الفكر الاجتماعي، وهمّه توجيه عقل الإنسان، وفي ذات الوقت ترك الحرية لهذا العقل في الحكم على العالم الاجتماعي، وإخضاع الطبيعة للتطبيقات العلمية عن طريق سنّ الشرائع التي تستهدف السعادة البشرية، ويكون ذلك بتحديد وجهة التغيّر الاجتماعي العام مثل احترام القانون، وتوظيف الدين لمهّمته في إملاء فراغ القلب، وإرضاء عواطف البشر وإلهامها إلى الأعمال النبيلة، وغير ذلك من تلك الصوَر الاجتماعية المطلوبة في مثل الوضع الراهن الوطني والعربي والدولي؛ الذي يحتاج إلى تدبّر كبير يعتمد فيه على الشرائع العاملة على التغيير نحو الأفضل، ونشدان الحقيقة التي تستقى من أقلام الباحثين النزيهين، ومن المخلصين في أيّ أرض وجدوا.

وقبل استنطاق أفكاره من خلال مؤلّفاته وسيرته الذاتية، رأيت ضرورة تصنيف كتبه العشرة كما ورد في الترسيمة، والإشارة إلى توزيع المدوّنة، كما يلي: ثلاثة مؤلّفات (3) في التاريخ، ومؤلّفان (2) في علم الاجتماع، ومؤلّفان (2) في السياسة، ومؤلّف واحد (1) في الفلسفة، ومؤلّف واحد (1) في التربية، ومؤلّف واحد (1) في الثقافة. ويكون المجموع = 10 مؤلفات. وأقرّ

سلفاً بأنّه من الصعوبة الفصل بين هذه المؤلّفات، باعتبارها علوماً اجتماعية؛ تتداخل فيما بينها، وخاصة تداخل التاريخ بها وهذا ما يحيلنا إلى **المرجعية الثورية** التي يحتكم فيها المؤلّف باعتباره مجاهداً فيظهر حبّه للتاريخ. وميزته أنّه لا يعيش عليه، ولا يرفعه كقميص عثمان، فهو يمجّده ويعزّز به الوحدة الوطنية، ولا يستنكف من الشرعية الثورية، ويراها ورقة ناصعة كتبت بدم الشهداء والمجاهدين، فقد تأخّرنا في نقلها وتسليمها للأجيال ناصعة دون تشويه، والعبرة فيها بالنتيجة، ولكن لا يعني محوَها؛ إنّ الثورة والشرعية الثورية ورقة ناصعة سنطويها ونحافظ عليها، ولا نمزّقها، فأمة بلا تاريخ أمة لا مستقبل لها.

وبعد هذه المقدّمة الطويلة، أرغب التفصيل بالإشارة إلى الجوانب التي استقريتها من هذه المدوّنة والتي يمكن أن تكتب في كلّ واحد من الكتب العديد من المقالات، وما أقوله الآن هو العرض الأولي، الذي أضعه في اختصاص **علم الاجتماع العام** وما تشترك فيه العلوم الأخرى، وما ينبثق عن تكويناته من مسائل تاريخية وسياسية وفلسفية وتربوية وثقافية، لأنّني لمّا درست متونها تبيّن لي أنّ المؤلّف لم يخرج من اختصاصه، فهو كما يُعرف باحث في **علم الاجتماع**، ويلمس هذا التوجّه في المنحى المعرفي التي تحويه المؤلّفات، والمنهجية الاجتماعية التي يعتمدها في معالجته القضايا الثقافية، أو التاريخية، أو السياسية، أو الفلسفية، وفي النظريات الاجتماعية التي اعتمدتها وكأنّك تُقرأ لنظّارها أمثال: دوركهايم، وتالكوت بارسونز، وكروبر... وهم يتحدّثون في قوانين الجدل بتأكيد أهمية البنية التحتية والتطوّرات التي تتمّ ضمنها في تحديد

الوجهة الأساسية للتغيّرات التي تتمّ ضمن المنظومة الاجتماعية، ولم تفارقه تلك الأفكار التي تدرس المجتمع ضمن بيئته، أو تلك المؤثّرات التي لها الدور في التوجيه والتعيين؛ لأنّ هذا العلم كما يقول المختصون "يهتمّ بدراسة المجتمع وما يسود فيه من ظواهر اجتماعية مختلفة دراسة تعتمد على أسس البحث العلمي؛ بغية التوصّل إلى قواعد وقوانين عامة تفصح عن الارتباطات المختلفة القائمة بينها[1]". ونعلم أنّ علم الاجتماع في معناه العام موضوعه المجتمع الإنساني، وما تطرحه المجتمعات الإنسانية من ظواهر ومسائل اجتماعية، يهتمّ بدراسة أوضاعها الاجتماعية، ويسعى إلى معرفة الحياة الاجتماعية عن طريق الحصول على بيانات صادقة من الواقع الاجتماعي. وهذا يعطينا الدليل بأنّ المؤلّف من المتخصّصين الدقيقين؛ حيث نجده في كثير من كتبه يُخضع الظواهر الاجتماعية للبحث العلمي الدقيق، ويعالج الأفعال الاجتماعية والأشكال التي تتّخذ العلاقات المتبادلة في الحياة الاجتماعية؛ بقصد البحث عن النظم التي تُوضّح معالم الحياة والوقائع الاجتماعية، للحصول على تفسير المجتمع، ومعرفة التشابك العام عن طريق هذا العلم الذي قال فيه ابن خلدون (واعلم أنّ الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة) كما أنّ المؤلّف في كلّ أبحاثه ما كان يخبط خبط عشواء، بل يعتمد النظريات الاجتماعية والمقولات النظرية العلمية التي تحدّد المرتكزات الرئيسة، والأبعاد الحقيقية للمسائل الاجتماعية في سبيل استكشاف الواقع الاجتماعي.

---

1. هيئة الموسوعة السورية، الموسوعة العربية، ط 1. دمشق : 1998، المجلد آ، ص 379.

ونعلم كذلك بأنّ علم الاجتماع لا يدرس الإنسان على أنّه فرد، بل فرد ضمن مجموعة بشرية ينتمي إليها، ومن ذلك تجد محتويات المؤلّفات التي عالجناها **تكمل بعضها، وتأخذ من بعضها؛ حيث نجد التداخل قائماً بين كثير منها، كما نجد الوحدة العضوية ظاهرة كأنّها وحدة تجمع المتعدّدات المتمايزة؛** باعتبارها علوماً إنسانية أو اجتماعية، فتتقارب في أفكارها ونظرياتها، وخاصة بالنسبة لدارس أم العلوم (الفلسفة) فتجده يخوض في شتّى العلوم. وباحثنا من هذا النوّع؛ له إلمام متميّز بالفلسفة وعلم الاجتماع، فقد جمع بين الحُسنيين، فنلمس فيه **التخصيص والموسوعية**، وهذا ما لاحظته في لقاء علمي وهو يحاضر في مجمع اللغة العربية بدمشق في أكتوبر 2004، حيث دبّج خطاباً لسانياً عن توحيد المصطلحات العلمية، خطاب متميّز أبهر به الحضور، كأنّك أمام متخصّص دقيق، وصارحته يومذاك بأنّ هذا الكلام لا يلمس إلا عند خاصة الخاصة، وأجاب بكلّ تواضع هو اجتهاد أرجو أن أوّفق فيه. ويبدو لي بأنّ هذا الإتقان والمعالجة الدقيقة كان سببه الاحتراز والتحرّج العلمي الذي وضعه في مؤلّفاته وكتاباته الصحفية، وهذا التحرجّ خصلة جيّدة لا تتوفّر إلا في العلماء، ويمكن تسميتها **بالعلمية:** وأقصد بها الدقّة المطلوبة في الباحث الأكاديمي، ومن خصوصياتها التقصّي، والتّحري، والإتيان بالدليل، والتثبّت والإحصاء، ثمّ المحاجة والبرهان، والدقّة، وتشفيع الرأي بالدليل، ثمّ التواضع؛ تلك هي علامات الباحث العلمي الجاد وهي متوفّرة في عالمنا الاجتماعي. وهذا الجانب أهّله لأن يحرز على الدكتوراه بدرجة امتياز من جامعة الجزائر سنة 1971م، ويترقّى أعلى درجات التأهيل الجامعي، كما أهّلته لأن يكون عضواً في اتّحاد الكتّاب الجزائريين في ستينيات العصر الماضي، وينال عضوية

التأسيس للمجمع الجزائري للغة العربية سنة 1998، وأمينه العام، ثمّ يصبح رئيسه بالنيابة، وينتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة 2001م، وتسند إليه رئاسة المجلس الأعلى للغة العربية في سنة 2001م. وإنّ هذه التعيينات العلمية لا تعطى لأيّ شخص، بل هي من **وسام الاستحقاق** الذي لا ينالها إلا من هو أهل له، فمحمد العربي من أولئك الرجال الذين عهدناهم علماء باحثين يحتكمون إلى الدليل العلمي الملموس، وكأنّي به من علماء الطبيعيات، وهذا ليس بعيداً عنه؛ حيث إنّ البكالوريا التي نالها سنة 1957م كانت شعبة العلوم.

وأجدّد القول في مسألة **العلمية** التي كان مبرّرها الدقّة والتثبّت في جانب، وفي جانب آخر كان يقول رأيه بكلّ تواضع، فكأنّي به الشافعي الذي يقول : قولي صحيح يحتمل الخطأ، وقولك خطأ يحتمل الصواب، وهذه صفة العلماء المتواضعين، صفة تركِك الشعرةَ غير مقطوعة بين مخاطبك، فهو حين يجادل لا يرغم على المتابعة، ولكنّ أفكاره ترغمك على الإتباع، فتواضعه ظاهر في كثير من مقدّمات كتبه "قد يتّفق القارئ مع بعض ما ورد من آراء وأفكار، وقد يختلف، وفي كلتا الحالتين، فإنّ أقصى ما نرجوه هو استثارة التفكير، والمساهمة مع الغير في التقاط صوَر من زوايا مختلفة، دون أن تنطبق تلك الصوَر في معظمها على وضع معيّن أو حيّز جغرافي محدّد؛ فهي أقرب لأن تكون استخلاصاً لتقاطعات الواقع تمزج التجريد بالتشخيص والتعميم بالتخصيص، فإذا وفقت هذه اللقطات في إثارة الرأي والرأي المضاد، فقد بلغت غايتها وحقّقت ما يُرتجى منها[1]". وفي مقام

1. قضايا فكرية في ليلة عربية، المقدمة. الجزائر: 1984، المؤسّسة الوطنية للكتاب.

آخر يقول: نرجو أن يتّسع صدر القارئ الكريم لما يجده في بعض فقرات الكتاب من أسلوب يقترب من المحاجّة والمجادلة، ولكن عذرنا هو أنّ الإنسان ليس عقلاً فحسب...[1]. ألا ترى سمة التواضع واستسماح القارئ سلفاً بأنّ الأمر ليس من باب الحقيقة المطلقة، بل من باب المحاجة التي يعتمدها البشر، وبها قد يصيبون ويقنعون، وقد يحدث العكس، فإن وُجد هناك رأي آخر أكثر قبولاً، فليأتِ به صاحبه...

وبعد هذا، نقدّم خلاصة قراءة في مؤلّفاته حسب التصنيف الذي وضعناه سلفاً، وسيكون الحديث في هذا مستنداً **للاهتمامات الملموسة** من خلال التوجّه العام للباحث **(علم الاجتماع العام)** ثمّ يأتي التحليل لها باعتماد آليات الدعم العلمي. وسوف أعرض اهتمامات الباحث حسب الاطّراد الذي حوته متون المؤلّفات :

أولاً : الاهتمام بالتاريخ : حسب التوجّه العام للمؤلّفات نجد في هذا الاهتمام ثلاثة كتب أصيلة وهي:

1. الثورة الجزائرية، معطيات وتحدّيات : عن المؤسّسة الوطنية للكتاب، في سنة 1978، صدر هذا الكتاب ذو 270 صفحة، يشرح فيه بعض المفاهيم الوطنية، فيتحدّث عن تلك العلاقة التي لا تنفصل بين الأرض والتراث والمصير المشترك، ويربط ذلك بما اختزنته الذاكرة الجماعية من معاناة، وما اصطفته من مُثل ومبادئ صقلتها التجارب عبر العصور، ويركّز على ثلاث نقاط أساسية؛ وهي من معطيات الثورة الجزائرية التي

1. المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية. الجزائر: 2003، دار ثالة للنشر، ص 17.

أفرزت ما لم يكن في الحسبان، وتلك المعطيات أدّت إلى بروز تحدّيات من نوع مماثل، وهي:

1/1. إنّ ظواهر الحضارة والمجتمع ذات أبعاد سياسية، فهي قبل ذلك ذات دلالات ثقافية واجتماعية.

2/1. إنّ دراسة ظواهر المجتمع والتاريخ لا يقتصر فيها على التناول المخبري؛ لأنّ الأدوات المنهجية لا تكتسب أهميتها إلا في علاقتها بموضوع البحث وأهدافه.

3/1. إنّ التخلّف إشكالية كيفية في البنيات الفوقية، وتنعكس على المحيط الاجتماعي والثقافي، ولذلك فإنّ الثروة الحقيقية لأيّة أمة هي ثروة الخبرة التي تزرع بذورها الأولى في منظومة التربية والتكوين والبحث.

وبهذا نراه يرتكز على مجموعة من معطيات وتحدّيات المجتمع الجزائري، وخاصة في مجال التنمية برصد كلّ التقاطعات بين أنماط هذا المجتمع عبر لقطات حقيقية مرتبطة بالتحوّل الذي يشهده المجتمع بعد خروجه من معاناة الكولون، فيضع بين أيدي الباحثين صورًا تساعدهم على البحث العلمي في قضايا تحديث التنمية الاجتماعية، وتوضيح الأساس الاجتماعي لعملية التنمية الاقتصادية والتربوية والتصدّي للعقبات الاجتماعية التي تحول دون عملية التنمية، ومواجهة المشكلات الاجتماعية التي تنشأ عن عدم التوازن بين العلاقات الاجتماعية والتغيّر في البنية التحتية والفوقية.

2. **المحنة الكبرى:** هي مدخل لدراسة توصيفية عن معاناة الشعب الجزائري ومقاومته البطولية من خلال نصوص مختارة، باعتماد كرونولوجيا جزئية مستندة لوثائق أساسية. ويتعلّق موضوع هذا الكتاب بتوصيف الآتي:

1/2. الحديث عن الإبادة العنصرية Génocide ونظرياتها التبريرية المتمثّلة في الإيديولوجية الكولونيالية.

2/2. جرائم القتل شملت كلّ التراب الجزائري.

3/2. توصيف الظواهر كما حدثت من خلال الحقائق الدقيقة لفترة التسلّط والإبادة العنصرية.

4/2. معاناة الشعب من خلال تلك المظاهر، وبقيت مسجّلة في الذاكرة الجماعية التي تعتبر تلك الفترة **ورقة مطوية لكنّها غير منسية.**

فعلى مدار 419 صفحة نراه يستعمل **طريقة المسح الاجتماعي** التي تعني بجمع الحقائق عن موضوع معيّن، وتسجيل الملاحظات حوله، بغية التعرّف على الظاهرة، والوصول إلى الحقيقة الكامنة وراءها. يقف الباحث واصفاً المظاهر التي مرّت على الشعب الجزائري من خلال التجهيل والتوحيش والتمدين على الطريقة الكولونيالية لشعب أعزل وجاهل، بسبب ما أعدّت فرنسا من أرمادة كبيرة من الجيوش والمهندسين والعلماء بغية تدجين هذا الشعب، أو تحويله سُخرة يقاوم أعداء فرنسا، ورميه في السجون وقتل كلّ من يشتمّ فيه روح الوطنية... وإنّ الكتاب يقدّم وثائق حيّة نظراً لما يحمله من نصوص أصلية عن التخطيط العنصري، كما يحمل شهادات عن معاناة هذا الشعب الذي أصبح فيما بعد حقل تجارب تُمارس عليه كلّ أنواع المذلّة. كما أورد فيه نماذج من هستيريا الإيديولوجية الكولونيالية التي

تحرض على الجريمة ضد الإنسانية، أو تبرّرها باسم التفوّق العرقي أو التعصّب الديني، بإمضاء كبار المفكّرين وعدد من القادة السياسيين والعسكريين في المستوطنة وفي المتروبول. فنراه يمقت **الكولون** ويستعمل هذا المصطلح مراراً بتأكيد المجازر التي قام بها في البلاد التي دخلها باسم التمدين، ويقدّم للقارئ الوصف الموضوعي المنظّم بغرض تحويل الظواهر الاجتماعية إلى معطيات علمية، فيعتمد المنهج العلمي المعتمد على الاستجابة لمتطلّبات القياس، بمراعاة شروط التكميم، ويستعملها في التحليل الوثائقي كلّما تطلّب ذلك. فأنت أمام توثيق دقيق؛ تقدّم فيه المعلومات، وعليك الخروج بنتيجة من وراء ذلك.

3. الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد ومعالم: على مدار 318 صفحة، يستعرض الانشغالات الثقافية والمجتمعية والسياسية المتعلّقة بالجزائر ومنطقتها الجيوسياسية، بأسلوب المناظرة القائم على التوليد الجدلي؛ بعرض الفكرة ثمّ الاعتراض عليها، وصياغة خلاصة تركيبية تخضع لنفس العملية، متّخذاً منهج أفلاطون الفلسفي. وبعد مناقشة مستفيضة لثلاثة أفكار أساسية، وهي:

1/3. إنّ الجزائر تتمتّع بمؤهّلات مادية ومعنوية هائلة، أغلبها في حالة كمون، لا يمكن تفعيلها بالاكتفاء بالاستنساخ والببغائية، أو بالاقتصار على الأوصاف الرنّانة، وأنّ توظيفها الصحيح يتوقّف إلى حدّ بعيد على إدراك مسلكي، والانطلاق دائماً من تجربتها التاريخية.

2/3. إنّ النّخب القيادية فكرية وسياسية لا يمكن أن تنجح في مهام البناء الحضاري والمؤسّساتي وتضمن الازدهار والاستقرار وقوّة الدولة، إذا

تناست حقوق وواجبات المواطنة، أو اعتبرت نفسها طائفة خارج المجتمع أو فوقه.

3/3. إنّ جوهر الوطنية الجزائرية هي في اعتزازها بالهوية العربية الإسلامية وبالأمازيغية؛ باعتبارها الرابطة القوية بين الإسلام عقيدة وحضارة، والعروبة لساناً وثقافة، فإذا اهتزّت تلك العلاقة أو ضعفت فهناك تظهر بصمات الذئب الكولونيالي، وتفوح روائح متعفّنة لتركته الإجرامية، ويتدخّل بعد ذلك باسم المحافظة على حقوق الأقليات. وهذا كلّه من صنع أذنابه الذين لا ينقرضون إلا إذا كان الصفّ الوطني متيناً.

وما يمكن التعليق على هذه المدوّنة (الكتب الثلاثة) نرى الباحث يوظّف **الطريقة التاريخية** في علم اجتماع التاريخ؛ وهذه الطريقة تسعى لاستخلاص المبادئ عن طريق الماضي، وتحليل حقائق المشكلات والعوامل التي أثّرت في الحاضر، فأستاذنا يتحدّث عن وضعية مرّ بها الشعب الجزائري الأعزل والأمي في الفترة الكولونيالية، والتي ذاق فيها ويلات التهجين والتصفية، ولكنّ هذا الشعب كان منظّماً سياسياً، بفضل توجيهات النظام السياسي آنذاك، فلعب دوراً متميّزاً أفضل من الشعوب التي كانت تحتكم إلى رتبة ثقافية معتبرة، وإلى قيادات متكوّنة سياسياً وعسكرياً، وهذا ما لم تنتبه إليه تلك الأرمادة التي استقدمها الجيش الفرنسي لقراءة كلّ الخلفيات التي تجعله يدرس هذا المجتمع بغية التحكّم فيه، وفي الأخير خابت ظنونه، بعدما شمّر الجزائريون غداة الفاتح من نوفمبر لتقويض دعائم المستعمر "إنّ الجزائريين الذين شرعوا غداة الفاتح من نوفمبر 1954 في تقويض دعائم الاستعمار الاستيطاني العنصري كان من بينهم في ذلك

التاريخ 94% من الأميين بين الرجال و98% من الأميات، ولكنّ الأمية الأبجدية لا تعني الأمية السياسية، فقد كانت أغلبية الجزائريين تغلي حماساً للثورة، وتتمتّع بفضل الحسّ الشعبي المرهف بوعي سياسي، وقدرة على تحليل الأحداث الداخلية والخارجية، والتمييز بين التضليل الذي تخصّصت فيه مصالح العمل السيكولوجي لا صاص (SAS) وتوجيهات جيش وجبهة التحرير الوطني، وتكشف قراءة المناشير التي كان (النظام) يوزّعها على المناضلين وجماهير الشعب على مفارقة هامة، ألا وهي دقّة الأفكار وعمق التحليل السياسي والأسلوب الواضح والمباشر من جهة، والأخطاء اللغوية والنّحوية الكثيرة من جهة أخرى، حتي يمكن أن تحدث في التعبير وتدلّ هذه الظاهرة على الدور الهام الذي لعبه تعليم الشعب، وحتى المقدار القليل من التعليم الذي تلقاه الجزائريون في مدارس النظام الاستعماري الذي تمّ توظيفه -عكس توقّعات الخبراء الفرنسيين- في خدمة الثورة المسلّحة ومواجهة العدو بأسلحته، ومن بينها لغته وبعض قنواته الإعلامية[1]". فنرى الباحث ينتهج منهجاً علمياً في البحث والاستقصاء في دراسة منشأ الظاهرة ومقارنة النشوء الأقدم بالحاضر، وبيان العوامل التي تقف وراء التبدّل والتغيّر في سمات الظاهرة، ويستعمل مجموعة من التعميمات والوسائل؛ بغية الوصول إلى حقيقة الظواهر الاجتماعية. واستطاع من خلال اعتماد الدراسة الكرونولوجية وطريقة المسح الاجتماعي توضيح العقبات التي تحول دون عملية التنمية، وقدّم الظواهر التي يمكن للمجتمع أن يتحرّك باعتبار أنّ الحياة متغيّرة ومتجدّدة لا تعرف السكون "كان من المفروض أن يؤدّي سجل الجريمة

---

1. الثورة الجزائرية معطيات وتحدّيات. الجزائر: 1991، المؤسّسة الوطنية للكتاب، 77.

الأسود إلى إصابة الدولة الكولونيالية المعتدية التي صاغت وتبنّت قبل عقود قليلة من غزو الجزائر إعلان حقوق الإنسان، الاعتداء على الجزائر؛ أي بعد 41 عاماً فقط من شعارات ثورتها الأخوة والمساواة والحرية، أقول كان من المفروض أن تحسّ ولأمد طويل بما وصلت إليه حكوماتها المتعاقبة من وحشية وانحطاط، وتخجل من تسامح ثوار وأجيال الاستقلال الذين تعرّض أجدادهم للتقتيل الجماعي والاستباحة، أو عاشوا عشرات السنين في الذلّ والمسغبة غرباء في عقر دارهم، فقد حُرِموا من الدولة وتقاليدها، ولم يعرفوا من المواطنة سوى القمع والتحقير"[1]. وإنّ الحركة (الحرب والثورة) هي التي أدّت إلى التغيير، وإلى إخراج من كان يتصوّر أنّ الجزائر، بلد ما وراء البحر جزء من البلد الأم فرنسا الكبرى. فوراء الحركة يكون التغيير، ووراء كلّ انتفاضة يحصل الانعتاق. ويقترح في نهاية المطاف بأنّه حان وقت لتجديد بناء الدولة الجزائرية، وهذا التجديد جواني يجب أن يعتمد الخصائص التصحيحية لمعضلات تستوجب النظر لا غير "يبدو في نهاية المطاف أنّه لتجديد بناء الدولة الجزائرية فإنّ النموذج لا يوجد خارج الحدود؛ لأنّ الاقتباس من التجارب المتقدّمة والأقلّ تقدّماً لن يفيد شيئاً إذا لم يرجع الساسة والمفكرون أولاً إلى منابع ثورة التحرير التي انبثقت من كيان المجتمع كلّه، وكانت صورة صادقة لتركيبته الحقيقية في الأرياف والمدن والمهجر، ولم تمنعها ضرورات الاكتشاف اليومي للحلول الصحيحة لمعضلات تستوجب الاجتهاد، والخطأ والصواب، لم يمنعها كلّ ذلك من التقيد بأخلاقيات وتقاليد الشعب الجزائري. إنّ السلطة الديمقراطية هي

---

1. المحنة الكبرى. الجزائر: 1999، المعهد الوطني للمطبوعات المدرسية ONPS، ص 21.

السلطة المستمدة من الشعب، وفي خدمة المجتمع كلّه، وليست تلك التي تنزل عليه من فوق، وتنادي من وراء القلاع: أين الشعب؟[1]".

ثانياً : الاهتمام بعلم الاجتماع : ضمن علم الاجتماع العام نجد هذين المؤلفين:

1. التنمية والديمقراطية في الجزائر والمنطقة العربية: هي دراسة اجتماعية توصيفية لبعض دلائل الحاضر ومؤشّرات المستقبل، في قسمين؛ تناول القسم الأول توصيفاً نقدياً لأداء النُّخب السياسية والثقافية الجزائرية خلال الثلاثين سنة الماضية، كما يبدو ذلك الأداء في مجموعة من المجالات ذات الدلالة عمّا تقدم عليه الجزائر وهي على أعتاب التسعينيات من تحوّلات وتغيّرات. وفي القسم الثاني يعالج أهمية السياق التاريخي المجتمعي لفهم وتحليل ظواهر الاقتصاد والسياسة والثقافة، وضرورة إخضاع ذلك السياق لمعطيات الواقع ومطالب المستقبل؛ لأنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستحضر الأبعاد الثلاثة للزمن بمضامينها الشخصية والجماعية، ويستطيع القيام بفعل أو اتّخاذ موقف في ضوء خبراته الماضية ومعاناته الراهنة وتطلّعاته المستقبلية. ويخلص الباحث في أنّ هذا العمل توصيف علني دافعه الوحيد الاعتزاز بالوطن، والعرفان بتضحياته ومشروعية تطلّعاته، والإدراك للمسؤوليات الحضارية، والموقع الجغرافي السياسي لمنطقتنا العربية في عالم لا يرحم الضعفاء والمتخاذلين. وبعد أكثر من ثلاثين عاماً على بداية حركة التحرّر والبناء، هل أدركنا الحرية؟ وماذا يعني التحرير من الكولونيالية في بلدان تخطو كلّ سنة نحو مزيد من العجز

---

1. الجزائر المفكرة والتاريخية، أبعاد ومعالم. الجزائر:2001، دار الأمة، ص 11.

والتبعية؟ وما قيمة إنجازاتنا الراهنة؟ ويركّز على نقطة أساسية، وهي أنّ التحرّر لا يعني الانعتاق من المستعمر وكفى، بل يراهن على استمرارية التكامل بين النُّخب والجماهير، من أجل تجسيد إرادة شعبية للإحساس بالمواطنة "لقد حقّقت بلدان المنطقة العربية تحرّرها السياسي النسبي وبدرجات متفاوتة، ولكن التحرّر ليس سوى مدخل للحرية فبدون تحالف حقيقي بين النُّخب والجماهير من أجل التقدّم والازدهار، تحالف يقوم على اكتشاف صيغة للممارسة الديمقراطية تجعل السلطة تعبّر عن الإرادة الشعبية وليس استيلاءً عليها، والمواطنة انتماء موضوعي وليس مجرّد علاقة عاطفية، والانتماء الموضوعي يعني فيما يعنيه ارتباط الحقّ بالواجب والاحترام الملزم لقانون الدولة في دولة القانون[1]". ألا ترون أنّ هذه الأفكار سبقت أوانها، وأنّها حديثة في علم المستقبل Futurologie، فنجد الباحث مستقبلي النظرة Futuriste يدعو إلى الفعل الديمقراطي الحقيقي، في الوقت الذي كان الحديث عن هذا المجال من المحرّمات، ونراه يتحدّث عن خصوصيات المواطنة التي يجب أن يحصل عليها كلّ مواطن بعفوية، ودون العودة إلى ردّ فعل يؤدّي إلى العصيان. ألا ترون أنّ مصطلح **المواطنة** الذي أصبح موضة العصر، كان الباحث قد تعرّض له منذ أمد، وأعطى له دلالته اللغوية والاصطلاحية الحقيقية، وهي القيام بالواجب، وأداء الحقوق في إطار الحرية والعدالة.

2. الجزائر والعالم: ملامح قرن وأصداء ألفية: يلخّص الكتاب حصيلة النظام العالمي الراهن الذي كسّر حركات التحرّر وبناء الدول

---

1. التنمية والديمقراطية في الجزائر والمنطقة العربية. الجزائر: ديوان المطبوعات المدرسية، ص 182.

الوطنية، أو يعرقلها عن طريق الكمبرادور، فكلّ محاولة لبناء دولة الحداثة من داخل الهوية التاريخية للأمة بمنظور جديد يجد صعوبات جمّة من قبل الغرب الذي لا يريد بناء دول وطنية تقوم على العدل والتنمية ومحاولة اللحاق به. رغم أنّ هذه الدول لا تحمل ضغينة للغرب، وتكنّ له كلّ التقدير على المنجزات الحضارية، ومع هذا فإنّ شيئاً ما لا يعجبه، وتؤرّقه كثير من الأمور، ويقول: إنّ أكثر ما يؤرّقني كمواطن عايش بعض الأحداث الجسام وهو شاب لم يبلغ العشرين، هو واقع الجزائر ومستقبلها في الأمد المنظور، فقد كنّا على يقين حتى وقت قريب أنّ شعبنا وُلد من صلب ثورة بحجم ثورة أول نوفمبر 54 لن يكون أبداً عرضة للانكفاء والانفراط، بعد أن كان خلال الستينيات القدوة والمثل في العالم الثالث، ومبعث الأمل الواعد في كلّ أرجاء الوطن العربي والإسلامي وإفريقيا. وإنّه يجب على النّخبة المبدعة والوطنية أن تضمّ إلى صفوفها النساء والرجال الأحرار في تفكيرهم، ويعملوا على التصدي لكل شكل يؤدّي إلى التعصّب والجهالة والشوفينيات البدائية.

وبهذا الحماس الذي يوظّف فيه **علم الاجتماع في معناه الريفي، وعلم اجتماع قضايا التنمية**، تناول الباحث الغايات النظرية التي تتلخّص في الوقوف على طبيعة الظواهر الاجتماعية والنظم، وكيفية نشوئها وتطوّرها، إضافة إلى ما تؤدّيه من وظائف في إطار البنية الاجتماعية. كما استهدف الكشف عن طريق الاستفادة من القوانين الاجتماعية الطبيعية في تحقيق المنافع المادية والمعنوية لمجموع السكان المقيمين الذين يؤلّفون بمجملهم المجتمع المعيّن. فترى صاحب الكتاب محلّلاً بارعاً موضّحاً الأساس الاجتماعي لعملية التنمية، وكيفية تذليل العقبات التي تحول دون تنمية، وكأنّي به العالم الاجتماعي بارسونز عند حديثه عن التنظيمات الاجتماعية

التي يجب فهم متغيّراتها ضمن المنظومة الاجتماعية، وعلى ضوء ذلك تقدّم الحلول للبنية الاجتماعية.

ثالثاً: الاهتمام بالسياسة: ضمن علم الاجتماع السياسي نجد مؤلّفين، وهما :

1. النظام العالمي ماذا تغيّر فيه؟ وأين نحن من تحوّلاته؟ في 394 صفحة مقسّمة إلى ثلاثة أقسام وتسعة فصول، يجيب الباحث الكاتب عن أسئلة طرحها في مقدّمة كتابه، وهي:

1/1. كيف وصلت المنطقة العربية إلى ما هي عليه من ضعف وتشرذم، وأين الخلل من وراء ذلك؟

2/1. هل تُعاد هيكلة العالم في كلّ مرة في غياب بلداننا، وعلى حساب شعوبنا؟

3/1. ما هو المطلوب من القيادات والنُّخب، ونحن على مشارف نهاية القرن العشرين وبداية ألفية جديدة؟

4/1. كيف تستعيد شعوبنا الثّقة في قدراتها ومستقبلها وترسّخ تضامنها في عالم تقوده الكتل الكبرى ويتّجه نحو التدويل الشامل للاقتصاد والثقافة والإعلام، ويحتكر التكنولوجيا ويفسّر الشرعية حسب مصالحه؟

كما يطرح مدخلاً لدراسة الهيكلة الجديدة للعالم من الحرب الباردة إلى الأحادية القطبية، وهذا ضمن مسار إعادة قراءة لسجلنا السابق، ومن بين حقائقه أنّ التقدّم يحدث بتراكم التجارب والخبرات والمعارف، ويؤدّي إلى الثّقة في النفس، والتحكّم في المستقبل، والانفتاح على العصر بلا عُقد ولا

تعقيد وبالمشاركة في منجزاته، ويرى أنّه ليست لنا خصومة مع ماضينا الحضاري، بل هو الذي يخاصمنا بتقاعسنا عن النقد والغربلة والإضافة والتطوير لإيصاله إلى راهنية Actualisation، فليس هناك مخاوف من الحداثة والعصرنة، فهي امتداد طبيعي لحضارتنا.

لقد حاول الباحث تقديم إجابات أولية على جوانب من هذه الأسئلة، من وجهة نظر مثقّف مختصّ في مجال العلوم الاجتماعية، يهتمّ بالتقاطعات الموجودة بين موضوعاتها ومناهجها، كما هو الشأن بين فلسفة التاريخ، والاقتصاد السياسي، وعلوم الأنتروبولوجيا، والنفس، والاجتماع، فصاحب هذه الأفكار ينتمي إلى جيل شارك من مواقع مختلفة في صنع أحداث حقبة التحرير الوطني، وتحمّل قدراً كبيراً من آلامها، وانتظر ثمارها بثقّة تلازم العديد من أفراده اليوم، ويخاف اليوم على هذا الجيل السقوط الشاقولي الذي تغذيه وتنشره وسائل الإعلام تنكيلاً بنا، وتوهيناً لكسر الثقّة بين الشعب ومسؤوليه فيخاف أن توهن وتظهر في العجز الذي يشمل منجزاته. ولقد أدّاه هذا القول كذلك لما رآه من ملامح التبعية التي بدأت تظهرها الوسائل المعاصرة، والتي لم نستطع استغلال المفيد منها، فغابت الأصالة والإنية في شباب كان آباؤهم أسوداً "تظهر خطورة التبعية الذهنية في ظاهرة التوالد الذاتي أي إنتاج التبعية من الداخل بسبب ما تمارسه الثقافة والإعلام والاهتمام القشري بمنتجات التكنولوجيا من تأثير على النخب وبعض القيادات السياسية والانتليجانسا فتبدو وكأنّها هي الممثلة لكلّ المجتمع المدني على الرغم من انعزالها في برج عاجي وانفصالها عن الشعب[1]".

1. النظام العالمي ماذا تغيّر فيه؟ وأين نحن من تحوّلاته؟ الجزائر، 1997، ديوان المطبوعات المدرسية، 382.

2. المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية (مقاومة القبائل للإدماج والتفكيك وفشل مشاريع التنصير والتجنيس) نجد محمد العربي يترجم هذا العمل لـ ش. ر. أجرون بدافع علمي للإطلاع على صوَر موثّقة لوقائع الصراع بين الكولونيالية الاستيطانية الفرنسية والمقاومة الشعبية الجزائرية بأشكالها، ونراه باحثاً مترجماً حقيقياً مستقصياً التأثير الحقيقي لسياسة الأعراق التي تعمل فعل الخميرة على تمزيق الانسجام الداخلي في المجتمع الجزائري، بوضع منطقة القبائل مخبراً لهذا الأمر؛ حيث يدافع العسكر عن المنطقة بأنّ سكانها من الجنس الأعلى المنحدر من الأصل الروماني أو الوندالي، ومنطقتهم لا تنتمي إلى منطقة سكان الجنس الأسفل، فنراه بحماس يترجم بكلّ دقّة الصراع الناشب في حقبة (1850–1900) بنقل شهادات تعكس التوهّم الذي رآه المستعمر، فينقل مقاومة القبائل لكلّ أشكال الفصل بين الجزائريين، والمحاولات العظيمة لحملات التنصير والتجنيس، بالعروج على ثورة المقراني، وأثرها على الشيخ الحداد وعلى شبكة الزوايا الرحمانية. وفي الكتاب إجابات صريحة تُلقي الضوء على حقبة من التاريخ الاجتماعي الثقافي للجزائر، وتُظهر أدبيات فرنسا في محاولات مسؤوليها خلق بؤر للتوتّر، بطمس القانون وحقوق الإنسان المتشدّق به لا غير، وتبقى فرنسا المستعمر تمساحاً لا تريد الخروج من الكولونيالية الحاقدة، ولا تتبرّأ منها.

ترجم الباحث الموضوع بصراحة واضحة؛ وأشار إلى الصراعات المدمّرة في كثير من مجتمعاتنا حول الإسلام دين التوحيد والوحدة الذي نصّ على حرية المعتقد، ورفض الأكليريكية، وحثّ على احترام حقوق

الأقليات، وجعل التسامح علامة التقوى، ولمّح خائفاً من الخطط المبيتة التي لا تظهر نتائجها إلا بعد سنين، وتؤدّي إلى التدمير الذاتي أو خلق صراعات بينية، فنجد الباحث ينزل كتابه الأول ضمن علم الاجتماع السياسي؛ باعتماد مجموعة من الحقائق والفرضيات التي يسير الباحث بهديها بغية التأكّد من صحّتها، والوصول إلى قوانين عامة يفسّر بها حركة العصر، كما اعتمد طريقة جمع الحقائق عن الموضوع وتسجيل الملاحظات، للتعرّف على ظواهر المجتمع، والوصول إلى الحقيقة الكامنة وراءها. وأما الكتاب المترجم فنجد اختياره يتماشى واختصاص الباحث، حيث وافق التجانس الثقافي لما ينشده، فلم يكن الخيار عشوائياً، بل يدخل في سلسلة الاختصاص الذي يكمل المعارف العامة، واعتمد أحد الباحثين النزيهين وهو المؤرّخ أجرون، والذي اعتمد وثائق كتبت بيد المخطّطين للفعل الإجرامي، وللكولونيالية التجهيلية. وركّز فيه على الطرح الاستعماري غير المصرّح به، ومثله مثل الذي يلكم بالقفّاز، فالاستعمار أخطبوط لا يحترم المبادئ ولا يقرّ بالديانات، ولا يهمّه التنوّع الديني، بل غرضه التدجين وخدمته، وترسيخ مبادئه وإذلال الشعوب "غير أنّه لم يكن يبدو من قبيل الإمكان العدول عن تقاليد أصبحت راسخة الجذور. وذلك أنّ الإدارة الفرنسية في ذلك العهد، وإن كانت تطري وتمتدح الحياد الديني الذي تلتزمه الدولة، تعتزم المضي في سياسة التدخّل، وهدفها واضح في ذلك وإن لم يكن مصرّحاً به، وهو الحطّ من الإسلام وإذلاله وتدميره، أو على الأقلّ ترسيخ اللائكية في الأذهان والأفكار[1]". وهذا هو الصراع الذي يجب أن ندركه بأنّ فرنسا التي تدّعي

1. المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية، الجزائر؛ 2002، منشورات ثالة، ص 195.

الأخوة والعدالة والحرية لهي من الأشياء الشكلية لا غير، فكانت في الجزائر وفي الهند الصينية تعتمد سياسية الغلبة والبقاء للأصلح، وإيديولوجيتها الاستعمارية المدمّرة لا تنحرف عنها مهما أبدت من بياض أنيابها، فلا يمكن أن يأتي من جذر الشوك شجرة الزيتون "إنّ نظرية الصراع والحرب الحضارية ترفض الاختلاف الثقافي، وتحتقر الأعراق الأخرى، إنّما تستمد مقولاتها اللاعقلية واللاأخلاقية من التطوّرية الداروينية البقاء للأصلح أي الأقوى والإيديولوجية الكولونيالية والصهيونية الثأرية والحاقدة على كلّ البشرية منذ سقوط مملكة داود وهيكل سليمان إلى اليوم[1]".

رابعاً : الاهتمام بالفلسفة: نقرأ عنواناً واحداً في هذه المدوّنة، وهو **قضايا فكرية في ليلة عربية** فترى الباحث في هذا الكتاب الصادر عن المؤسّسة الوطنية للكتاب سنة 1984، يشخّص أزمة الخيبة والاحساس المشترك بوجود أزمة عميقة الجذور، انعكست آثارها على البنيات الثقافية والاجتماعية وارتدت آثارها إلى الوضعية السياسية بسبب العجز الملاحظ عن توظيف التراث في شكله الإبداعي. وفي طرح جادّ حول هذه الأزمة، حاول وضع فرضيات تساعد على الفهم والتحليل والتفسير بتضمين مجموعة من الحلول:

- إنّ التخلّف وضعية شاملة في ظل انهيار أخلاقي واقتصادي.
- إنّ التخلّف تفاعل الموروث السلبي في هياكل المؤسّسات.
- إنّ التقدّم ليس حالة سكونية.

---

1. الجزائر والعالم: ملامح قرن وأصداء ألفية. الجزائر، 2002، منشورات ثالة، ص 269.

وبهذه الفرضيات كشف عن المضاعفات العلمية والتخلّفية على الساحة، وعلى التيارات والمذاهب المتصارعة منذ السبعينات، فرأى أنّ المستوى العقائدي والتنظيمي في احتضار مستمر، غير أنّ الانطباع الذي يبقى في الذهن؛ هو أنّ التخلّف البنوي يزرع تخلّفاً ذهنياً وسلوكياً من علاماته الغرور والذي يوهم البعض بأنّهم اليوم أحسن من الأمس، وأنّ الغد ملك أيديهم. ونجده في هذا الكتاب يلامس كثيراً من الاختصاصات، وخاصة علم النفس وعلوم التربية، فلقد مكّنته الدورات التدريبية التي أجراها بجامعة لندن في أوائل السبعينيات من الابتعاد عن التخصيص الدقيق، ولذلك لمستُ فيه الموسوعية؛ حيث انشق عن علم الاجتماع لينتج في فلسفة التربية، ويحتلّ هذا الاختصاص مكانة في البلدان التي تعيش مرحلة نقلة حضارية؛ إذ تجري مجموعة من التغيّرات التي تستوجب إعادة النظر في مسائل التربية والتعليم، وما يتعلّق بها من ظواهر اجتماعية تواكب تلك التغيّرات وتعمّق جذورها.

خامساً : الاهتمام بالتربية : نجد كتاباً واحداً في هذا الاختصاص والموسوم : **المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية** : خرج للتداول سنة 1986 عن ديوان المطبوعات الجامعية يقدّم فيه مساهمة في تحليل وتقييم نظام التربية والتكوين والبحث العلمي باعتبارها تمثّل الرؤية الحضارية والفلسفية لإنجاز مستقبل واعد، وهذا بتقديم رؤية نقدية واعية تتجسّد فيه المدرسة والجامعة بما تمثّلان من البحث العلمي الأساسي والتطبيقي، وكلّ ذلك لا يأتي إلا بمنهج واضح ينبع من داخل المنظومة وفي مستويات مختلفة، "تواجه مؤسّسات التكوين المدرسي والجامعي عزلة مصطنعة عن محيطها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وهي في بعض الحالات تكاد

تتحوّل إلى ما يشبه الدير الذي يتعاقب عليه القساوسة، ويكرّرون نفس الطقوس والمراسيم، وذلك بسبب قدم وعدم تلاؤم التشريعات التي تحكمها بالإضافة إلى الكتل البشرية التي تنهال على نفس الهياكل، وتضخّم حشود التلاميذ والطلاب بدون توجيه أو متابعة بيداغوجية، وتحت وطأة كلّ هذه الضغوط يصبح الهمّ الأول للتلاميذ والطلاب هو الحصول على (تأشيرة المرور) الدبلوم، والشغل للأساتذة هو الحصول على الترقية والاستفادة من سنوات الخدمة، وحلّ المشاكل الاجتماعية اليومية، ويتحوّل الهدف الحقيقي للمدرسة وهو التربية والتكوين إلى مجرّد حراسة للحشود، وانتظار المرتب في نهاية الشهر، وينظر إلى مواصلة التكوين والبحث العلمي في الجامعة وكأنّه فخّ يقع فيه السذج والمغفلون[1]" وبدافع التقويم نجد محمد العربي يضع بين أيدي المسؤولين والمدرّسين والقرّاء مجموعة من الآليات والأفكار والمقترحات التحديثية التي تعمل على سدّ الفجوات المطروحة في النظام التربوي الخامل، ويدعو فيه إلى المشاركة المباشرة لكلّ الأطراف الفاعلة في هذا النظام، ويلحّ كثيراً على استمرار الحوار النزيه حول واقع وآفاق هذه المنظومة بالعمل على تحديث مناهجها وربطها بتطلّعات الشعب. ونراه يدعو وبكلّ إلحاح على أنّ **المواطنة** في هذا المجال تعني حبّ العمل وإتقانه، والغيرة على الوطن تستوجب تنمية تراث الأمة والدفاع عنه، فيجب إيلاء مؤسّسة المدرسة كلّ الأهمية باعتبارها صفحة المجتمع، فإن انهارت انهار المجتمع. وكما قلتُ في المقدّمة: لاحظت أنّ الباحث يقدّم دراسة نقدية وهذا بحكم مهنة التعليم التي عرف نقائصها واستقصى عيوبها، ويضاف

---

1. قضايا فكرية في ليلة عربية، الجزائر: 1986، المؤسّسة الوطنية للكتاب، ص 44-45.

إلى ذلك ما أسند إليه من مهام سياسية في هذا المجال حيث نجده يشارك في اللجان التربوية المختصّة بوضع المناهج والكتب المدرسية، ويعيّن سنة 1970 عضواً في لجنة وزارة التعليم العالي لإصلاح التعليم الجامعي، وعضواً في الهيئة الوطنية للبحث العلمي... وهذه المسؤوليات تركته يتعرّف بشكل مباشر عن خلفيات التعليم، وخاصة عندما كان وزيراً للتعليم الثانوي والتقني. ومن هنا نرى مؤلّف هذا الاهتمام يصبّه في ما يتعلّق بمسائل القيم الاجتماعية والثقافية عن طريق النظام التعليمي بتوضيح المحدّدات الاجتماعية التي تؤثّر في تقرير السياسات التربوية وأهداف النظام التعليمي. ولذا لم يخرج عن تعريف المختصّين لهذا العلم بأنّه "العلم الذي يدرس أثر العمل التربوي في الحياة الاجتماعية، ويدرس في الوقت نفسه أثر الحياة الاجتماعية في العمل التربوي. أو هو العلم الاجتماعي الذي يدرس الظاهرة التربوية في مناحيها المتعدّدة، وفي إطار تفاعلها مع الواقع الاجتماعي[1]". وضمن هذا التحديد نجد الباحث يهتم ببحث الوسائل التربوية التي تؤدّي إلى نمو أفضل للشخصية؛ لأنّ الأساس في هذا الميدان هو التربية باعتبارها عملية تنشئة اجتماعية والبحث في هذا المجال هو البحث في **الإصلاح التربوي** الذي يجب أن ينشد، لأنّ المدرسة تلعب دوراً في تلقين الفضائل المدنية، وفي خلق الظروف التي يمكن فيها لحكم ديمقراطي أن يعيش، كما أنّ التربية هي باب تصحيح المجتمع، وتمثّل الرؤية الحضارية لإنجاز مستقبل واعد "وإذا كان نظام التربية والتكوين والبحث يمثل رؤية حضارية وفلسفية لإنجاز المستقبل، فإنّ صياغته وتنفيذه ينبغي أن تحظى باهتمام

---

1. الموسوعة العربية، المجلد آ، ص 392.

ومتابعة المسؤولين والمختصّين وجمهور المواطنين لضبط توجّهاته وإثراء مضامينه... فلم يحدث أبداً أن استحقت أمة مكاناً ممتازاً في التاريخ بدون إنجاز حضاري مبدع، وحضور ثقافي طموح ومتجدّد وهو أمر لا ينشأ باليقين من فراغ، إنّ التقدم يصنع وينمى، ولا يوهب أو يورث[1]".

سادساً : الاهتمام بعلم الاجتماع الثقافي: ضمن هذا الاهتمام نجد مؤلّفه : **المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية** إصدار دار ثالة للنشر، تحدّث فيه عن مسار الأفكار في علاقتها باللسان ومتطلّبات الحداثة والخصوصية والعولمة والعالمية، كما تحدّث عن الإشكالية الثقافية التي لا تنفصل عن حالة الركود الفكري والتخلّف الحضاري والتدهور الاقتصادي الذي أطبق علينا، وسهّل الزحف الغربي على المنطقة العربية. لقد قدّم المؤلّف وجهة نظره في أهمية التجانس الاجتماعي في ظلّ احترام الخصوصيات المحلية لمجتمعنا، وبيّن أهمية التلازم بين ثلاثي الهوية الجزائرية : الإسلام حضارة والعربية والأمازيغية لغة وثقافة، وتوطين العلم والمعرفة وتوصيلها إلى أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع، في صورة متكاملة ومتضامنة عن طريق حوار الأفكار وليس تبادل الإقصاء واللعان. فعَبْر 471 صفحة من الحجم الكبير يتحدّث المؤلف عن هذه الإشكاليات الثقافية المعقّدة، والتي أخذت مساحة كبيرة من التشنّج، وكادت تؤدّي في بعض المواقع إلى خلافات، فيقدّم وجهة نظر علمية تفضي إلى حلّ هذه الإشكالية عن طريق الاهتمام بالثقافة والهوية واللغة، والتي سوف تقلّص الهوّة بيننا.

---

1. المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية. 1989، ديوان المطبوعات الجامعية، ص الوجه الثاني من الغلاف.

وضع الباحث كتابه في اختصاص **علم اجتماع المعرفة**، وهو العلم الذي يبحث في صحة التراكيب الفكرية السائدة في المجتمع، مع اهتمام خاص بتفسيرها، وربطها بالمعلومات التي توصّل إليها علماء الاجتماع بطريق التجريب، وعلى أساس ربطها بالظروف والمتغيّرات الاجتماعية "الإنسان ليس عقلاً فحسب، ولا تجريبية منفصلة عن الذات والمشاعر، إنّه كذلك موقف ومبادئ ورؤية مستقبلية، تستنطق التجربة التاريخية، وتتحاور مع الواقع، وتستشرف متطلّبات المرحلة التي تعبرها بلادنا والعالم من حولنا، وما ستكون عليه الثقافة، وخطابات اللغة والهوية المعبّرة عنها في الجزائر بعد نصف قرن من التحرير والتدبير والتسيير[1]". ولقد امتدّ به التحليل ليضع كتابه في ابستيمولوجية في الفلسفة، واهتمّ فيه بتحليل العلاقات الوظيفية المتبادلة بين التراكيب والعمليات الاجتماعية والعلمية وأنماط الحياة الفكرية وساح بنا في موضوعية مستبعدة لكلّ عناصر القيمة والمعيارية والإطار الميتافيزيقي، وعالج الجوانب التي ترتبط بجذور اجتماعية، بمنهج جدلي صاعد يضع الثقافة في وضعها الحقيقي، فيقول: "إنّنا نميل إلى منهج الجدل الصاعد الذي يرفع الثقافة الوطنية إلى مستوى العالمية، ولا نثقّ في الجدل النازل الذي يبدأ بالعالمية ليحطّ من عليائه فيما يصبح في نظره فولكلوراً للفرجة والتسلية، لقد ضاع كثير من دعاة عالمية بلا وطن ولا جنسية، وفقدوا في نهاية المطاف المدار والجاذبية".

إنّ الثقافة في منظور الباحث لا تعني التعلّق بالقشور، بل تعني الشجاعة الأخلاقية دون مزايدة أو استلاب، للوصول إلى حذف ما هو حشو

---

1. المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية. الجزائر: 2003، دار ثالة، ص 17.

في موروثنا وفي أفكارنا "إنّ انطلاق التحديث من التراث والعقيدة لا يعني إلصاق إحداهما بالآخر بالطريقة التلفيقية المعهودة مثل (نعم كذا... ولكن كذا...) وهو أمر تزخر به أدبياتنا ومواثيقنا. إنّه يتطلّب مراجعة قبلية لما علق بالتراث والعقيدة من صدإ، وهو يتطلّب أكثر من ذلك: شجاعة أخلاقية، أي بدون مزايدة أو استلاب، شجاعة تصل إلى حدّ حذف وإزالة ذلك الصدأ من الأذهان والعقليات، بدون ذلك يكون الحلّ الوحيد هو المحاكاة المفلسة للحداثة الغربية والبقاء عالة على مائدتها الشحيحة[1]". كما أنّ الثقافة هي استراتيجية ديمقراطية تعتمدها الشعوب في الحفاظ على معاييرها وأخلاقها، ومن خلالها تجسّد أفعالها بكلّ وعي، وتدافع عنها، وتخرجها من بورصة النزاع... إنّ الباحث يطرح هذه القضايا لمقاربة هذا بما تعيشه الثقافة الوطنية، ويرى بأنّ الحلّ يكون باستحداث استراتيجية تراعي مختلف الأبعاد، والرهانات، وإلا خسرنا القضية سلفاً "لا حلّ مطلقاً بدون استراتيجية يشارك المجتمع ديمقراطياً في تحديد محاورها ويساهم في إنجازها، بقيادة فكرية سياسية تجمع بين الذكاء والإرادة والوعي بالرهانات الكبرى لعصر ما بعد الحداثة والتجربة التاريخية لشعوبنا قبل حقبة الانحدار وبعده، وما سوى ذلك ليس أكثر من مضاربات في (بورصة) الكلام لكي لا نقول لغواً لفظياً وديماغوجية سياسية تولد ميّتة، أو تموت قبل أن تولد[2]".

ويمكن الوقوف في مسألة الثقافة التي عهدنا فيها الأستاذ محمد العربي أحد المثقفين الجزائريين الذين كان لهم الصيت منذ الاستقلال؛ حيث ساهم في تأسيس الصحافة الجزائرية الناطقة بالعربية، وعيّن سنة 1965 رئيس

---

1. المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية. الجزائر: دار ثالة، ص 457.

2. المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية. الجزائر: منشورات ثالة، ص 446.

تحرير النشرة الثقافية الأسبوعية لصحيفة الشعب، ونشط في هذا المجال من خلال موقعه كأستاذ جامعي يحاضر خارج المدرّج، أو من خلال نشاطه الحزبي كمحاضر في مختلف المواقع، دون أن ننسى أنّ هذا الأمر أدّى به أن يكون أوّل عضو في الحكومة يكلّف بالثقافة والفنون الشعبية سنوات 1980-1982م... واستناداً إلى هذه المواقع الحسّاسة في المجال الثقافي لم نجد التسجيل المصاحب لذلك الوقت، وبكلّ أسف ضاعت أفكار وجهود وحيثيات كبيرة، لأنّ التسجيل إذا لم يصاحب الحدث سوف يتعرض بعد مدة للزيادة أوالنقص، وعذره في هذا قد يعود إلى الاهتمامات والمسؤوليات السياسية التي كُلّف في الحكومة أو في تمثيل الجزائر في الخارج، ولم نجد عنده ما يدوّن تلك المرحلة الخصبة، وخاصة أنّ قلّة من المثقفين كانوا قد برزوا في الساحة الثقافية، فكاتبنا منهم، والآن نبحث عن بصماته في تلك السنوات، وهي غائبة.

وفي آخر المطاف قد أتجنّى إذا قلت: إنّني أقوّم أو أقيّم أعمال الباحث محمد العربي، فكيف لباحث مثلي وغير متخصّص أن يقدّم دراسة نقدية، وإنّ عملي ليس إلا دراسة وصفية تحليلية في متون الباحث، فهو فوق النقد؛ لأنّ أعماله أكاديمية، ويشهد له طلابه الذين اعتلوا أعلى مناصب العلم بفضل الخبرة التي نقلها لهم في مدرجات الجامعة، كما أنّ أخلاقه عالية، وهي سمة لا تلصق إلا بالعلماء الكبار، فهو أرفع من أن يوضع في الميزان، ولكنّه بشر يخطئ ويصيب، فلقد أصاب في كثير ممّا طرحه من أفكار، ولكن هناك أفكار تحتاج إلى نظر، خاصة في المسائل التربوية والثقافية، وما طرحه من جدال حول المدرسة والجامعة، فهو لو يعيد فيها النظر

سيقول: لو قلت هذا لكان أحسن ولو غيّرت هذا لكان أفضل، وهذه سمّة النقص في البشر، ودلالة التغيّر للأفضل. وفي مجال التربية نشهد بأنّ للمؤلّف بصمات ظاهرة في النقد البنّاء، نقد يقوم على تشخيص الواقع، وتقديم الحلول، فنبّه إلى هذه الأوضاع المريبة والتي أوصلت المدرسة والجامعة الجزائرية إلى الصيغة السلبية، حيث ترمي بأجيال متعلّمة إلى الشارع دون استغلالهم، وبأجيال نصف متعلمة أحياناً، فغاب الإحساس بضعف المستوى وبتدهور الأوضاع، فتغلّب الكمّ على الكيف، فأين نحن من الجامعات العالمية، وأين موقعنا في الخريطة العالمية للجامعات، لماذا نكوّن لغيرنا، لماذا ندفع ضريبة كبرى لتكوين رجل الغد فيما لا يقل عن ثلاثين سنة، ويأتي بلد غربي يأخذ المورد جاهزاً... **وجعات** كبيرة مسّها الباحث في هموم هذه المؤسّسات مساّ دقيقاً، فنادى في أوائل الثمانيات بضرورة الإصلاح الشامل والمتدرّج لإعادة هذه المؤسّسات إلى الانشغال بدورها في التربية والتكوين وإعداد إطارات وفنيين وتقنيين ومهندسين ومعلمين وقيادات المستقبل.

وأما الجانب الثقافي، فإنّ الباحث لم يشبع فضولي، فقد انتظرت التفصيل في القضايا الثقافية أكثر من تلك الأفكار التي أوردها في كثير من مواقع الحديث عن الجانب الثقافي، فغاب الحديث عن الثقافة الأفقية، فهل هو يزكّي ثقافة النخبة، ونعرف أنّه لا يقرّ بذلك، فأين الحديث عن الثقافة الجماهيرية العاملة على إنزال الثقافة من برج النخبة، وتكون ملموسة في سلوك المثقّف البسيط الذي يتكلّم باسم الجماهير، وأشياء أخرى في هذا المجال أنتظر فتحها؛ لأنّ الباحث من المثقفين الذين يشهد لهم بالنزاهة،

وتشخيص الوضع مع تقديم الحلول بكلّ جرأة، فقد كنت أنتظر الحديث القطع في هذا الطابو الثقافي الذي يجب على المثقّف الجزائري، مثل محمد العربي، أن يفتح النقاش بشكل طبيعي، ويدلي برأيه؛ مقدّماً الحلول التي تزيل فتيل القنبلة الموقوتة في قضايا: **الهوية، واللغة الوطنية، واللغة الرسمية، واللغات الأجنبية (الفرنسية)** ولقد أحسست بأنّه يبتغي الإدلاء بها، بل كان يدلي بها في تدخلاته الشفوية في اللقاءات المتخصّصة، إلا أنّني ما وجدت تسجيلاً لها. وأعلم سلفاً بأنّه يقبل الازدواجية غير المتوحّشة، وينظر إلى **اللغة العربية بأنّها لغة موحّدة وليست لغة أَحادية**، وفي ذات الوقت، نجده من المساهمين الفعليين في تعريب التعليم العالي في جامعتي الجزائر ووهران، ويشهد له بأنّه كان ينتقل من العاصمة إلى وهران في القطار أو في الحافلة لرئاسة لجان التعريب، فعمل بصمت في هذا المجال، وكنت أنتظر التسجيل لتلك الفترة التي شهد فيه التعريب زخمه الأول. كما أنّ الباحث لا يتنكّر لأصالة الجزائر، فيقول من الضرورة بمكان الاهتمام باللغة **الأمازيغية**، وإخراجها من بورصة المضاربة، وأنّ يكون لها نصيب معتبر ونوعي في وسائل الإعلام، وأنّ **تراثنا يتعدّى التراث العربي الذي قبعنا فيه**، ولم نحاول تجديده، **فتراثنا قديم قدَم التاريخ**، ويصرّ على **ضرورة تحديد السياسة اللغوية في الجزائر**، كي تظهر محلّ كلّ لغة في وضعنا اللغوي والسياسي وفي أطلسنا اللغوي... ولا أخفي بأنّ بعض هذه المسائل تعرّض لها باختصار شديد في كتابه: الجزائر المفكرة والتاريخ: أبعاد وملامح، الصادر عن دار الأمة سنة 2000م ويبدو لي بأنّ المؤلف يستطيع أن يكشف الغطاء عن تلك الأمور أكثر ممّا لمّح لها، وهذا ما ننتظره في لاحق من أعماله وخاصة وإنّي ألاحظ السيرة العلمية ذات مشاريع طموحة

في الإنتاج الثقافي القادم، وهذا ما نطمح أن يعالجها بكلّ قوة. هذه الأشياء الخطيرة والجيّدة في ذات الوقت، كنت أنتظر من الباحث الخوض فيها وفكّ ألغازها، وأن يطرحها للنقاش العلمي لتفادي كلّ التشنّجات التي حصلت في مجتمعنا منذ التعددية السياسية. ولا شك أنّ هذه الأمور قد فتحتْ بها شهية الكتابة في **إشكالية الكتاب القادم**، ونعرف بأنّ محمد العربي يحمل ريشة لا يجفّ مدادها، فنرجو أن يستعيد الإشكالات الثقافية، ويبحث في محدّدات **المسألة اللغوية في الجزائر**.

وأما من جانب المنهجية العلمية التي لا يمكن أن نختلف فيها، فأشهد لأستاذنا بالدقّة العلمية والمنهجية الأكاديمية، والأمانة في النقل، والتثبّت مما ينقل، واعتماد الاطّراد عند اختلاف الآراء، وعدم الخروج عن النمطية الأكاديمية، وعن عرف البحث النّوعي. وأما المعلومات فهي من الصعوبة أن يقع الإجماع عليها في العلوم الاجتماعية، فهي ليست حقائق قارة يمكن الاتّفاق عليها؛ فهي وجهات نظر مختلفة وما هو صادق اليوم، قد لا يكون كذلك غداً، وإنّ التطوّر الذي يحصل في منهجيات هذه العلوم تترك المجال مفتوحاً للباحث بالإضافة أو النقص، أو التعديل، وخاصة أنّها علوم إنسانية، متعلّقة بالإنسان الذي تتطوّر معلوماته وتترقّى بحسب الأرضية المعرفية والتغيّر الدلالي الذي يصيب معجمه. ولكن إذا أخضعناها للمنهجية العلمية وللميزان النقدي فنرى الباحث يعتمد أدوات البحث العلمي المعاصرة، حيث يخضع الرأي للحقيقة والضد، ومنها يستنتج الرأي الصواب، وذلك من شروط البحث الأكاديمي، فهي من الصدق بمكان وخاصة عند من يعتمد أدوات البحث

العلمي، مثل: الشهادات، والرسوم، والإحصاء والمصادر الدقيقة والاستقصاء، والتّحرّي.

وأختم دراستي بأنّي لمست في الباحث خصلة علمية جادة، وهي ربطه بين **الأصالة والمعاصرة** فالإنسان لا يكون عصرياً كاملاً إذا لم يصل الحاضر بالماضي، فأرى ولد خليفة ينشد التراث كماض يحنّ بالعودة إليه، وهو في ذات الوقت منافع الدين والدنيا، ولكن لا يعني بذلك التمسّك بالتراث والوقوف عنده، بل استلهام نفحات الخير منه. ولمست كذلك بأنّ الماضي القريب أو البعيد عنده لا يحول دون التماس الخير أو الجديد فيما حقّقه التطوّر العلمي والإبداع العقلي. فحبّه لقدامى العرب والأمازيغ لم يمنعه من قراءة لا مارتين، وتشيكوف، ولا ڤيكتور هيجو، وروسو، وغيرهم من علماء الإنجلوساكسون. وكان يقيس دائماً الحديث بالقديم؛ قياس الحاضر على الغائب، ويرى ضرورة الأخذ بما هو صالح في القديم وتحيينه، والمهمّ في كلّ ذلك أنّه يدعو إلى ثقافة اجتماعية متوازنة؛ تجمع بين القديم والجديد، بين المجتمع ومعطياته، بين الأرضية المعرفية والتغيّرات الحاصلة، بين **الأصالة والمعاصرة**. فالأصالة عنده لا تلغي الماضي ولا تناقضه، ويربطها بالإصلاح التربوي؛ فهو أعظم من الثورة؛ لأنّ الإصلاح التربوي مشروع حياة، ويؤدّي إلى استعادة معنى الوجود وحسن الكرامة وتحقيق شرعية التأصيل، وبه تتغيّر الذهنيات، ويحصل الإجماع وتحصل الحداثة التي يجب أن ندخلها في مدارسنا، كي لا نبقى على الهامش، وإنّ كلّ تأخير ليس في صالحنا، **فالعولمة اللغوية ترفض الفراغ وتلفظ النائمين، فلا بدّ لنا من الاندماج فيها، بالاحتفاظ بإنيّتنا وأصالتنا**. رغم أنّه ينظر إلى العولمة

على أنّها فخّ كبير، وغول يأتي على مقوّمات الشعوب الضعيفة، فلا تترك المجال للتمايز، ويرى بأنّ الحلّ يكمن في العمل النهضوي المصاحب للتيار الغربي الذي به نكون مساهمين في الفعل الحضاري الحديث. فمن خلال هذا، أراه يحمل رسالة الأمل، وهي ضرورة حياتية لمشروع حديث وواسع، يعتمد التفاعل الواضح مع الآخر، وبه يكون الانطلاق نحو مستقبل نكون فيه فاعلين كما كان أوائلُنا مبادرين.

من نشاطات المجلس الأعلى للغة العربية

إعداد: أ. حسن بهلول

قام المجلس الأعلى للغة العربية بعدة نشاطات ثقافية وفكرية وعلمية يصعب علينا ذكرها كلها في هذه الصفحات القليلة التي يتضمنها هذا الركن، وسنكتفي بإيراد البعض منها تماشيا مع العنوان – أعلاه –.

الملتقيات الوطنية :

– الملتقى الثاني الذي نظمته جمعية مولود قاسم الثقافية لولاية بجاية حول شخصية مولود قاسم وذلك يومي 9 – 10 سبتمبر 2004.

– حضور الفعاليات العلمية والثقافية للملتقى الخاص بمقاومة الشيخ أمزيان الحداد قطب الطريقة الرحمانية والحاج محمد المقراني وثورتهما ضد الاستعمار الفرنسي.

وقد نظم هذا الملتقى نظارة الشؤون الدينية والأوقاف لولاية برج بوعريريج تحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية بدار الثقافة "محمد بوضياف".

والجدير بالذكر أن هذه التظاهرة حضرها رئيس المجلس الدكتور محمد العربي ولد خليفة.

– ملتقى الذخيرة اللغوية بجامعة الأغواط من تنظيم المجمع الجزائري للغة العربية ومساهمة جامعة الأغواط وذلك أيام 26–27–28 فيفري 2005.

– المشاركة في ملتقى مولود قاسم نايت بلقاسم الذي نظمه المجلس الإسلامي الأعلى بالتعاون مع جمعية مولود قاسم نايت بلقاسم لولاية بجاية أيام 27 –28–29 مارس 2005 وإلقاء محاضرة للأستاذ محمد العربي ولد خليفة بعنوان: "مولود قاسم رجل الدولة مناضل الحركة الوطنية وباعث المشروع الحضاري"

– ملتقى يوم العلم والمعرض الدولي للكتاب بمدينة قسنطينة من تنظيم مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس بمناسبة إحياء يوم العلم 16 أفريل 2005.

– الملتقى الوطني الثالث للعلامة موسى الأحمدي نويوات ببرج بوعريريج أيام 12– 13–14 أفريل 2005 وقد تم على هامش هذا الملتقى تكريم الدكتور محمد العربي ولد خليفة على إسهاماته الفكرية والثقافية المتميزة، والذي قدّم مداخلة بهذه المناسبة، وكذلك الدكتور صالح بلعيد.

– ملتقى أعلام ولاية البويرة الذي نظمته نظارة الشؤون الدينية والأوقاف بالتعاون مع الولاية، وذلك يومي 27 – 28 أفريل 2005.

– ملتقى قالمة حول أحداث 8 ماي 1945 المعروفة، بحضور الدكتور محمد العربي ولد خليفة الذي قدّم بهذه المناسبة مداخلة، كما أعطى إشارة

انطـلاق مسـابقة الإمـلاء والخـط بمدينـة قالمـة، والتـي شـملت كافـة ولايـات القطـر بهدف تحسيس تلاميذ وتلميذات السنة السادسة أساسي بأهمية اللغة العربية.

هذا مع الإشارة إلى أن هذه العملية تمت بالتشاور والتنسيق مع وزارة التربية الوطنية.

المشاركات الدولية :

- المشاركة في اجتماع المجمع العربي السوري عن طريق الدكتور محمد العربي ولد خليفة وعضوية الأستاذ صالح بلعيد.

هذا ونذكر أن الدكتور ولد خليفة ألقى محاضرة قيمة بهذه المناسبة بعنوان "من المفهوم إلى المصطلح" نحو قواعد المعطيات المفهومية"، وذلك في الفترة ما بين 9 -12 /2004/12.

- المشاركة في المعرض الدولي للكتاب الذي أقيم بإمارة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة من 6-2004/12/12.

- المشاركة في المعرض الدولي الحادي عشر للكتاب بمدينة الدار البيضاء بالمملكة المغربية الشقيقة من 10-2005/02/20.

نشاطات ثقافية وعلمية متنوعة داخل الوطن :

- حفل توزيع "جائزة اللغة العربية" لعام 2004 الموسومة "أبو العيد دودو" وتكريم بعض الشخصيات العلمية والفكرية وذلك يوم 2004/10/25 بفندق الأوراسي[1].

---

1. للمزيد من المعلومات يرجى الرجوع إلى العدد الخاص من مجلة اللغة العربية ط : 2.

– حفل إصدار "العدد الممتاز" من مجلة اللغة العربية حول: "العربية..من محنة الكولونيالية إلى إشراقة الثورة التحريرية"، والخاص بالذكرى الخمسين للثورة التحريرية المظفرة بالإشتراك مع وزارة المجاهدين، وتحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية الذي أنعم بشهادات تكريم على بعض الشخصيات الوطنية والفكرية التي أسهمت في تطوير اللغة العربية بالجزائر. هذا ونشير أن الأستاذ محمد الميلي ألقى بهذه المناسبة محاضرة قيمة حول العربية خلال فترتي الاحتلال والاستقلال.

والجدير بالذكر أن هذا الحفل أقيم يوم 1 فيفري 2005 بالمركز الدولي للصحافة.

– تنظيم حفل استقبال على شرف بعض الشعراء العرب الذين دعتهم جمعية "فنون وثقافة" لولاية الجزائر، ثم خلاله تكريم الشاعرين الكبيرين عبد القادر السائحي وأبو القاسم خمار وذلك يوم 2005/04/16 بمقر المجلس.

– مائدة مستديرة حول دور الطلبة المسلمين الجزائريين أثناء الثورة التحريرية بقصر الثقافة يوم 20 أفريل 2005 بمشاركة السادة: الأمين خان – عبد الكريم حساني – السيدة زهرة ظريف بيطاط، ومحمد الشريف سيسبان، وتنشيط الأستاذ صالح بن القبي.

– مائدة مستديرة حول الطب ولغة المريض بمركز الصحافة الدولي يوم 16 مارس 2005 شارك فيها: السيدة سعدي، الدكتور الشيخ أبوعمران رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، الأستاذ محمود عروة، د. مصطفى خياطي، د. عمار طالبي، د. عتيق اسطمبولي، تنشيط د. سعيد شيبان.

– عرض كتاب "المبرق" بمركز الصحافة الدولي يوم 23 نوفمبر 2004 تقديم الدكتور صالح بلعيد، وقد نال استحسانا كبيرا لدى الحاضرين.

والجدير بالذكر أن هذا المؤلف للدكتور محمود إبراقن فاز بجائزة اللغة العربية لعام 2000 ويعتبر أهم المعاجم العربية في مجال علوم الإعلام والاتصال.

– تنصيب مجموعة عمل مكلفة بتنقيح المصطلح الإداري برئاسة الأستاذ د. سعيد مقدم رئيس مجلس الشورى المغاربي وذلك يوم 2005/2/5.

– تنصيب لجنة تحكيم جائزة اللغة العربية لعام 2005 برئاسة الدكتور صالح بلعيد وذلك يوم 2 مارس 2005.

– إطلاق اسم مولود قاسم نايت بلقاسم على قاعة محاضرات المجلس وتكريم زوجته على شرفه وذلك يوم 2005/3/29 الذي يصادف اختتام الملتقى الذي نظّمه المجلس الإسلامي الأعلى والذي سبقت الإشارة إليه.

– بمناسبة منح الدكتوراه الفخرية للشاعر عبد العزيز سعود البابطين من جامعة الجزائر، وكذا اختتام دورة علم العروض وتذوق الشعر "محمد بن شنب" التي نظمتها جامعة الجزائر ومؤسسة البابطين تحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية، تم تكريم الدكتور محمد العربي ولد خليفة رئيس المجلس، من طرف مؤسسة البابطين، بقصر الثقافة يوم 11 ماي 2005.

إعلان عن جائزة اللغة العربية

يعلن المجلس الأعلى للغة العربية عن تنظيم "جائزة اللغة العربية لسنة 2005" وتهدف على وجه الخصوص إلى تشجيع أعمال الباحثين والمبدعين وتثمين منجزاتهم العلمية والمعرفية ذات المردود النوعي الهادف إلى إثراء اللغة العربية والمساهمة في نشرها وترقيتها، سواء كانت هذه الأعمال مؤلفة باللغة العربية أم مترجمة إليها،

1. تتمثل شروط الترشح للجائزة فيما يلي :

- أن يقدم العمل باللغة العربية.
- أن يتوفر العمل على قواعد المنهجية العلمية.
- أن يكون البحث موثقا وأصيلا، ولم يسبق نشره، وفي مجال الترجمة ترفق صورة للنص بلغته الأصلية.
- أن يندرج البحث في أحد المجالات المحددة في الفقرة الموالية.

2. حدد مبلغ الجائزة بـ 600.000 دج، يوزع على ثلاث مجالات بمقدار 200.000 دج لكل مجال،

- جائزة اللغة العربية في علوم اللغة العربية.
- جائزة اللغة العربية في علوم الطب والصيدلة والتكنولوجيا.
- جائزة اللغة العربية في الترجمة إلى العربية.

يتقاسم جائزة اللغة العربية في كل مجال من المجالات السالفة الذكر فائزان، حدد نصيب الفائز الأول بنسبة 70 بالمائة وحدد نصيب الفائز الثاني بـ 30 بالمائة منها.

يتكفل المجلس بنشر الأعمال الفائزة، وتصبح ملكا له، إلا أنه يمكن للفائز بالجائزة استعادة حقوقه حسب دفتر الشروط وبعد انقضاء مدة ثلاث سنوات من نشر العمل.

تعرض الأعمال المرشحة على لجنة تحكيم، مكونة من ذوي الاختصاص، الذين لا يسمح لهم بالمشاركة فيها،

- قرارات لجنة التحكيم نهائية وغير قابلة للطعن.
- لا ترد الأعمال إلى أصحابها، سواء فازت أم لم تفز.

3. يتكون طلب الترشح من الوثائق الآتية :

- طلب خطي
- السيرة العلمية والمهنية للمترشح
- نسختين من البحث المقدم للترشح :

– النسخة الأولى مسجلة على قرص مرن.

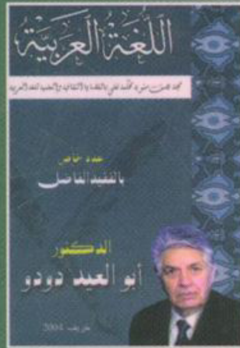
– النسخة الثانية توجه عن طريق البريد المسجل، ويكون تاريخ الختم البريدي شاهدا على ذلك.

4. يفتح باب الترشح للجائزة ابتداء من نشر هذا الإعلان في وسائل الإعلام إلى غاية 31 ديسمبر 2005.

5. يوجه ملف الترشح إلى العنوان الآتي : السيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية، شارع أحمد باي، الأبيار، الجزائر أوص.ب : 575 شارع ديدوش مراد الجزائر العاصمة.

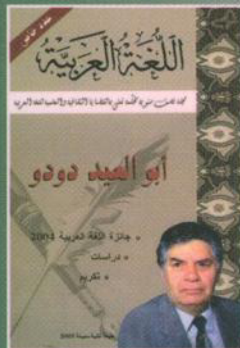
إنجاز وتصميم منشورات ثالة – الأبيار، الجزائر، 2005.
هاتف : 11 42 58/92 36 72/92 17 79 021
فاكس : 72 17 79 021

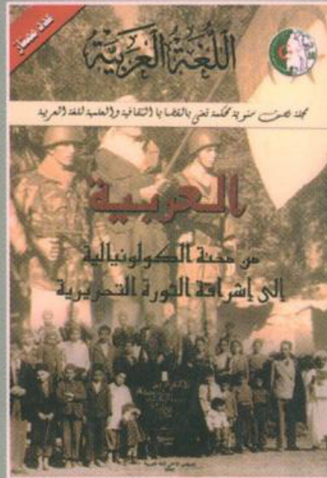
من الإصدارات الأخيرة :



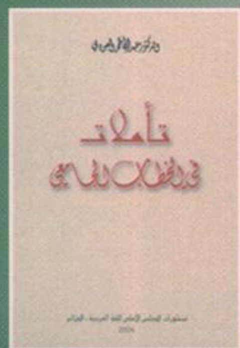




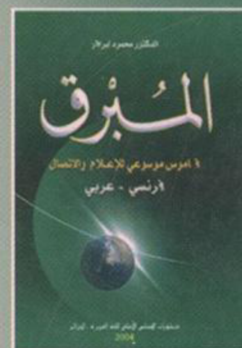






























المجلس الأعلى للغة العربية

06، شارع العقيد أمحمد بوقرة، الجزائر

الهاتف : 24/25 07 23 21 213 الفاكس : 07 07 23 21 213

ص ب 575 الجزائر، ديدوش مراد

www.csla.dz